

نهج الرسول
ﷺ

في إطفاء نار اليهود

الباحث

سيد جعفر سيّد مجتبیٰ العارف الكاشفي

مركز الدلائل العقائدي



مركز بحثي متخصص في الرد على شبهات المخالفين

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: نهج الرسول ﷺ في إطفاء نائرة اليهود

التأليف: سيد جعفر العارف الكشفي

الناشر: مركز الدليل العقائدي

الإخراج الفني: صفاء أحمد الشمري

سنة الطبع: ١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٤ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمركز الدليل العقائدي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ❀ وَدَاعِيًا إِلَى
اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ❀.

[الأحزاب: ٤٦]

مقدمة المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمّانِ الأكملانِ على سيّد الأولين والآخرين وأشرف الخلق أجمعين، سراج المهتدين، والمبعوث رحمة للعالمين، المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين.. وبعد:

انطلاقاً من قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)، أخذ مركز الدليل العقائدي على عاتقه التصديّ للشُّبُهَاتِ التي تطال العقيدة الإسلامية عموماً، والتعريف بعقائد الشيعة الإمامية خصوصاً، مع التصدي للرد على كلّ الشُّبُهَاتِ التي تطال المذهب الشيعي خاصة، هذا المذهب الشريف الذي أسّس بنيانه، ووَضَعَ لبناته الأولى النبيُّ الأقدس ﷺ حين قال في حديثٍ صحيح: (إني تاركٌ فيكم خليفتين: كتاب الله حبلٌ ممدود ما بين الأرض والسماء، وعترتي أهل بيتي، وإني لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض)، وما تلاه من بياناتٍ وأحاديث متضافرة تحثّ على التمسك والأخذ والمتابعة للثقلين (الكتاب والعترة) معاً، كهذا الحديث الصحيح: (إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني

فيهما)، وغيرها من الأحاديث الشريفة الصحيحة الواردة في هذا الجانب، التي يكاد المنصف أن يقول بتواترها، بل هي متواترة فعلاً، لتضافر نقلها عند جميع الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربهم الفقهية والعقدية.

وكل هذه الردود إنما تجري على وفق أسس علمية ومنهجية سليمة، بعيدة عن التعصب الأعمى والانغلاق المقيت، فالعلم هو السلاح الوحيد النافذ الذي يصح الاحتجاج به، وما عداه لا قيمة له، وقد نُسب إلى سيد الموحدين أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام قوله:

فَفُزُّ بِعِلْمٍ وَلَا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وعلى وفق هذه المعطيات جاء كتاب "نهج الرسول صلوات الله عليه وآله في إطفاء نائرة اليهود" للباحث سيد جعفر سيد مجتبی العارف الكشفی، ونسأل الله العلي القدير أن يجعله ذخراً لمؤلفه يوم الحشر، وأن يحشره مع محمد وآله المنتجبين، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

اللجنة العلمية

مركز الدليل العقائدي

النجف الأشرف

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م

كلمة موسوعة

الفكر الإسلامي يركز على أساسيات عقائدية ثابتة لا محيد عنها، وهي التوحيد والنبوة والمعاد، والنبوة في الثابت الإسلامي هي العقيدة بجميع الأنبياء والرسل من آدم أبي البشر إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ومن جملة الأنبياء هو النبي العظيم موسى بن عمران ﷺ حيث بعث بعد النبي يوسف ﷺ بفترة ليستنقذ بني إسرائيل وغيرهم من براثن الجهل والشرك والتخلف والظلم الفرعوني الجاثم على صدر المجتمع آنذاك.

وهكذا كان... فقد التفَّ حوله قومه بنو إسرائيل وبعد أن استطاع بمعاجز إلهية أن يتغلب على الفراعنة ويستنقذ المستضعفين من قيود الظلم وينشر تعاليم التوراة، التحق بالرفيق الأعلى، واستمرت مسيرة الأنبياء في سلالة بني إسرائيل وبرز منهم ملوك جابرة حاولوا بكل ما استطاعوا من جبروت وبغي أن ينسفوا ما بناه موسى والأنبياء من بعده حتى تجاوزوا كل الحدود وقتلوا كثيراً من الأنبياء، وساعدهم في الانحراف والتعدي بعض أحبار اليهود وعلمائهم وبدأوا بتحريف التوراة والتعاون مع الظالمين وأكل مال المحرومين.

وبعد مئات من السنين بعث الله من بينهم عيسى بن مريم ﷺ

ليصحح المسيرة ويقف أمام الانحرافات والتعديات ويُرجع شريعة موسى إلى نصابها الزلال الشفاف الناصع، فتصدت له جابرة بني إسرائيل وعتاتهم وحاولوا قتله حتى رفع الله إليه.

وحدثت فترة من بعد هذا الرسول العظيم حتى بعث الله محمدًا ^{صلى الله عليه وآله وسلم} بشيرًا ونذيرًا وخاتمًا لهذا المسيرة الربانية السَّماوية. وكان بنو إسرائيل ينتظرون بعثته على أحرَّ من الجمر ويستفتحون قدومه، وبدأوا يتوافدون على يشرب وما حولها حيث كانوا يجدون في كتبهم أن هذه المدينة الصغيرة سيكون لها الدور العظيم في بناء صرح النبوة الخاتمة.

ولكن الذي حدث، كان على عكس ما كانوا يتمنونونه، فبنو إسرائيل كانوا يعتبرون أنفسهم وقومهم طلائع البشرية وصفوتها بل كان المنحرفون منهم يعتبرون السلالات البشرية الأخرى حيواناتٍ خلقها الله مسخرة لخدمة سلالة بني إسحاق، ومن الطبيعي في عقيدتهم الشاذة المخالفة لتعاليم أنبيائهم أن يختار الله النبي الموعود من سلالة إسحاق، وفجأة بعث الله محمدًا العربي منحدرًا من نسل إسماعيل أخي إسحاق، فانصدم اليهود بهذا الاختيار الإلهي وكأنَّ الله قد فرض على نفسه الاستئذان من هذه الشذمة لاتخاذ قراراته ومشروعاته.

هذا من جهة ومن جهة أخرى انصدم اليهود مرة أخرى بما يطرحه هذا النبي الجديد حيث يساوي بين الناس ومن كل قوم، فلا فرق عنده بين بني إسحاق وبني إسماعيل وبين غيرهما إلا بالتقوى، ومعنى ذلك أن هذا الدين الجديد سيقبَل كل الموازين الاجتماعية

رأساً على عقب، وبذلك فإن من الممكن أن يصعد العبد الحبشي أو الأسير الفارسي على أكتاف الأحرار والحاخامات الذين طالما امتصوا دماء الفقراء والمستضعفين وبذلك تنهد شوكتهم وتزول سيادتهم على الناس، فوقفوا أمام هذا الرسول الخاتم ﷺ بكل ما كانوا يمتلكون من قوة ومال وسلاح ودهاء ومكر وسياسة.

فتارة بيث الشبهات وتحريك المشركين في الفترة المكيّة وتارة بالاستسلام المشوب بالحذر وذلك بعقد المعاهدات مع الرسول عند ما قامت حكومته في يثرب، وبعدها بدأوا بالتحالف مع الحزب القرشي المشرك وذلك بمدّه بالسلاح والوعود بالتعاون العسكري ضد الرسول، وتارة أخرى بزرع الفتن والتحالف مع المنافقين من أصحاب النبي ﷺ وبعد اليأس من كل المحاولات أعلنوا الحرب على الإسلام والمسلمين جهرة.

والعجيب في تاريخ اليهود وخاصة الذين كانوا في الجزيرة العربية وفي يثرب وحواليها بالذات، أنهم كانوا يتخذون الموقف الخطأ دائماً، فالسياسي المصلحي المحنك هو الذي يبقى على نفسه وعلى قومه في خضم الصراعات، ولكننا نرى أن المواقف اليهودية كانت تنصب دائماً في ضرر اليهود أنفسهم إلى أن وصل بهم الأمر إلى انهيار كياناتهم وخراب قلاعهم وحصونهم ونفيهم عن يثرب وحواليها.

أجل فإن لكل قاعدة استثناءات محدودة، فقد استطاع بعض اليهود من الأحرار وغيرهم من التصدي للنفس الأمانة بالسوء، حيث

انصاعوا لبشارات كتبهم وأوامر أنبيائهم فتقبلوا الرسالة المحمدية وبصدور رحبة وصنعوا من أنفسهم منارات للتاريخ حيث أصبحوا حجباً على بني قومهم.

وقد قام أخي الفاضل سيد جعفر العارف الكشفي بتأليف هذا الكتاب باللغة الفارسية وقد أخذ الأخ الفاضل حيدر تبريزيان مهمة ترجمته إلى العربية مشكوراً حيث حاول المؤلف أن يكشف تفاصيل التعامل اليهودي مع الرسالة المحمدية الخاتمة منذ البعثة النبوية وحتى وفاة الرسول ﷺ، ومن هذه التفاصيل ستدرك الحالة النفسية التي يحملها اليهود طيلة هذه الفترة، وقد استطاع المؤلف أن يمزج بين الحدث التاريخي والنص القرآني ليحلّ كثيراً من الألغاز في الفترة ما بين البعثة النبوية المباركة ووفاة الرسول المصطفى ﷺ.

وإننا نقدم هذا الكتاب من سلسلة موسوعة الرسول المصطفى رقم ٢٦، إلى التواقين للمعرفة، نسأل الله الهداية لكل المنحرفين من كل الأديان وندعو الله بتعجيل فرج المنقذ الحقيقي الإمام المهدي المنتظر، عجل الله فرجه الشريف، حتى يراه العالم كله وقد آزره المسيح عيسى بن مريم ﷺ، رافعاً راية القسط والعدل والطمأنينة للجميع، إنه سميع مجيب.

مشهد المقدسة - محسن أحمد الخاتمي

١٥ محرم الحرام / ١٤٢٩ هـ ٢٤ يناير / ٢٠٠٨ م

ثم أنا العبد العاصي قد قمت بتلخيص تألّفي هذا لمن يروم التعرف على سنة النبي الأعظم ﷺ وكيفية تعامله مع أهل الكتاب والوصول إلى مطالبه باختصار من دون إشعاره بالملالة.

وفقنا الله تعالى لمرضاته.

سيد جعفر العارف الكشفي

النجف الأشرف ١٤٤٤

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين

المقدمة

لا شك أن أفضل دورة شهدتها التاريخ وأفضل عصر عاشته البشرية، هي فترة ظهور نبي الإسلام المكرّم ﷺ، تلك الدورة التي ولي فيها أمور المؤمنين وتزعمهم مدبر إلهي وحكيم متعقل مصحوباً بهداية مباشرة من خالق البشر وتثقيف متواصل بنزول آيات القرآن، وهي دورة إكمال النبوة وإتمام الرسالة التي تجلّت فيها دولة الحق لبرهة من الزمن على أمل أن تتجلّى بكامل ظروفها في حكومة الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

فرسالة النبي محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة التي تمتدّ إلى يوم القيامة، بمعنى عدم مجيء نبي من بعده ينسخ دينه، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١) وكذلك يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

ذلك الرسول الذي ملئ علماً ونوراً وحكمة ومعرفة، فكان محلاً

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) سبأ: ٢٨.

لمشيئة الله ومظهرًا لإرادته وخليفته في أرضه ومجريًا لأحكام دينه بين الناس، فكان لذلك معصومًا من الخطأ والزَّلَل، يعود كلامه وسلوكه مثلاً وقدوةً لعامة البشر، فتمت إرادة الله سبحانه على أن يبعثه في وسط يسوده الجهل والضلال وعبادة الأصنام، ليدعو الناس إلى أكمل الشرائع الإلهية وأسمحها.

وكان في ذلك الوسط الذي بعث فيه، طوائف من أهل الكتاب ولعل اليهود يشكّلون نصف المجتمع الذي يبلغ في دائرته الرَّبِّيَّة، فكانوا من مخاطبيه، على أنهم جماعة يرون أنهم أصحاب دين وكتاب سماويّ ويدعون العلم والمعرفة، وكان منهم مَنْ يسكن بمكة المعظمة وأغلبهم في المدينة المنورة وأطرافها.

وبذلك انفتحت باب السعادة أمام تلك الجماعات، لما صار من نصيبهم أفضل الرسل الإلهيين والحكماء الربّانيين، ومن علوّ نجمهم حلّوا في زمان ذلك النبيّ العظيم الذي عبّر عنه الوحي بأنه رحمة للعالمين، فكان وجوده مظهرًا للرحمة الإلهية لعامة البشر.

واليهود الذين كانوا قد خاضوا التجربة الدينيّة والعلميّة من قبل، ويعلمون معنى متابعة النبيّ ومحاسنها، وهم على إطلاع كامل بالرسول الخاتم وأن ظهوره يكون في مكة ومهاجره المدينة، كان بإمكانهم إسقاط تلك المعلومات على مصاديقها الخارجية.

بل كان بإمكانهم السبق والمبادرة بما يمتلكونه من الخلفيات إلى الإيمان بهذا النبيّ الرَّبِّيِّ، والحظوة بأقرب المنازل عنده والجهاد في ركابه

من أجل إعادة النموذج الذي يجبونه، مثل ما فعله أصحاب يوشع النبي وداود النبي وجنودهما في مجال نشر الدين والإسلام، ولكن المؤسف أنهم وكما فعلت قريش وقفوا بوجه النبي ودعوته وقاوموا أمام الانخراط في صفه، بل لم يتركوا مجابهته ومناقضته في كل حال.

ولما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار، صار في صدد تحقيق محيط آمن ومستقر في المدينة لتتوفر الأرضية المناسبة للحوار والتبليغ، ويأخذ المنطق والاستدلال الصدارة ويحل محل التعصب والجهالة، ولذلك قام بمنح اليهود الحقوق المدنية الكاملة، كما وافق على طلب اليهود الهدنة وعقد معهم عهداً وموادعة ليحول دون بروز أي مشكلة، ويشل أسباب التوتر ودواعي العنف مهما أمكن، وبذلك استطاع اليهود البقاء على معتقدتهم إلى أن يتعين مصير الرسول ﷺ مع قومه قريش، وتعهدوا في المقابل بعدم عمل أي شيء ضد النبي والمسلمين، ولا يعينون أعداءه عليه، فهذا أقل ما هو متوقع من اليهود ولم يكلفهم النبي ولم يحملهم على الصعبة، بل عاملهم بمقتضى اللطف والرحمة، فتمكّن اليهود من البقاء على دينهم والعيش بسلام في المدينة وغيرها من البلاد، التي صارت تحت نفوذه، وقد تعهد رؤساء اليهود بعدم الإقدام على أي عمل يسيء للنبي والمسلمين وأنهم متى ما خالفوا ذلك استحقوا العقوبة وكان دمهم هدراً وأموالهم للمسلمين.

فقام النبي ﷺ بكتابة عهد مستقل لكل طائفة، ووقع رؤساء كل واحدة من تلك الطوائف العهد الخاص بهم.

كل ذلك الهدوء والتنعيم ظلّ باقياً إلى أن حدثت معركة بدر وخرج الرسول ﷺ منها منتصراً على قريش، وصارت دولته تستتبّ وتجد الطريق إلى شرعيّتها وحقانيّتها وأخذت قواعدها تترسّى في المدينة، عندها بدأ غضب اليهود ينمو ويتزايد، وصاروا بصدد التحرك والتحرّش شيئاً فشيئاً، عندها طالبهم الرسول ﷺ بتحديد موقفهم بشكل واضح وشفاف، فإذا كانوا يرغبون بالبقاء على معتقدتهم فيلزمهم رعاية بنود العهد الموقع بحذافيره، أو اختيار غير ذلك مما يحمل عواقب وخيمة.

نعم فإن الرّسول ﷺ الذي أصّل الأصل القائل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١)، من يوم دخوله المدينة وجاءت بذلك الآيات القرآنية التي عرضها الرسول ﷺ على الجميع وبينها للمسلمين بشكل خاصّ، حتى لا يجبر أحدٌ أحداً على الدخول في الإسلام، ولكنه لم يسمح لأحد أن يصدّ الآخرين عن الدخول في دينه ولا إيجاد المضايقات والاستفزازات، ولا يرضى بعرقلة انتشار الإسلام وشقّ عصا المسلمين بوجه من الوجوه.

ولكن النبيّ ﷺ كان يحرص على إيمان أهل الكتاب وخصوصاً اليهود أكثر من إزاحتهم عن طريقه، حتّى أنه كتب إلى أهل خيبر كتاباً وأورد فيه آيات من الكتاب المقدّس التي تبشّر به، وكذا كلام الخبر الزكيّ ابن خراش (حواش)، الذي قدم من الشام إلى المدينة وذكر لهم العلامات على ظهور النبيّ ﷺ وهذا أوانه، وأخذ يذكرهم ذلك

ويشفع كلامه بالبرهان والدليل.

فكان يصرّ على إيمانهم بكل وسيلة ويريهم كل ما يطلبونه من المعاجز التي يأذن الله سبحانه بها، حتّى لا يبقى أيّ عذر في مخالفته. والمثير للدهشة أنه لم يؤمن من اليهود مع كل ذلك الوصف، ولم يصدقوا بكتابه خلا بعض الأخبار والرؤساء، مثل حصين بن سلام ومخيريق اليهودي.

هذا ونخبرنا القرآن عن حزن الرسول ﷺ واغتمامه لبقائهم على الكفر: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا....﴾^(١).

والسرّ في ذلك الحزن يكمن في عاقبة اليهود المرّة في الدنيا والآخرة وإصرارهم على الكفر، وقد نذروا أنفسهم للموت والنجاسة والعقوبة الأبدية بذلك الإصرار، فإن ذلك الحزن يمثّل حرص الرسول عليهم، ولعل الآية تعبير آخر عن قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، ولا يستطيع التاريخ أن ينكر شدة اشتياق الرسول ﷺ إلى إيمان عامّة الناس والسّير في السبيل الموصل إلى النعيم والعناية الإلهية وكذا رغبته في تخلّق المجتمع البشري بالأخلاق السامية وحظوهم بالترية الإلهية، وعندما يأبى الناس ذلك ويصرّون على الكفر، يتألم لذلك، لأنه يراهم على حافة خطر، والآيات بهذا المعنى كثيرة.

(١) المائدة: ٤١.

(٢) التوبة: ١٢٨.

وبناءً على ذلك فإنَّ نبيَّ الرحمة لم يكن يرغب في قتل اليهود ولا في مصادرة أموالهم ومنازلهم، بل كان يريد لهم السَّلام الذي يتيح لهذا المعارض أن يستسلم للحقيقة التي عرفها في قرارة نفسه، ويترك العناد والتعصب الأعمى، ويهتدي صراطاً مستقيماً لا عوج فيه، ولا يحرم نفسه وغيره من هذه السعادة.

وحينما نقول: إنَّ رسالة الرسول ﷺ عالمية، فهو يعني عدم كونها حكراً على طائفة خاصّة، ويتمكّن عامّة البشر من الإطلاع عليها وعلى معارفها الحقّة، كما يمكنهم العيش في ظلّ دولتها الإلهية مستفيدين من أحكامها السماوية العادلة، التي تضمن الحياة الطيبة، فإذا ما أراد حاكم أو رئيس أن يتعرّض لهذا الأمر الإلهي ويضع العوائق والسدود أمامه، يكون قد رمى نفسه في ساحة الخطر وعليه أن يتحمّل عواقب ذلك الأمر.

يجب أن نلاحظ أن التاريخ لم يعكس أخلاق اليهود وسيرتهم بشكل كامل حتّى يتّضح السبب في إصرار اليهود وتعتّتهم مع علمهم بالحقيقة، فإنّهم قد استحبوا الدخول في صراع ومواجهة مع النبي ﷺ إلى حدّ إعلان الحرب والتدبير الجادّ لقتله وقتل أصحابه، وتنزلوا في ذلك الصراع إلى مماشاة المشركين والاستعانة بهم.

وبعد الوقوف على أن الرسول ﷺ يعمل بأمر الله وكان معصوماً من الخطأ، ومع الالتفات إلى أن خمس ما أُوحي إليه يتعلق ببني إسرائيل واليهود، تعرضنا إلى كيفية تعامل الرسول المتمحّض في العدل والإحسان مع يهود عصره، الذين يشكّلون ما يناهز النصف من

مخاطبيه، ونصف سكان دائرة تبليغه وتحركاته.

وانطلاقاً من معرفة اليهود بالنبي الخاتم من سابق الزمان حتى قبل ولادته كما يعرفنا ذلك القرآن بصريح آتيه المدنية والمكيّة، القائلة بمعرفة اليهود للنبي كمعرفتهم أبناءهم، صرنا إلى تجميع الأخبار التي تصب في هذا السبيل وبوتقتها في قالب علمي، كي يتسنى لنا معرفة حقيقة ذلك النبي العظيم أكثر فأكثر، ويكون دليلاً لغير المسلمين ليعلموا أن اليهود وقفوا أمام مصلح عالمي واعترضوا طريقه عبثاً.

ولما أردنا الشروع في هذا المشروع الهادف، رأينا ضرورة فتح باب للبحث عن أصل توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، فنكون بذلك قد شرعنا الكتاب باسمه حتى نعلم علاقته وعلاقة ابنه إسماعيل بأهل مكة وبناء الكعبة ودين الإسلام الحنيف، ونسبته مع شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكذا دراسة سبب انتساب اليهود إلى إبراهيم عبثاً.

ثم نعطف عنان الكلام إلى الحديث عن بعض الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام لتعرض بشكل أوسع إلى رسالة النبي موسى بن عمران عليه السلام، الذي يعدّ منعطفًا كبيراً في تاريخ بني إسرائيل، بل عامّة البشر، وبالتالي تسليط الأضواء على منشأ اليهودية ومعرفة حقيقة انتسابهم إلى دين موسى عليه السلام، وهل إن اليهوديّة المطروحة هي دين الله، وهل يمكن عدّها على حساب دين ذلك النبي المبعوث من قبل الله سبحانه وتعالى؟

ولا يخلو من ضرورة معرفة حال اليهود القاطنين في أطراف المدينة وتمييز العرب المتهودّة من يهود بني إسرائيل، وذلك لأجل تفاوت

تعامل الطائفتين مع النبي ﷺ تفاوتًا فاحشًا، لتتمكن من خلال هذا البحث من رفع الغموض عن بعض النقاط المظلمة.

والمفتاح الآخر لحلّ بعض الألغاز وفتح بعض الأبواب المغلقة هو وجود الإشارة في القرآن إلى اليهود الأوفياء وفصلهم عن اليهود المعاندين والمعتدين، الذي يكون التعبير عنهم بـ **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾**، وهناك أخبار قليلة ومجملة تشير إلى أحوالهم، حاولنا التعرض لها بشكل موجز.

ويبقى المبحث الأساسي لهذا الكتاب وكما يعلم من عنوانه هو البحث عن كيفية تعامل نبي الإسلام مع يهود بني إسرائيل الساكنين في حوزة الرسول التبشيرية، وذلك في مرحلتين، المرحلة الأولى من حين الهجرة إلى غزوة بني قينقاع، والمرحلة الثانية من غزوة بني قينقاع إلى صلح خيبر، وقمنا بتحليلنا الشامل حول أسباب حقد اليهود وعوامله والدواعي التي دعتهم إلى الاصطفاف في الصف المخالف، ومن ثمّ عوامل تورّط كل طائفة منهم في خوض الحرب معه بمفردهم، أو بالتعاون من الآخرين، وتفصيل ما حدث في تلك المعارك وآثارها وعواقبها بالنسبة للمجتمع اليهودي والمجتمع الإسلامي، على أن لا يخلو ذلك التحقيق من نتائج مستجدة، ولا من الإشارة إلى بعض الحلق المفقودة التي تفتح الباب للباحثين وتدعوهم إلى الخوض في تفصيل أكثر.

أقل العباد: سيد جعفر العارف الكشفي

القسم الأول

الفصل الأول

في التعرف على أنبياء الله

قال الإمام الصادق عليه السلام: إن الله عز وجل مكن أنبياءه من خزائن لطفه وكرمه ورحمته، وعلمهم من مخزون علمه، وأفردهم من جميع الخلائق لنفسه، فلا يشبه أخلاقهم وأحوالهم أحد من الخلائق أجمعين، إذ جعلهم وسائل لسائر الخلق إليه، وجعل حبهم وطاعتهم سبب رضاه، وخلافهم وإنكارهم سبب سخطه، وأمر كل قوم باتباع ملّة رسولهم، ثم أبى أن يقبل طاعة أحد إلا بطاعتهم ومعرفة حقهم وحرمتهم ووقارهم وتعظيمهم وجاههم عند الله. فعظم جميع أنبياء الله ولا تنزّلهم بمنزلة أحد من دونهم، ولا تتصرّف بعقلك في مقاماتهم وأحوالهم وأخلاقهم، إلا ببيان محكم من عند الله، وإجماع أهل البصائر، بدلائل تتحقق بها فضائلهم ومراتبهم، وأنّى بالوصول إلى حقيقة ما لهم عند الله؟ وإن قابلت أقوالهم وأفعالهم بمن دونهم من الناس أجمعين فقد أسأت صحبتهم وأنكرت معرفتهم وجهلت خصوصيتهم بالله، وسقطت عن درجة حقيقة الإيمان والمعرفة، فإياك ثم إياك ^(١).

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله: أول المرسلين آدم وآخرهم محمد

وكانت الأنبياء مائة ألف وعشرين ألف نبي، الرسل منهم ثلاثمائة.

وخمسة منهم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام

وخمسة من العرب: هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليه السلام

وخمسة سريانيون: آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم عليهم السلام.

وأول أنبياء بني إسرائيل موسى عليه السلام وآخرهم عيسى (١) عليه السلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بعثتُ على أثر ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل (٢).

والكتب التي أنزلت على الأنبياء مائة كتاب وأربعة كتب، منها على آدم خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون، وعلى إبراهيم عشرون، وعلى موسى التوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن المجيد (٣).

(١) بحار الأنوار ١١: ٤٣.

(٢) الأُمالي للشيخ الطوسي: ٢٥٣، بحار الأنوار ١١: ٣١.

(٣) إكمال الدين ١: ٤٣-٤٦؛ بحار الأنوار ١١: ٣٢.

الكلام الأول:

إبراهيم خليل الرحمن

النبي إبراهيم عليه السلام من الأنبياء أولي العزم وله شريعة برأسها، وهو والد سلالتين بشريتين عظيمتين يعني بني إسماعيل وبني إسحاق، ولذا نجد أن أكثر من ثلاثة أرباع أهل الأرض يكونون له الاحترام وينسبون أديانهم وعقائدهم إليه، وقد اصطفى الله من أولاده وذرائه آلاف الأنبياء بعثوا لأجل هداية البشر، ولتكامل ذلك الشرف بأعظم شرف وأفخر اعتزاز أنه جدّ أشرف المخلوقات وأكرم الرسل وخاتمة الأنبياء محمد بن عبد الله صلوات الله وآلائه.

وما انفك أتباع الديانات السماوية المختلفة يرمقون سنّته التوحيدية وثورته العارمة على عبادة الأصنام وهجرته في سبيل الله بعين الاحترام، هذا وقد شُحنت كتبهم بأخباره وأحواله التي أهمّها في هذا المورد كتاب التوراة، أعني فترة ما قبل نزول القرآن، وكذا فقد كان هناك مصادر تاريخية قديمة أخرى عند اليهود غير التوراة تنقل أخباره.

ونحن نجد أن الله سبحانه وتعالى قد رسم في القرآن أفضل صورة وعكس أجمل طابع عن شخصيّة النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، فإن ما

جاء به في هذا المجال يعدّ كافياً ووافياً للغاية، ومعه لا حاجة إلى الرجوع إلى الكتاب المقدّس أو كتب اليهود الأخرى للتعرف على هذا النبي العظيم.

منزلة النبي إبراهيم في آخر الكتب السماوية

نجد في القرآن أن الله سبحانه يأمر الرسول ﷺ بأن يذكر النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(١)، كما أخبر عن أن الله سبحانه وتعالى قد منح إبراهيم الرشد وعلمه الحكمة فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٢)، كما قام بوصف ثورته على عبادة الأصنام وعدّها من درايته وفهمه وكمال عقله، فقال عزّ من قائل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾^(٣) هذا وقد شمرّ ساعد الجدّ في هذا الميدان فلم يستثن أحداً حتّى عمّه آزر، فإنه نهض في مخالفته وجدّ في نصحه إلى أن يؤس وتبرأ منه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٤).

ثم إنه تمكّن وبشجاعته المتميّزة أن يحطم الأصنام التي يعبدها الوثنيون ويشطب على كل تلك العقائد الخرافية ويخط عليها خطوط البطلان على الرغم من أنه كان وحيداً بلا ناصر ولا معين، فأشاد

(١) مريم: ٤١.

(٢) الأنبياء: ٥١.

(٣) الأنبياء: ٥٢ - ٥٤.

(٤) الأنعام: ٧٤.

القرآن بوقفته تلك وذكر أنه بمفرده أُمَّة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١). أي أنه أمة موحدة ومطبعة لله سبحانه وتعالى على الدوام، وما زالت صرخته التي أعلنها في أندية الشرك وربوع الوثنيين مدويّة في العالم وما زال إعلانه العداء السافر للمشركين، ذلك العداء الذي لا يتوقف عند حدّ دون الإقرار بالتوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد، ذلك العداء الباقي في أذن التاريخ وبذلك صارت طريقته أسوة يقتدى بها: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾^(٢).

فأراه الله سبحانه وتعالى على أثر ذلك، ملكوت السموات والأرض ليبلغ منزلة اليقين الرفيعة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٣)، ويدخل في زمرة الموفين بعهدهم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٤). وأكثر من ذلك أنه سبحانه خلع عليه لباس الخلّة ليكون خليل لله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٥) وأعقبه بالتسليم عليه: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾^(٦).

ذلك السلام الذي يستتبع السلامة في الدنيا والآخرة، وهو السلام

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) النجم: ٣٧.

(٥) النساء: ١٢٥.

(٦) الصافات: ١٠٩.

الذي جعل من نار نمرود جنة على إبراهيم: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

ولما اضطرَّ إبراهيم للخروج من مدينته ودياره على أثر ضغوط المشركين انقلب سائحًا وخارجًا في سبيل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ولم يتركه ربه الرحيم به وأسكنه هذه المرة في الأرض المقدسة، الشام وفلسطين: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

والمعلوم أن هجرته لم تكن لأجل القتال بل لأجل هدف آخر. فمكث فيها دهرًا حتى كبر سنّه ولم يرزق ولدًا، عندها دعا ربّه وطلب أن يرزقه ولدًا صالحًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) فبشّره الله سبحانه وتعالى بمولود صالح وحليم: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٤) فأنسه بإسماعيل عليه السلام.

وفي هذا الحال واجه امتحانًا صعبًا حيث أمر بأن ينقل ابنه إسماعيل وزوجته هاجر من الشام وفلسطين إلى جبل فاران، فبادر بعد التوكّل على الله سبحانه ونقلهما إلى مكّة المعظّمة وهي أرض جرداء ليس فيها ماء ولا كلاء، غير أنها بجوار حرم الله وأمنه فأسكنهما هناك، ولما أراد الرجوع وقصد تركهما تضرّع إلى الله سبحانه أشدّ التضرّع وقال:

(١) الأنبياء: ٦٩.

(٢) الأنبياء: ٧١.

(٣) الصافات: ١٠٠.

(٤) الصافات: ١٠١.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

وبعد مضي عدة سنوات حينما بلغ إسماعيل ريعان الشباب وكان إبراهيم يحبه ويأنس برؤيته جاء الامتحان الأصعب لما أمره الله سبحانه وتعالى في رؤيا رآها أن يذبح هذا الولد -وهو أول ولد له (البكر)- ويقدمه قرباناً لله سبحانه كأصعب امتحان، فأخبر ابنه إسماعيل بالأمر وكلمه في ذلك، فسلم إسماعيل لأمر الله سبحانه. ووضع جبينه على الأرض صابراً محتسباً ليتحقق هذا الأمر الإلهي^(٢).

نعم فقد وقى الوالد والولد وظهر صدقهما وإخلاصهما عندما سلما لهذا البلاء العظيم أقصى تسليم، ولكن الإرادة الإلهية كانت شيئاً آخر، حيث أرسل الله سبحانه وتعالى كبشاً من السماء -كما جاء في الخبر^(٣)- ليزبح مكان إسماعيل، وتلزم الإشارة إلى أن إبراهيم بُشّر بعد ذلك بمولود آخر اسمه إسحاق: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤). ثم رزق به بعد سنوات.

ولما نجا إسماعيل من الذبح، كلم الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم عليه السلام في بناء بيته وأن يعينه على ذلك ابنه إسماعيل، فأمره أن يبني

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) أشير إلى هذا الذي ذكرناه بشكل مختصر في سورة الصافات: ١٠٢ - ١١١.

(٣) الخصال للصدوق: ٥٦؛ بحار الأنوار ١٢: ١٤٠.

(٤) الصافات: ١١٣.

الكعبة التي لم يبق منها سوى الأساس والقواعد، وكلّفه بأن يرفع جدرانها ويطهرها ويهيئها للطائفين والمصلّين: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

فجعل الله سبحانه ذلك البيت مفيض ثوابه ومنحه، وموضع أمان واستقرار للناس، وجعل من موطن إبراهيم عليه السلام وموضع قدمه مصلى ومحلّ عبادة، فأوجب على كلّ من يطوف بالبيت أن يصلي ركعتين خلف ذلك المقام: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٢)، كما جعل حجر إسماعيل في المطاف كي يرهّن على قربته من ربّه، وجعل منه كالشفيع والوسيط لمن يتوجّه إليه.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس ويدعوهم بصوت رفيع إلى حجّ ذلك البيت فقال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٣).

وعقيب ذلك فقد صرّح القرآن بأن إبراهيم نال مرتبة عظيمة على أثر امتحانه بكلمات، فلما أتمهنّ اختاره الله سبحانه وتعالى لمنصب الإمامة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

(١) الحج: ٢٦.

(٢) البقرة: ١٢٥.

(٣) الحج: ٢٧.

(٤) البقرة: ١٢٩.

دعاء إبراهيم في القرآن

وبعد بناء البيت الحرام وفي هذه البرهة الحساسة والمكان الحساس، دعا إبراهيم دعاءً تجلّت آثاره للعيان، وهي تطلّ تتجلّى في ملكوت السماوات وفي أرجاء البسيطة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣﴾، فلم تقتصر هذه الآيات على بيان فضيلة إبراهيم في بناء البيت فقط، بل بينت أيضاً مقام إسماعيل الشامخ حيث أعان أباه في ذلك العمل.

كما أبانت حرص إبراهيم على عامّة ذراريه بل عامة البشرية، لما دعا بأن يبعث فيهم رسولاً، فاستجيب له وتحقق دعاؤه في وجود النبيّ الكريم الخاتم محمد المصطفى ﷺ الذي هو من أحفاد إسماعيل ومن ذريّته، والذي ستبقى نبوّته وآثاره إلى يوم القيامة، فكان رسول الله ﷺ لا يترك أن يقول: (أنا دعوة أبي إبراهيم) ﴿٤﴾.

وبعد ذلك نجد أن إبراهيم عليه السلام يشكر الله سبحانه على هديته المتمثلة في وجود إسماعيل وإسحاق ويطلب منه أن يجعلهما وأبناءهما من المصلين،

(١) البقرة: ١٢٧-١٢٩.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٣٩٧.

كما يستغفر لنفسه ولوالديه ولجميع مؤمني العالم ويطلب العفو لهم من الله:
**﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ﴾** رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿﴾ رَبَّنَا
اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿﴾^(١).

وصية إبراهيم الخليل في القرآن

يذكر القرآن ما وصّى به إبراهيم عليه السلام أبناءه وكذا ما وصّى به
يعقوب أبناءه وبيّنه لعامة الناس فيقول: **﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾** أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿﴾^(٢).

تحدث هذه الآيات عن الإسلام والمسلم وليس عن اليهودية
والنصرانية، فالذي وصّى به إبراهيم عليه السلام هو اعتناق الإسلام لأنه
دين الله ودين جميع أنبيائه.

**﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي
هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا**

(١) إبراهيم: ٣٩ - ٤١.

(٢) البقرة: ١٣٢ - ١٣٣.

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ^(١)، فهذه الآية تدلّ على أن دين إبراهيم هو الإسلام وهو دين الجهاد ^(٢)، وفي نفس الوقت هو دين الرفاه والاستقرار كما تدلّ عن أن أول من سمّى أتباع النبي محمد ﷺ وعامة موحدي العالم بالمسلمين هو النبي إبراهيم عليه السلام، نعم فإن الحديث عن ذلك طويل جدًا، لا نبغي الخوض فيه.

والمهم أن من يتابع إبراهيم ودينه هم من ذوي العقول ومن يعرض عنه فهو سفيه بنص القرآن: **﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾** ^(٣).

فالإسلام وحده هو طريق الهداية وكل ما وراءه فهو بدعة وضلالة، فهذا الدين هو الدين الذي له لون سماوي وصبغة إلهية يصبغ بها أهل الإيمان: **﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾** ^(٤).

والآن وقد مضى أكثر من ثلاثة آلاف سنة من زمان النبي إبراهيم عليه السلام وقد بعث آلاف الأنبياء من أجل تبليغ دينه وأكثرهم من بني

(١) الحج: ٧٨.

(٢) جاء في حديث أن إبراهيم كان نبي السيف، وعن الإمام الكاظم قال: أول من قاتل في سبيل الله إبراهيم الخليل حيث أسرت الروم لوطًا، فنفر إبراهيم واستنقذه من أيديهم. (قصص الأنبياء للجزائري ١: ٩٨).

(٣) البقرة: ١٣٠.

(٤) البقرة: ١٣٨. في الكتاب: «محمد في الكتاب المقدس» يتكلم حول صبغة الله قبل الإسلام من أراد فليراجع ص ١٩٧.

إسرائيل، مهمتهم هي تبليغ أحدىة الباري والتبشير برسالة النبي محمد ﷺ، ولما كان مرور الأيام يساعد المنافقين والمشركين على إيجاد التحريف والانحراف في آثار الأنبياء وأسفارهم وسننهم، فقد كان تواتر الأنبياء خصوصاً في بني إسرائيل يبتني على هذا الأساس ويتبع هذه الحكمة، وهو بقاء هاتين الحقيقتين في الديانة الإبراهيمية حيتين وظاهرتين على الدوام.

والمثير للدهشة أن عدد الأنبياء قد تجاوز الأربعة آلاف نبي إلى زمان السيّد المسيح عيسى عليه السلام^(١) والقرآن -الناطق بالحق والصدق - قد بين هدف بعثة المسيح بشكل مختصر وكنموذج لمهمة سائر الأنبياء: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢).

المؤسف أننا نجد أن كلام عيسى قد حرف من بعده وألقيت عليه ستائر الجهل والتعصب، ولكن لم يبعث من بني إسرائيل نبي آخر يزيل تلك الستائر.

ولولا رسالة النبي المكرّم ولسان الوحي المليح، لم يتجمل للناس حقائق دين إبراهيم ودين ذراريه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ

(١) بحار الأنوار ١١: ٣٩.

(٢) الصف: ٦.

جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ^(١).

ذرية إبراهيم خليل الرحمن

المستنبط من آيات القرآن أن أنبياء بني إسرائيل هم من أبناء إسحاق وذريته وقد جاءت أسماء طائفة منهم في القرآن مثل يعقوب، يوسف، الأسباط، موسى، عيسى، أيوب، داود، سليمان، يونس واليسع....

وكلمة «ذرية» في هذه الآيات مستعملة في معنى خاص يعطي الارتباط النسبي والروحي معاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

ولم يتعرض القرآن لأبناء إسماعيل سوى أنه ذكر أن ذريته باقية نسلاً بعد نسل إلى قيام القيامة فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٤).

وقد جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن المقصود في الآية هم آل محمد^(٤)، هذه الحقيقة بمثابة من الأهمية بحيث يمكن القول بأن أهم ما كرم الله به إبراهيم يتجلى في رسالة النبي الخاتم، وذلك لأن

(١) المائدة: ١٥.

(٢) العنكبوت: ٢٧.

(٣) آل عمران: ٣٤ و٣٣.

(٤) تفسير العياشي، ج ١، ص: ١٦٩.

الإمامة بعده تبقى في عترته إلى يوم القيامة.

إن القرآن يعتبر رسول الله ﷺ محمداً المصطفى ألصق الناس وأقربهم من النبي إبراهيم عليه السلام ويرى أن حسبه ونسبه عائد إليه، وبذلك يكون أئمة الشيعة المعصومون من أبناء الرسول هم الوارثين الحقيقيين لإبراهيم لأنهم عندهم علم الكتاب والحكمة والملك العظيم إلى قيام القيامة وأنهم القادة والأئمة لجميع أهل العالم.

وفي زماننا هذا قد وصلت النوبة لذلك الكوكب الدرّي، حفيد إسماعيل الذبيح ومن ذريّة إبراهيم الخليل، الحادي عشر من أبناء الرسول ومن نسل علي والزهراء البتول، قلب عالم الإمكان، ووليّ هذا الزمان، وإمام الإنس والجان، الحجّة بن الحسن صاحب العصر والزمان، وهو حيّ وغائب، يستضيء بنوره العالم. عجل الله تعالى ظهوره.

إبراهيم في التوراة

إن توراة موسى عليه السلام ليست بأيدينا حتى نشاهد مدى الشاء على إبراهيم عليه السلام ومدحه، والتوراة التي بأيدي اليهود هي أهمّ مصادر المؤرخين في قضية إبراهيم، وهي مع ذلك لم تعرّض لأوائل حياة إبراهيم التي كانت في مدينة أور الكلدانية، ولكن تعرّض بعض المؤرخين مثل فلاسفيوس في كتابه عتيقات اليهود إلى بعض زواياها مما يدلّ على وجود مصادر أخرى غير التوراة تتضمن الوقائع التاريخية للثلاثة آلاف سنة السابقة التي تغذي التاريخ.

وأما ما تحكيه التوراة عن حياة إبراهيم وإن كان فيه بعض المطابقة للقرآن ولكن يخالفه في كثير من الموارد ويناقضه، فالتوراة لا تقاس بالنسبة للقرآن في مجال التعريف بإبراهيم، ديانتَه وقداسته، نبوّته ورسالته، خلّته وإمامته، شهامته وشجاعته، غيرته ونجاته.

فالتوراة إنما تذكر تكريم الله سبحانه وتعالى لعبده إبراهيم من زاوية النعم الدنيويّة فقط، وذلك كإعطائه الأرض المقدّسة وكثرة نسله في أطراف الأرض وغيره^(١).

فالتوراة الفعلية تصرّ على أن والد إبراهيم كان مشرّكاً وأنه من عبدة الأوثان، كما تصرّ على أن البركة تشرع منه وتسري إلى إسحاق وأولاد إسحاق، وتجعل الفضائل والمناقب لإسحاق ويعقوب أصالة، ثم هي مستمرة في نسل يعقوب وباقية فيهم ويرون أن جميع الناس هم خدم لهم.

وقد حاول اليهود أن يجعلوا الذبيح هو إسحاق بدل إسماعيل، لكي تكون هذه الفضيلة لإسحاق، ولذا جعلوا اسمه مكان إسماعيل ولكن صفته يعني «البكورة والابن الأول» ظلّت بدون تحريف، ومن ذلك يعلم وقوع التحريف والتبديل والتغيير بوضوح.

فليس في التوراة أيّة إشارة إلى بناء الكعبة ولا مراسم الحج ولا مقام إبراهيم وقد تناسى الكتّاب اليهوديون بناء مظهر التوحيد والأثر الباقي الذي شيده إبراهيم وذلك لأن إسماعيل ساعده في بناء هذا البيت وهو الوارث الحقيقي لهذا الشرف والمنقبة.

دعوة إبراهيم الناس إلى الحج

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبراهيم الذي يُعَدّ بمفرده أمة واحدة، مظهرًا للتوحيد وهو الذي يلي بناء بيت التوحيد لتحى بسببه الفطرة الإلهية في العالم مرة أخرى، ولتخلد حياة الموحدين إلى يوم القيامة، وليتوجهوا بدعوته إلى قبلة العشاق ويقبلوا عليها. فبعد أن أراه جبرئيل أساس الكعبة حتى يبينها بمعونة ولده إسماعيل والملائكة المقربين، وبعد أن يرفع ذلك الأساس، ويعيد بناء قبلة المسلمين من جديد ويجعل مقامه مصلى للعابدين، جاء الأمر من الله أن أذن في الناس بالحج^(١).

ولقد شاهد عالم التكوين نور هذا النداء ووصل هذا الكلام إلى كل إنسان في أية مرحلة من الخلقة ونفذ في سمعه، وكتب في صحيفة كل ملبّ حجة مقسومة.

ثم عطف على تعليم سالكي طريق الحقيقة والمتسلقين إلى قمم المعرفة مناسك الحج، ذلك السفر الذي لا يعرف فيه الملك من الرعية، ولا الفقير من الغني، ولا الراجل من الراكب، فالجميع في صف واحد، ولباس واحد، وطريقة واحدة، ولهم حضور في صعيد واحد، بالنداء الواحد، ملبين: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْكَ.....

فإن إبراهيم عليه السلام الذي قد أقدم على ذبح ابنه في سبيل الله، كان قد ظهر منه كمال الإخلاص وحقيقة العبودية لله، يشرع الآن هذه السُنّة

السنية ويحج بيت الله سبحانه كأول طليعة في طريق عبادة الله جلّ جلاله، وصار يضع بعض العلائم من ذلك التسليم والرضا للأجيال القادمة ويكون قدوة لسالكي طريق التوحيد.



الكلام الثاني:

الأنبياء من نسل إبراهيم الخليل

النبي إسماعيل

تعرفنا على أن النبي إسماعيل عليه السلام ترك وهو صغير وأمه وحيدتين في أرض مكة الخالية من الماء والكأ والزرع ليتوطنا هناك، ففجّر الله سبحانه وتعالى لهما عين زمزم يروي عطشهما ويؤمن احتياجهما من الماء، ويسبب هذه العين صارت قبيلة جرهم ترغب في التوجّه إلى مكة والمقام عندها وإلى جانبهما مع العلم أن قبيلة جرهم كانت تتكلم بالعربية ولأجل ذلك فتق لسان إسماعيل الذي كان يتكلم بلغة أبيه وهي الآرامية أو السريانية بالعربية وصار يتكلم بهذه اللغة.

مع الالتفات إلى أن أم إسماعيل «هاجر» هي جارية قبطية وقيل إنها من العمالقة وهم يتكلمون باللغة العربية وهذا عامل آخر على تكلم إسماعيل بالعربية^(١).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٨٥ و١٨٥؛ بنو إسرائيل بين نبأ القرآن وخبر العهد القديم: ١٣١.

وجاء في الخبر أن إسماعيل هو أول نبيّ تكلم بالعربية الفصحى من نسل إبراهيم^(١).

و ذكر اليعقوبي أن أبناء جرهم بن عامر ذهبوا إلى تهامة وسكنوا عند النبيّ إسماعيل بن إبراهيم، فتزوج إسماعيل من نسائهم، وكان لإسماعيل عشرة أولاد أو اثنا عشر ولدًا، اسم أحدهم قي دار، وقيل هو جدّ الرسول الخاتم^(٢) وقيل نابت ابنه الآخر، وبذلك كان رسول الله ﷺ من نسل إسماعيل وبينهما ثلاثة آلاف سنة تقريبًا، وجاء ذكر أسماء أبناء إسماعيل الاثني عشر في كتاب التوراة. والذي يلزم ذكره إن إسماعيل عمّر ١٣٧ سنة وتوفي في مكة، ودفن في حجر إسماعيل^(٣).

إسحاق النبي

يعتبر القرآن إسحاق الابن الثاني لإبراهيم ﷺ وقد جاءت البشارة بولادته بعد عشر سنوات من ولادة إسماعيل ﷺ، بشر بها الملائكة إبراهيم ﷺ، نجد في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بَغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

(١) مستدرک البحار ٥: ١٤٧؛ فتح الباري ٦: ٢٩٢؛ حاشية الدسوقي، ١: ١٦.

(٢) يرى البعض أن نسب النبي ﷺ يصل إلى إسماعيل من نابت ابنه الآخر، كما ورد في الحديث.

(٣) سفر التكوين ٢٥: ١٣ - ١٥؛ موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ١٨٦.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(١)، وبموجبها فإن هذه البشارة شملت سارة زوجة إبراهيم، كما جاء في موضع آخر: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٢).

كان إسحاق على ملة أبيه إبراهيم عليه السلام وكان يبلغ دينه وهو من الأنبياء الإلهيين.

وقد تكرر ذكر اسم إسحاق في القرآن عشر مرّات في مواطن مختلفة، وقد عرّفه بأنه صاحب قدرة ومكانة وأنه من الأنبياء ومن الصالحين وبارك الله عليه وعلى أبيها، كما ذكر في التوراة بأن بركة الله في بني إسرائيل شرع منه وهو أصل البركة.

النبي يعقوب وبنو إسرائيل

يعقوب بن إسحاق يلقب بإسرائيل (يعني عبد الله)، كان له دور هام جداً في استمرار النبوة وبقائها في نسل إبراهيم، وله دور في إيجاد بني إسرائيل ككيان مستقل خصوصاً بالنسبة إلى ابنه يوسف النبي عليه السلام الذي صار أميناً لعزير مصر واجتمع فيه النبوة والملك.

والقرآن يطري على يعقوب أيضاً ويعتبره من أنبياء الله سبحانه، ويشيد بصبره الجميل على فراق ابنه يوسف.

وكما صار كل واحد من أولاده منشأ لوجود سبط من أسباط بني

(١) الذاريات: ٢٤-٣٠.

(٢) هود: ٧١.

إسرائيل، وقد صار لهم في التاريخ شأنٌ وامتيازات عظمى وصاروا منشأً لتغيرات ومنعطفات هامة، القرآن يذكر نقطة البداية هذه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ و﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

وكذا جاء ذكر النبي يعقوب في التوراة كرازا ومدح فيها مدحا عظيما، غير أنها نسبت إليه أشياء لا تليق بشأنه كنبي، بل لا تصح نسبتها إلى الصالحين والطيبين غير الأنبياء^(٢).

النبي يوسف

كان للنبي يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولدا، أحدهم النبي يوسف الذي اصطفاه الله سبحانه وصار نبيا في بني إسرائيل، واجتمع فيه الملك والنبوة، فكان ذلك نقطة عطف في تاريخ سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام مما يدل على أن الملك يجتمع مع النبوة، وهذا بعينه شهدناه في وجود النبي داود عليه السلام والنبي سليمان عليه السلام.

فقد قام يوسف عليه السلام بتمشية أمور أبناء إخوته وأخذ برعايتهم، فلما أراد أن يفارقهم، نبأهم بما هم صائرون إليه وما سيؤول عليهم من المصائب والمرارات، كما بشرهم بظهور نبي اسمه موسى بن عمران، يأتي من بعده فيستنقذ بني إسرائيل من يد الفراعنة.

(١) الأعراف: ١٦٠-١٦٨.

(٢) التوراة، سفر التكوين ٢٩: ١٨ و ٢١: ٢٩ و ٣١: ٢٦-٣٥ و ٣٢: ٢٢-٣٠ و ٣٣: ٣ و ١٠. وكلمة إسرائيل كلمة سامية قديمة تتكون من مقطعين أسر وإيل، بمعنى عبد الله. (العلاقات: ٤١).

و نجد أن الإسلام قد اهتم بالنبي يوسف عليه السلام وبِعصمته وعفته وأمانته حتى أنه نزلت سورة كاملة باسمه تبين زوايا قصصه وما جرى عليه ليكون درسًا وعبرة للأجيال القادمة، ويكون شرفًا وكرامة للنبي يوسف وآبائه عليهم السلام. والله سبحانه لا يضيع أجر المحسنين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾^(١).

ولكن أعقب ذلك، انحراف بني إسرائيل إلى حدٍّ أنهم صاروا يعتقدون اعتقادًا جادًا بأن الله أبناء من جنس الملائكة أو البشر، وتجاوز ذلك الاعتقاد الخاطيء مرحلة التأويل والروتين، فجعلوا الأصنام وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه، وعلى أثر ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم أنبياء كثيرين يدعوهم إلى دين إبراهيم ويوسف عليهم السلام. وكان للأسباط من بينهم دور هام في صيانة هذا الدين، لا مجال لنا هنا للخوض فيه. وبعد أربعمئة عام من وفاة النبي يوسف عليه السلام بعث النبي المنجي الموعود به، موسى بن عمران.

موسى بن عمران

موسى بن عمران عليه السلام هو أحد الأنبياء العظام وهو من أولي العزم منهم ومن المقربين والمكرمين والموجهين عند الله سبحانه وتعالى، الرسول الذي جاء بشريعة جامعة التي أحيت دين إبراهيم من جديد.

كانت مهمّة موسى هي الوقوف بوجه الظلم والكفر والثورة عليه لإنقاذ بني إسرائيل من مخالب فرعون وظلمه، وأعقب ذلك أنه كان لقيام النبيّ موسى الديني والإلهي النصيب الأكبر في بناء التمدّن الإنساني وفي هداية الناس إلى طريق الكمال والسعادة، فكانت شريعته هي الحاكمة على مدى عشرين قرناً متوالية، وقد بعث آلاف الرسل لتبليغ رسالته وقد جاهدوا وكابدوا في هذا السبيل، كما وشيدت آلاف الكنائس في العالم لتبليغ هذا الدين، وإلى يومنا هذا فإن الكثير من سكان الأرض ينسبون أنفسهم إليه وإلى دينه.

عاش النبي موسى عليه السلام بعد إعلان نبوته، بين الفراعنة لمدة أربعين سنة، مضطراً، وقد كان بنو إسرائيل في تمام هذه الفترة يقاسون العذاب والأذى حتى إذا نفذ صبرهم جاؤوا إلى موسى وشكوا إليه حالهم، فكان يقول لهم: عسى الله سبحانه أن يهلك عدوكم في القريب العاجل: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

حتى جاء الأمر من الله سبحانه بأن يخرج موسى وأتباعه ليلاً من المدينة، فلما خرجوا وعلم الفراعنة بذلك، أخذوا بتعقيهم حتى إذا وصلوا إلى البحر، كاد الفراعنة أن يدركوهم ولكن ضرب موسى بعصاه البحر كما أمره الله سبحانه وعبره هو وقومه فقد جاء في دعاء السمات

«وفي المنبجسات التي صنعت بها العجائب في بحر سوف وعقدت ماء البحر في قلب الغمر كالحجارة وجاوزت بني إسرائيل البحر وتمت كلمتك الحسنی عليهم بما صبروا»^(١).

فدخل الفراعنة البحر على أثرهم، ولكنهم غرقوا جميعاً، فهلك فرعون ومن معه، فسقطت حكومة مصر بيد بني إسرائيل، ولكن هناك بعض الإيهام في هذا المجال فالقرآن يقول: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢)، ولكن التاريخ لا يحدثنا عن رجوع بني إسرائيل إلى مصر بوضوح، بل هناك ترديد في أصل رجوعهم.

فلما جاوز موسى البحر ووصل إلى مكان آمن ومستقر، تبدلت مهمته وصارت في إطار جديد، حيث إنه صار يقود مجتمعاً ناهضاً ويقوم بتشكيل حكومة دينية فتيّة.

ولما واعد الله سبحانه وتعالى موسى ﷺ وبشّره بأنه سيكلّمه، يستخلف أخاه هارون النبي، وذهب إلى ميقات ربّه، فدام ذلك أربعين يوماً، عندها قام السامري بتعبية بني إسرائيل على هارون وأعانه المنافقون من أمة موسى ﷺ فصنع لهم عجلاً ودعاهم إلى عبادته، فحاول هارون نصّح قومه وصرّفهم عن ذلك، ولكن محاولته لم تفلح حتى رجع موسى، وورد على قومه يحفه جلال إلهي، وجمال ملكوتي،

(١) مفاتيح الجنان: دعاء السمات. وبحر سوف: هو بحيرة تمساح، وللتعرف على بحر سوف، يمكنك الرجوع إلى المجلد الرابع من كتاب "النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة".

(٢) الشعراء: ٥٧ - ٥٩.

والحال أن شمس العلم والمعرفة تسطع من صفحات التوراة المضيئة:
﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١)،
 ولكنه لما رأى أمته قد آثروا العصيان واستغلوا غيابه وقاموا على أخيه
 ووزيره، تغير حاله واضطرب، ومن فرط الحسرة سقطت التوراة من
 يده: **﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
 مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ
 يَجُرُّهُ﴾^(٢)**.

ولما سقطت تلك الألواح انكسر بعضها، فأفل قسم من تلك
 الشمس في أول شروقها^(٣). فكان بنو إسرائيل بمثابة من التمرّد حتى
 صاروا يرفضون الباقي من التوراة وأخذوا يعارضون موسى عليه السلام
 ويهارونه إلى حدّ أن الله سبحانه وتعالى رفع فوقهم الجبل حتّى يتنازلوا
 ويخضعوا وإلا سقط عليهم: **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا
 أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤)**.

والقرآن فقد أفضى على هذا النبيّ أسمى آيات العظمة والقداسة
 والرفعة، وبصورة كليّة فإنه ليس هناك كتاب ولا أثر في تاريخ البشرية
 يمدح النبيّ موسى عليه السلام بمثل القرآن.

(١) الأعراف: ١٤٥

(٢) الأعراف: ١٥٠، وفي الحديث: أنه لما سقطت الألواح من يد موسى عليه السلام ابتلعت الأرض
 بعض تلك الألواح (أو ارتفع إلى السماء)، وكسر بعضها، وبقي الباقي سالماً وفيه إشارة إلى
 أن أمته ستكسر أوامرهم.

(٣) بصائر الدرجات ١: ١٤١.

(٤) الأعراف: ١٧١.

ولم يترك القرآن الحديث عن أم موسى الكريمة، وأخته العظوفة وذكرهما بخير، وكذلك يتحدث عن آسية بنت مزاحم زوجة فرعون التي أضمرت محبة موسى في قلبها وقامت بتربيته في حجرها وليدًا ثم عدّها من النساء القدوة والنموذج الحي لنساء العالم، وأخبر عن بيت قد أعدّها لها في الجنة.

ويمكن تلخيص المحاور التي يدور عليها الكلام في هذا المجال في القرآن في ثلاثة محاور:

المحور الأول: هو علاقة موسى عليه السلام بالله سبحانه، وذلك مثل التجليات المتكررة وظهور مجد الله وعظمته لموسى عليه السلام بالواسطة وبدون واسطة، وهذا الجانب يساعد المؤمنين على معرفة النبي الجديد والرسول الخاتم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾^(١).

المحور الثاني: مواقف موسى من أعداء الله وكيفية مواجهتهم ومقابلتهم، فقد صبر كثيرًا في مقابلة فرعون والفراعنة، وتحمل مصاعب كثيرة يتجلّى منه محنة رسول الله ﷺ لأنه قال بهذا المضمون: «إذا كان للنبي موسى فرعون واحد، فأنا أتصدّي لفراعنة من قريش»^(٢).

(١) الأنبياء: ٤٨-٥٠.

(٢) بحار الأنوار ١٠: ٣٥؛ الاحتجاج ١: ٢١٩ عن علي عليه السلام.

المحور الثالث: رابطة موسى عليه السلام مع قومه وأُمته، فقد واجه الكثير من الظلم والعذاب والمصاعب والتعرض لأنواع التهم والاستهانة حتى أنه شكا ذلك إلى ربّه، ولكن ذكر تلك الآلام في القرآن يعدُّ نوعاً من التسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي واجه مصاعب جمة في مواجهة المنافقين وجهال المسلمين كي يصبر ولا يحزن؛ ومع ذلك فقد كان يقول: «ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت»، ولكنّه في كلّ ذلك لم يشكُّ أُمته إلى الله سبحانه ولم يدعُ عليهم، بل كان يصبر ويدعو لهم ^(١).

النبي هارون

هارون عليه السلام أخو موسى بن عمران لأبيه وأمه، ولما كان لسانه أفصح من موسى طلب موسى عليه السلام من الله أن يشاركه في رسالته ويكون له وزيراً وناصرًا، فاستجاب الله سبحانه له: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونُ أَخِي ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ^(٢).

فكانت علاقة هارون بموسى عليه السلام هي الوزارة والأخوة، فقام باستخلافه حينما ذهب إلى ميقاته مع ربّه: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمِّ مِّقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ^(٣).

(١) بحار الأنوار ٣٩: ٥٥؛ كشف الغمة ٢: ٥٣٧؛ الخرائج والجرائح، ١: ١٦٤.

(٢) طه: ٢٩ - ٣٥.

(٣) الأعراف: ١٤٢.

فبصریح القرآن نجد أن هارون عليه السلام نبیِّ كموسى عليه السلام ورسولٌ من قبل الله سبحانه وتعالى. والنتيجة أنه كان قد حاز على كمالات الأنبياء وخواصهم.

ولو أردنا أن نستعرض ما قاله كتاب التوراة في هذا المجال نجد أنهم ظلموا هذا النبي وهذا المجاهد ظلماً عظيماً حيث نسبوا بوقاحة تامّة صناعة العجل إليه ^(١). وأنه دعا بني إسرائيل إلى عبادته، فإنّ نصوص التوراة توحى إلى أن كتابها لم يتمتعوا بالروح الدينيّة ولا التقوى القلبيّة، بل قد أظهروا من خلاها وكأنهم أعداء هذا الدين وجاؤوا لإطفاء نور الله.

وفي المقابل فإن القرآن الذي أكثر آياته تهتم بآثار الأنبياء العظام وأعمال أمهم وتقوم بتصحيح آثار التحريف والزيغ، نجده يدفع هذه التهمة عن ساحة هارون وتعتبره مبرأ من كل التهم التي نسبت إليه، وفي قبال ذلك، تعتبر الصانع للعجل هو السامري.

نعم فإن القرآن لم يكتف بممدح هارون، بل جعل من آله أصحاب منزلة دينية ويخبر عن أنهم كانوا حملة التابوت ومن ورثة الكتاب ^(٢). فان الآثار والروايات الإسلامية تتحدث عن عظمتهم ومقامهم الشامخ، وتذكّر على أن أقرباءهم من باقي الأسباط حرّموهم من حقهم حسداً وظلماً، يعني نفس ما حدث من الأمة الإسلامية بالنسبة إلى أهل البيت ذرية النبي عليه السلام.

ثم إن التوراة تذكر أربعة أولاد لهارون ولكن أسماءهم تختلف مع

(١) سفر الخروج، الإصحاح: ٣٢، فقرات ١ - ٩، بنو إسرائيل بين نبأ القرآن وخبر العهد القديم: ٢١٦.

(٢) البقرة: ٢٤٨.

الموجود في أحاديث أهل البيت فإن أسماءهم فيها شبر وشبير ومشبر ويعادلها باللغة العربية حسن وحسين ومحسن^(١).

النبي يوشع

كان النبي يوشع عليه السلام وصياً لموسى عليه السلام في بداية الأمر، ثم اختاره الله للنبوّة، فأمسك بزمام أمور بني إسرائيل باقتدار وحلم وأخذ يجاهد في سبيل الدين ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا حتى خارج مجتمع بني إسرائيل، وقام بتحقيق آمال النبي موسى عليه السلام.

وبهذا كان يوشع عليه السلام نبياً يعمل على وفق ما يأمره الله سبحانه وتعالى، لم ينحرف عن طريق الحق والعدالة والإحسان والرحمة.

ونحن نجد الآثار الإسلامية تفرض للنبي يوشع مقاماً شامخاً وكان أمير المؤمنين وصي رسول الإسلام عليه السلام، يقايس الكثير من منازلهم بمنازل يوشع الذي كان وصياً لموسى عليه السلام^(٢).

والتوراة الفعلية تذكر فتوحات يوشع وحروبه، وتصفها بتمام القسوة وهي محرفة لا يمكن الاعتماد عليها وتصحيحها ولكنها تفند إشكاليات اليهود على حروب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم^(٣).

(١) جاء في سفر العدد، ٣: ٢ و ٣: أساء بني هارون: ناداب البكر وأبيهو وألعازار وإيثامار.
(٢) بحار الأنوار ١٣: ٣٩٤-٣٩٧ و ٣٩: ٥٨ - ٦٢ فصل في مساواته مع موسى وهارون ويوشع.
(٣) وقال أحمد سوسة في ص ٢٩١ من كتابه "العرب واليهود في التاريخ"، حول يوشع وفتوحاته.... فحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب (سفر يوشع ٦: ٢١ - ٢٤).

النبي داود

إن الله سبحانه وتعالى كما يشير القرآن الكريم وهب النبي داود عليه السلام مواهب وعلمًا وجعله عزيزًا ومقتدرًا، ولائقًا بمقام النبوة والملوك، والقرآن يخبر عن نبوته ويرى أن عبادته ومحرابه وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى أكبر امتياز له، ويضيف إلى ذلك ذكر بعض كمالاته ومدارجه الروحية والمعنوية، ويذكر أنه كان له موهبة بحيث يعلم منطق الطير، ويسبح معه الجبال، وله قدرة على تسخير الجن في أمور دولته.

وكان النبي داود عليه السلام صاحب كتاب منزل باسم الزبور، الذي له قيمة استثنائية من حيث القدم والمضامين والكلمات، ويعد من أغنى مصادر المعرفة في الخزان الإسلامية.

هذا وقد ترجم إلى العربية عدة تراجم وأقدم ما هو موجود في أيدينا هو المترجم في زمان المأمون العباسي، وقد ذكر في مقدمته أنه ترجم بحضور أحبار اليهود ونقل من العبرية إلى العربية كلمة كلمة، ونجد في هذا الكتاب أن اسم النبي محمد ﷺ قد تكرر وقد بشر فيه بمجيئه وبعثته، ويختلف اختلافًا كبيرًا مع المزامير الموجودة بأيدي اليهود اليوم.

وقام النبي داود عليه السلام وبأمر من الله سبحانه ببناء بيت المقدس حتى يكون موضعًا لعبادة الله تعالى ومحكمة العدل وسماه بيت الله، ولكن لم يتمكن من إتمامه.

النبي سليمان

كان سليمان عليه السلام هو الابن الأصغر لداود، وكان فيه الأرضية لتحمل أعباء النبوة والقيام مقام أبيه على كرسي الحكم، وقد شهد القرآن بأنه الوارث الحقيقي لمقام النبوة والملك الذي كان لداود عليه السلام، والشاهد أن آيات القرآن التي تتكلم عن النبي سليمان أجلى مصداق لاجتماع الرئاسة والملك مع العبودية والتضرع إلى الله سبحانه في شخص النبي سليمان وتعكس بذلك قبساً عن حكومة المهدي عليه السلام الذي يأتي في آخر الزمان.

وبصورة كلية فإن قصص الأنبياء في القرآن كما تعكس مقامات رسول الله وأهل البيت، كذلك تجعل البشارة بحكومة المهدي عليه السلام مستساغة ومعقولة للغاية.

والنبي سليمان عليه السلام مثل أبيه داود خاض الحروب ودفع بالجيوش في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ذكره وتوحيده وسعى في إتمام بناء بيت المقدس.

وقد ذكر القرآن دعوته بلقيس ملكة سبأ التي كانت في جنوب جزيرة العرب إلى الإسلام، وتمكنه من إخضاعها إلى حكمه بإرسال رسالة وإحضار عرشها بطريق المعجزة بواسطة وصيه آصف بن برخيا، حيث قام بنقله في أقل من طرفة عين من سبأ إلى فلسطين^(١).

(١) النمل: ٣٠؛ تفسير العياشي: ٢: ٣٤٠.

ولقد اختار الكتاب المقدس عند الكلام عن النبي داود وابنه **إليشا** مسيراً خاطئاً حيث عكس عن هذين النبيين العظميين صورة الإنسان المتهتك الشهواني الذي يتجاوز على حقوق الآخرين، وهناك شواهد في الكتاب المقدس تقضي بسلب النبوة منهما ونفيها عنهما وأنه لم يبق لهما سوى مقام الملك والحكومة، وينبغي الإذعان بأن الفرق اليهودية مختلفة في هذه المسألة.

واليهود اليوم يعتقدون بذلك، ولكن ما هي الأمور التي حدثت طوال القرون الماضية والتي أدّت إلى سلب اليهود لهذا المقام الإلهي منهما؟ هل من الممكن دعوى أن المجامع اليهودية التي دوّنت التوراة ضربت دون نبوتها كشحاً ولم تلتفت إليها أو اجترأت على هذين النبيين وانتقصت منهما إلى حدٍ لا يجراً القلم على تدوينه؟^(١).

ثم إن دولة سليمان انقسمت إلى دولتي إسرائيل ويهوذا^(٢).

هذا وقد وقعت حروب عديدة بين الدولتين حتى هاجمهم الكلدانيون فانهارت الدولتان ولم يقوم لهما قائمة إلى زمان وصول كورش إلى الحكم^(٣).

هذا وقد بعث بين بني إسرائيل إبان هذه الفترة (بعد عهد سليمان

(١) البحار ١٣: ١٦٩؛ وبنو إسرائيل بين نأ القرآن وخبر العهد القديم: ٢٢١.

(٢) التناقض في التاريخ وأحداث التوراة: ١٢٧-١٩٩.

(٣) جاء في كتاب العلاقات ص ٥٩؛ وجاء فصل العرب واليهود في زمن سليمان: ٦٨ - ٩٥ وبعد وفاة سليمان نحو ٩٣٧ ق.م. انقسمت الدولة اليهودية إلى مملكتين شطالية وكانت عاصمتها السامرة وسميت إسرائيل، وجنوبية اتخذت القدس عاصمة لها وأطلق عليها اسم يهوذا.

النبي وقبل بعثة عيسى) أنبياء ورسل كثيرون، جاءت الإشارة إليها في القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾^(٢)

كما مخضت بالكثير من الحوادث وشهدت أنواع التقلبات والتحويلات، كما ألمحت إليه الآيات الشريفة، وأهم ما في ذلك مما يجب التذكير عليه هو ابتداء اليهودية في هذه الفترة ثم غلبتها وسيطرتها على معتقدات أمة موسى عليه السلام كما سنشير إليه في الفصل القادم، بينما سنحاول الإشارة إلى بعثة آخر الأنبياء من بني إسرائيل، عيسى بن مريم عليه السلام، في هذا الموضع.

عيسى المسيح

المسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو كلمة الله التي ألقاها إلى القديسة مريم، وجعله وإياها آية للعالمين، وكذا فإن تكلمه في المهد ودفاعه عن قداسة أمه وطهارتها وإظهار نبوته حين الولادة يعدّ معجزة ودلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى عند كل ذي لب.

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٨٧؛ أمالي الشيخ الطوسي: ٣٩٧؛ بحار الأنوار ١١: ٣١.

فقد برهن على أن النبوة هي نور سواء كان حاملها صغيراً أو كبيراً وأن الأنبياء في الحقيقة يولدون أنبياء، وعلى هذا الأساس نلتزم بعصمة الأنبياء وعدم صدور الذنب وكل ما لا يليق منهم في تمام العمر، لأنهم مؤيدون بعلم الله وحكمته وعصمته.

وفي ذلك الزمان الذي شاعت فيه الأمراض والعاهات مثل الفالج والبرص والعمى خصوصاً بين بني إسرائيل وصار أكثر الناس يصاب بهذه الأمراض جعل وجود النبي عيسى ونفسه القدسية في تلك الحال أكبر رحمة، حيث كان يداوي المرضى بأقل نظرة أو يمسح يده على بدن المريض فيشفى في الحال بإذن الله، ويعدّ هذا من مظاهر قدرة الله سبحانه بلا منازع.

فجاء عيسى من هذا المنفذ ومن ناحية هذا العجز الذي أصابهم ودخل إلى واقع حياتهم من هذا المدخل وصار يُظهر أمام أعينهم قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته حتى تحيى قلوبهم المظلمة. وتفتح على الفيوض الإلهية وتنور بنوره الهداية، ويعيد الحياة المعنوية للجماعات اليهودية.

كما قام بإحياء الأموات ليعيد إلى الأذهان قضية الموت وعصرة القبر ونشور الموتى وعرصات القيامة بصورة واضحة وبشكل ملموس حتى يتحذّر الناس من عواقبهم.

نعم فإن هذه المعاجز والآيات استطاعت أن تعيد روح الزهد والتقوى في الجماعات اليهودية، وهي الروح التي كانت في النبي موسى عليه السلام.

وذلك أن عيسى المسيح زهد في الدنيا إلى أبعد الحدود في وسط تغلب عليه المادّيات وكنز الأموال، فكان يفرش الأرض ويلتحف السماء ويطعم من أقل الطعام حتى مثل ورق الشجر.

ثم عطف عيسى عليه السلام على تبين الهدف من وجود الإنسان على هذه البسيطة، وكان يقرأ على المؤمنين الإنجيل بما فيه من الترغيب والترهيب والمدح واللوم وبين المعارف العرفانية للتوراة.

والمؤسف له أن اليهود المعاندين خانوا هذا النبي العظيم وكلمة التوحيد، ولم يمهلهوه كي يوصل رسالته إلى عامّة الناس، وتبلغ يده يد الشفاء إلى أقاصي العالم. ولم يتمكن الناس أن يتنفعوا من فيوضه وروحه القدسية أكثر من ثلاث سنوات، ولم يبلغ كلامه العطر إلا إلى جماعة معدودة من الناس.

وذلك أنهم لما رأوا تنبؤه الدائم بمشيحاً وتبشيريه بالنبيّ الأميّ العربيّ أحمد، وهو ممن ينتظر ظهوره، فحاصروه وأرادوا قتله وصلبه، فأظهر الله لهم في هذا الحال اليهودي الذي خان عيسى على صورته، فظنّ اليهود أنه عيسى، فأخذوه وصلبوه وبذلك، اشتبه

الحال عليهم ^(١)، وتابعهم النصارى في ذلك فجعلوا الصليب زينة لهم، وأما حقيقة الحال فقد بيّنه القرآن الصادق فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ

إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٢﴾.

كذلك أراد الله سبحانه بمنّه وفضله أن يستنقذه من أيدي الظلمة، فرفعه إلى السماء الرابعة لينتظر ظهور آخر حجج الله على العباد المهدي الموعود عليه السلام، حتى إذا ظهر، نزل هو من السماء وظهر من خلف الكعبة ثم يصلي مع المهدي ويحارب الدجال بأمره فيقتله ليستقر العالم ويتنعم على أثر قتله ^(٢).

هذا وقد تصدّى مشيرو الفتن والانتهازيون من اليهود بعد غيبة عيسى عليه السلام إلى إطفاء نور الله في الأرض وقاموا بتحريف دينه حتى باسم الحوار، فبدّلوا كلماته المضيئة كفرًا وزندقة، ودعوا الناس إلى عبادة إنسان يأكل الطعام ويعرض عليه النوم واليقظة ويمشي في الأسواق، فلم يحيلوا الناس بهذا العمل عن بلوغ أسمى الغايات والمراتب العالية فقط، بل أوقعوهم في مهاوي الضلال ودرك الجحيم.

فإن بولس الذي ولد في عائلة يهودية متعصبة وكان يهوديًا متعطشًا لدم المسيحيين ولم ير عيسى المسيح، أظهر المسيحية فأخذ قلمه وكتب رسائل هدمت تعاليم المسيح الحقيقية وأسس على إنقاضها الديانة النصرانية، فرفع التكاليف عن كاهل الناس وجعلهم مبسوطي اليد في فعل المحرمات، فأحلّ لهم الخمر، وألقى بتبعات ذلك على كاهل عيسى عليه السلام وقام بتجزئة الإله إلى ثلاثة أجزاء وجعله واحدًا في نفس

(١) النساء: ١٥٧.

(٢) البحار ٢١: ٢٩٤، وج ١٠: ١٣٢.

الوقت، وبذلك أشاع عبادة الأصنام بثوب جديد، الشيء الذي لم يتعقله البشر إلى هذا اليوم، لأن فيه من التفاهة والبعد عن دائرة العقل والفكر السليم إلى أبعد الحدود^(١).

وفي مقابل ذلك فإن القرآن حينما أثنى على مريم وصدق عفتها وطهارتها، كرم مقام عيسى المسيح ومجده ودعاه كلمة الله ورسوله وعبده، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(٢).

فجاء القرآن ليعلم عن حقيقة كلام عيسى عليه السلام التوحيدي ويخط على الشرك النصراني بخطوط البطلان: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٣) لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا^(٤).

وأخبر عن تبشيره بمجيء نبي من العرب اسمه أحمد، أعلن ذلك لجميع العالم حتى يعلم جميع محبي عيسى عليه السلام من المسيحيين

(١) البحار ٥٢: ٣٧٣؛ نور الثقلين للجويري ٥: ٧٢١؛ ومسيحيات وبدعتها: ٢٤.

(٢) آل عمران: ٤٥.

(٣) النساء: ١٧١-١٧٢.

أن رضاه مرهون بمتابعة النبي العربي الذي سمي بأحمد^(١): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢).

نجد أن القرآن يعلنها لجميع المفكرين وجميع المذاهب أنه لا حقيقة إلا برهان ولا بد من ثبوت كونها من عند الله سبحانه وتعالى، أو وجود علامة على حقيقتها.

ولذا نجد أن نصارى نجران لما لم يرتضوا الآيات الدالة على أن عيسى عليه السلام هو عبد الله، وصلت النوبة إلى طلب الآية والعلامة على الحقيقة، وهي المباهلة وكانت متداولة في الأديان السابقة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٣)، فقد كلف الله سبحانه وتعالى نبيه بمباهلتهم بنفسه وعترته الطاهرة وبذلك أبطل حجة النصارى ومذهبهم، وشطب على التثليث وخطأه، واستسلم رؤساؤهم لما شاهدوا الحقيقة ورضوا بدفع الجزية.

وبدوري أطلب من جميع الشباب المسيحيين الرجوع إلى كتب الشيعة المعتمدة ومطالعة هذه الواقعة حتى يقفوا على ما أوقف الله رؤساؤهم عليه في صدر الإسلام كي يدركوا الحقيقة.

(١) محمد در تورات وإنجيل: ١٧١.

(٢) الصف: ٦.

(٣) آل عمران: ٦١.

محمّد رسول الله آخر الأنبياء من نسل إبراهيم

خلقته النورية

فإن محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من أحفاد إسماعيل الذبيح ومن ذراري إبراهيم الخليل، وهو الأول والآخر، لأنه وإن كان الآخر في البعثة، ولكنه الأول في الخلق والنبوة، وإن أول ما خلق الله نور محمد ﷺ ثم اشتق منه باقي الموجودات، وقد انعكست هذه الحقيقة في الأحاديث الواردة عن طريق أهل البيت^(١)، ويشهد بها آثار الأنبياء السابقين ومنها في قصّة توبة آدم صفى الله، وجاء هذا المعنى في اللوحة التي عثر عليها من سفينة نوح حسب ما يقال مكتوبة بالسريانية بعلامات خاصة^(٢).

وكذا في لوح سليمان وفي كتاب إدريس حيث عدّهم محور الكائنات^(٣)، وفي إنجيل برنابا يصرّ ذلك بوضوح^(٤).

(١) منها ما روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في نعت رسول الخاتم: اللهم هذا أوّل العَدَدِ وصاحبُ الأبد، نُورُكَ الَّذِي قَهَرَتْ بِهِ غَوَاسِقُ الظُّلْمِ وَبَوَاسِقُ الْعَدَمِ.. الحديث. (ناسخ التواريخ ٤: ١٦٠)

(٢) علي والأنبياء: ٣٩-٤٣: وفي لوح سليمان نفس المصدر: ٣٣-٣٦.

(٣) بشارات عهدين: ٢٢٩، من كتاب إدريس باللغة السريانية ص ٥١٤، طبع لندن ١٨٩ م.

(٤) إنجيل برنابا: الفصول المتعددة، منها الفصل ٨٢.

فكان من المناسب أن نبدأ الكتاب بهذا الكلام ونفتحه بحديث عن خلقه الرسول النورية ولكن نحيل القارئ إلى كتاب بحار الأنوار إذا شاء وليس ذلك حكراً على الشيعة الإمامية بل نقل العامة أيضاً أن النبي الخاتم هو العقل الأول والنور الأول^(١). وهناك تساؤلات في كتب النصارى واليهود عن أشرف المخلوقات وأكمل الموجودات وبأنه هو المخلوق الأول وهو النور الأول وهو الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه^(٢).

خلقته في الأرض

أمر الله سبحانه وتعالى جبرئيل بالهبوط إلى الأرض حتى يأخذ منها قبضة ليخلق منها آدم عليه السلام، فلما خلق آدم أودع نور محمد صلوات الله وسلامه في صلبه، فكان آدم يسمع نسيح تسبيح الله سبحانه من ظهره، ثم انتقل هذا النور منه إلى ولده ثم تناقلته الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة، حتى ظهر من ذلك النور على جبين هاشم بن عبد مناف، فلما ولد له شبيهة الحمد، انتشر نور النبي صلوات الله وسلامه من جبينه في الأطراف، وكان ذلك النور معه على الدوام، حتى انتقل إلى عبد الله، فأضاء له أطراف مكة، فتزوج عبد الله بآمنة بنت وهب بن عبد مناف، فلم تلد له سوى ولداً واحداً.

(١) البحار ١٥: ٢٨.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح الأول: (ترجمة وشرح ونقد سفر أول تورات: ٦٩) وكتاب رؤيا يوحنا، ٣: ٥.

مولد رسول الله

في أوّل عام الفيل ١٧ ربيع الأول عند السحر ولد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من سلالة إبراهيم الخليل وحفيد إسماعيل الذبيح، الموعود في التوراة والزبور والإنجيل، في جبل فاران^(١)، الأرض المقدسة والمباركة وحرم الله الآمن مكّة المعظمة، من أم طاهرة وأصيلة من بني زهرة باسم آمنة بنت وهب، فسقط ساجداً على الأرض مثل سائر الأنبياء تحيطه هالة من النور.

وأما مختصاته البدنيّة فقد ولد مختوناً ومقطوع السرّة كباقي الرسل، وعلى ظهره خاتم النبوة، ولد مطهّراً من كل دنس وقذر، فأخذه ملاك الرب وعرج به إلى السماء ثم عاد به بعد ساعات.

اسمه محمد ﷺ بمعنى الممدوح، وهو الاسم الذي بشر به في كتب الأنبياء، وهو النبيّ الوحيد الذي سمّي بهذا الاسم وليس له سمّي من الأنبياء.

ولما ولد امتلأت السماء بالشهب، وبرقت برقة بين الأرض والسماء، شمل نورها الأفق بحيث علم الجميع بحدوث أمر عظيم ولكن لا يعلمون ما هو.

وكان هناك حبر من الأخبار بمكّة واسمه يوسف، عندما شاهد ذلك علم بولادة المولود المبارك وصار يفتش عنه حتى اهتدى إلى

(١) جبل فاران هو مكّة المعظمة، (سفر التكوين: الإصحاح: ٢١): ترجمة وشرح ونقد سفر ييدايش تورات ص ٣٨٠.

دار أمنة بنت وهب، فلما رأى الطفل عن قرب وشاهد خاتم النبوة في ظهره علم بولادة محمد الموعود به، فنادى بأعلى صوته، أن النبوة خرجت من بني إسرائيل إلى يوم القيامة^(١).

ثم إن الرسول ﷺ تجاوز دورة الطفولة والصبا بطهارة تامة وصفاء نفس وكمال الشرف، حتى بلغ سن الرشد، فاتاه ربّه الحكمة كما علّم إبراهيم ويوسف، وكان في أكثر ذلك برعاية جدّه عبد المطلب ثم عمّه أبي طالب^(٢)، في بيت طاهر ومنزه من الشرك وعبادة الأصنام، ثم إن الرسول وجد الفرصة للخروج للتجارة، فسافر إلى الشام، ولما رآه الرهبان والأخبار عرفوه وعلموا قرب ظهور النبي الموعود فحذّروه من اليهود، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره الشريف تزوج بخديجة، المرأة الشريفة في مكّة، وصرف أموالها بأمرها في سبيل الله. وكان هو

(١) البحار ١٥: ٢٧٠ و ٣٢٤.

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ج ١ ص ١٢٠ - وفي الخصال للصدوق ص ٣١٢، (موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٢٤٢). بحار الأنوار ج: ٣٥ ص ٨٦ عن المناقب لابن شهر آشوب: ٣٥: ١.

وروي أن رجلاً من رجال الشيعة وهو أبان بن أبي محمود كتب إلى علي بن موسى الرضا عليه السلام جعلت فداك إني قد شككت في إسلام أبي طالب فكتب إليه: "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى... الآية (النساء: ١١٥)، إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار، وقد روي عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه سئل عما يقوله الناس: أن أبا طالب في ضحضاح من نار. فقال: "لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه"، ثم قال: "ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحج عن عبد الله وأمنة وأبي طالب في حياته ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم". (بحار الأنوار ٣٥: ١٥٧). وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤: ٦٩. روي أن علي بن الحسين سئل عن هذا فقال: "وا عجباً إن الله تعالى نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تنزل تحت أبي طالب حتى مات. (بحار الأنوار ٣٥: ١٥٧). "وأن أجداد النبي هم أهل كرامات ومعاجز (البحار ٤٢: ٤٣).

مشغول بالعبادة والمناجاة على الدوام بعيداً عن الناس، في غار حراء، وقد بعث الله سبحانه وتعالى ملكاً يؤدّب به على الطريقة الإلهية والسنة الإبراهيمية، فكان يتدرج في مراتب الكمال حتى بلغ له من العمر ٣٧ سنة، جاءه جبرائيل فأخبره بخبر وبشّره بالنبوة، ثم اصطفى للنبوة في الأربعين من عمره، وتحمل رسالة الرب لجميع العالم سواء بني إسرائيل أو غيرهم، فصارت تنزل عليه آيات القرآن من يومها فصاعداً، فقام بأعباء الرسالة مدعوماً بالوحي الإلهي، وبصحبة جبرئيل ومعونة أمير المؤمنين علي عليه السلام، فأخذ يقارع ويمجادل قبيلة قريش وغيرهم من أهل الكتاب وعبداء الأصنام، وصاروا هم يؤذونه ويؤلمونه، حتى اضطر إلى الهجرة، فهاجر إلى المدينة وقام بتشكيل حكومة دينية، وأخذ يجاهد الكفار والمشركين، ودارت حروب متعددة بينه وبين الوثنيين والمشركين من أهل الكتاب، حتى أتم الرسالة الإلهية، على مدى ٢٣ عاماً، وفي آخر المطاف صار يودع أهل بيته وأُمَّته ليرتحل عن هذه الدنيا مع عالم من الأحران والمصائب.

غير أنه ترك في هذه الأمة ثقلين، أحدهما كتاب الله والآخر العترة الطاهرة من أهل بيته، ووصّى بهما وقال: ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً^(١).

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ج ٢: ٦٤٧: ثم فقال أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله ص قام خطيباً ثم لم يخطب بعد ذلك فقال يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسكوا بهما لن تضلوا فإن اللطيف الخبير أخبرني وعهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

تفسير القمي: ج ١: ١٧٣ أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، قالوا يا رسول الله وما الثقلان قال كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير - أنها لن يفترقا حتى يردا ←

وهذا النبي المكرم صلى الله عليه وآله لم يترك من الأولاد سوى بنت واحدة باسم «فاطمة» وهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فكان نسله منها، وقال: ذرية كل نبي من صلبه ولكن ذريتي من الزهراء وعلي عليه السلام وقد أشير في الآثار والكتب السابقين إلى هذا الأمر كما جاء في أحاديث باب المباهلة.

هذا وقد تزوج النبي صلى الله عليه وآله ثلاث زوجات من أهل الكتاب كي يستأنف الروابط بين بني إسرائيل وبني إسماعيل، ولكن لم يرزق منهن ولداً.

محمد ينادي بدين إبراهيم

كان محمد المصطفى صلى الله عليه وآله نادياً بدين إبراهيم وهو من ذريته، فكان ينتسب إليه حسباً ونسباً، فإن الله سبحانه وتعالى لم يرتض للبشر ديناً غير الإسلام: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، فإن دين النبي إبراهيم هو الإسلام^(٢)

→ علي الحوض كإصبعي هاتين، وجمع بين سبائتيه...

بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم: ١: ٤١٣ - حدثنا علي بن محمد عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود عن يحيى بن أديم عن شريك عن جابر قال قال أبو جعفر دعا رسول الله أصحابه بمنى فقال يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين أما إن تمسكتم بهما لن تضلوا - كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض...

المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، ٥٥٩. قول رسول الله صلى الله عليه وآله إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي [ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً] ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) كتاب محمد در تورات وإنجيل بالفارسية: ص ٢٠ و ١٢٠، محمد في الكتاب المقدس: ١٢٩.

وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾^(١)، وهو أوصى ذريته بذلك وقال: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

وكان أنبياء بني إسرائيل على هذا الدين، وقد ذكروا في القرآن بعنوان التابعين له، فليس النبي محمد ﷺ أجنباً عن إبراهيم أبداً، بل هو أولى به من الآخرين: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

إن الرسول هو أقرب الأنبياء إلى الله سبحانه، فهو الخاتم لما سبق والفتاح لما استقبل ﷺ، ويليهِ في القرب إلى الله النبي إبراهيم، الذي أُعطي وسام الإمامة: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٤)، وهذه المرتبة هي الولاية العظمى، التي أعطيت لأوصياء الرسول الخاتم أيضاً، فصاروا باجتباء الله سبحانه أئمة للناس من الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد بلغ ذلك الرسول ﷺ في غدير خم للحاضرين كي يبلغوا الغائبين، وقد شمل كلامه النوراني: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» الخلف والسلف، والأنبياء والمرسلين إلى الناس العاديين من العالي والداني، وحينما تعيّن الأصحاب الحقيقيون لمنصب الولاية والإمامة يوم غدير خم، واليهود الذين هم بعيدون جداً عن هذا

(١) الحج ٧٨.

(٢) البقرة ١٣٢.

(٣) آل عمران: ٦٨. بحار ١٢: ١١.

(٤) البقرة: ١٢٤.

المعين ولا يمتّون إليه بصلة، أصابهم اليأس واتضحت عاقبتهم ﴿يَوْمَ يَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) حيث أعلن عن انتهاء دورة الرسل الطويلة، وقد ختمت بالإمامة، ولا يبعث من بعدها رسول من قبل الله تعالى، فقد جاء أشرف الأنبياء وأكمل الرسل بشريعته الكاملة التي هي أكمل الشرائع وأسمحها التي عرضها على جميع البشر، وأودع كتابه الذي هو معجزته الباقية والخالدة - أعني القرآن الكريم - عند أوصيائه، ووصلت النوبة إلى الوصاية والإمامة، وهي الدورة التي شرعت بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واستمرت في أولاده الأحد عشر حتى وصلت اليوم إلى ولده الحادي عشر وهو إمام الشيعة الثاني عشر، الحجة بن الحسن العسكري. عجل الله تعالى فرجه الشريف.

معرفتنا بالرسول الخاتم

إن معرفة الأنبياء تنشأ من معرفة الله سبحانه وتعالى، فهم محال أسرار الحق سبحانه، وحاملوا رسالاته، فليس من السهل معرفة كنههم، ولا يتمكّن أحد من الوقوف على أسرارهم.

فكيف يمكننا الإلمام بأحوال الرسول الأعظم والنبّي الخاتم، وهو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وأرفعهم مقامًا ورتبة، قال الله

سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(١) ثم قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٢) وقال ﷺ: «إن لي مع الله وقتًا لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان»^(٣).

نعم فإن فهم تلك الأمور خارج عن طاقة عقولنا.

وفي مجال الإشادة بأخلاقه يقول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤).

ونفس هذا الخُلُق العظيم صار سببًا لائتلاف المؤمنين وزرع المحبة بين العرب وغيرهم، وجمع اليهود وغير اليهود تحت مظلة دين واحد^(٥).

نعم كان محمد المصطفى ﷺ نبيًا يتحلى بصفات الأنبياء وأخلاقهم، في وقاره ومثانيته، وفائه وأمانته، بشره وبشاشته وجهه، فصاحته وبلاغته، شهامته وشجاعته، كل ذلك من خواصه لا يشبهه فيها أحد سوى وصيه وخليفته أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث قال فيه رسول الله ﷺ: «أنت مني وأنا منك كالضوء من الضوء»^(٦).

ومع هذا الوصف لا يسعنا أن نقف على حقيقة ذلك الوجود

(١) النجم: ٨ و ٩.

(٢) النجم: ١٠.

(٣) البحار، ج ١١: ٣٦، وج ٨١: ٣٦٠؛ شرح أصول الكافي، ٢: ٨٢.

(٤) القلم: ٤.

(٥) بحار الأنوار: ٢٢: ٧٤ عن الأملاني للشيخ الطوسي: ٤٣٨.

(٦) مناقب آل أبي طالب: ٢١٦؛ بحار الأنوار ٣٨: ٢٩٦؛ بشارة المصطفى لشيعته المرتضى: ١٩١؛

مناقب آل أبي طالب: ٢١٦؛ بحار الأنوار ٣٨: ٢٩٦.

المبارك كما هي، والذي يلزمنا أن نصدّقه ونقرّ به، هو أنه مبعوث من قبل الله سبحانه يتكلّم بوحى منه ويعمل طوع إرادة الحق تعالى ذكره، ويقسم على عبادة الله سبحانه، ولا يُقدم على ما لا يرضي الله وإن كان فيه نفع له ولأصحابه، وكان له مرتبة العصمة فلا يزُلُّ أبداً، ولم يكن له عداوة شخصية مع أحد، وكان كالأب الرحيم بالنسبة لجميع الناس، ورحمة للعالمين.

وأما معاملته مع اليهود فهذا أول ما يجب أن نأخذه بنظر الاعتبار في هذه الدراسة.

فالذين اغتاضوا وتأثروا منه وصاروا يعيبون بعض أعماله فتأثروا في الحقيقة مما أراد الله وارتضاه، وشكايتهم من مقرراته.

فكيف من الممكن الكلام عن آلاف الحكم الظرفية الموجودة في أفعال النبي ﷺ وسيرته، وكيف يمكن تدوين ذلك وكتابته، والحال أنا لا نستطيع الوقوف عليها، وكيف يمكن تفسيرها وتبيينها، والحال أن العقل عاجز عن درك حقائقها.

فإذا تأملنا في التحليلات والدارسات التي أنجزت في مجال الوقائع التاريخية التي وقعت في صدر الإسلام وما يرتبط بالرسول الأعظم ﷺ فهي لا تتجاوز كونها استحسنات يتناول كلّ مفكّر حكمة من حكمها على ما يقتضيه ذوقه وسليقته الخاصة، وهو غافل عن آلاف النكات الأخرى بل يبقى جاهلاً.

وكذا يجب علينا أن نعلم أن سبب تحقق كل ما يقرره الرسول

ويريده صلى الله عليه وآله يعود إلى قدرة الله سبحانه، فالرسول صلى الله عليه وآله يستند إلى القدرة الإلهية، ولا يأبه بالقدرات الظاهرية ولا يحترس منها، ولكنه لم يبعث ليفعل كل شيء عن طريق المعجزة ولأجل أن لا يسلب من الناس اختيارهم وانتخابهم فإنه صلى الله عليه وآله ترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي وتتبع ظروفها الاعتيادية، وتظل المعجزة في رباطة جأش الرسول صلى الله عليه وآله وصلابته غير المتناهية واندفاعه في سبيل تحقيق أهداف الرسالة وكذا في إدارة الدولة، فهو يعتمد في جميع ذلك على القدرة الإلهية غير المتناهية، ولا يفكر في شيء سوى ما وعده الله سبحانه وتعالى من النصر، غير مكثر بنصرة الناس له وعدمها.

وعلى هذا لا يمكن تشبيه عمله بعمل السياسيين ورؤساء الدول عامة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١).

فالشخص الذي تُعينه الملائكة بأمر من الله سبحانه وقد سُخر له الهواء والسحاب لا يهاب مواجهة الكفار ولا يعتمد على نصرة الناس له.

ولذا نجد أن ابن باطا عظيم اليهود يقول فيه صلى الله عليه وآله: «فإن كان هذا هو، فلا يهولنه هؤلاء ولا جمعهم ولو ناوته هذه الجبال الرواسي لغلبيها»^(٢).

ونجد أن القرآن يقول مخاطباً للرسول صلى الله عليه وآله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٨٥.

اللَّهُ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا^(١).

فقد كُلف الرسول ﷺ بأن يمضي في تنفيذ أوامر الله سبحانه لوحده حتى لو تركه جميع الناس وكان النجاح يحالفه دائماً ولولا ذلك لما كُلف بذلك، ومع ذلك فقد كان مأموراً بتحريض المؤمنين لكي لا يجرموا ثواب تلك الأعمال، ويظل الفكر والقياس عاجزاً عن تفسير هذا العمل ولا يسعنا سوى دراسة ظواهر الأمور.

أول من صدق بالنبى وصار وصيه.

مضت السنة الإلهية على أن يكون أول من يلبي دعوة واحد من رسله يصير وصيه من بعده وصاحب علمه ومقامه ومنزلته وولايته. فإن يوشع وصي النبي موسى عليه السلام كان أول من صدق به وآمن برسالته، وصار وصيه من بعده يقوم بأعماله وينفذ وصاياه، واليهود يعلمون ذلك جيداً.

وكذلك عرض رسول الله ﷺ يوم الدار^(٢)، على بني هاشم، أن أول من يؤمن بي يكون وصيي وخليفتي من بعدي، وهذا يعني بقاء نبوة النبي بقاءه، ومما اتفق عليه فرق المسلمين أن أول من أجاب دعوة الرسول ﷺ ابن عمه علي عليه السلام، وهو الذي عاش مع الرسول ﷺ

(١) النساء: ٨٤.

(٢) جاء في كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٤١٨؛ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ٢: ٣٥٠؛ إثبات الهدى بالنصوص والمعجزات، ٣: ١٣؛ البرهان في تفسير القرآن، ٢: ٨٢٩.

عدة سنوات وتأدّب بأدابه وتيقن بصدقه وأخذ يصلي معه لمدة سبع سنوات قبل الآخرين والجميع مشرك وكافر يعبدون الحجر والخشب.

ولا مجال لإنكار الدعوة إلى ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام ووصايته من يوم الدعوة إلى التوحيد ونبوة النبي محمد ﷺ، يشهد لذلك الأحاديث المروية والتاريخ المدون^(١)، يعني أن تعريف علي عليه السلام كان مبكرًا من أوّل النداء إلى الإسلام، وقد شاهد اليهود وغيرهم عليًا مع النبي ﷺ من اليوم الأوّل، ولا شك أن عليًا هو عيبة علم رسول الله وساعده القوي وسيفه البتار، ولذا صار من غير الممكن دراسة معاملة الرسول مع اليهود مع قطع النظر عن علي عليه السلام وأعماله.

فقد كان الإمام علي عليه السلام عون رسول الله الصادق، وناصره الصديق، والمصداق الأكمل للصحبة المنعوتة في الآية الشريفة: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهو ظل رسول الله ﷺ في كونهما ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ وكذا تالّى تلو رسول الله بالنسبة إلى رأفته على المؤمنين: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وما زال يسقي نبت الإسلام الناهض، حتّى اشتد وأثمر، ونفذت جذوره في العمق لتبقى شجرة الإسلام خالدة إلى القيامة تؤتي أكلها كل حين، الوصف الذي جاء في الإنجيل كما أُشير إليه في بقية الآية السابقة: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

نعم فإن الصورة التي باتت في أذهان اليهود عن وراثة أولاد

لاوي للخلافة والحكومة، يسهل عليهم تسليم أحقية علي وأولاده في خلافة الرسول ﷺ، كما أن تشبيه النبي علياً عليه السلام بهارون، وتشبيهه الحسن والحسين بابني هارون له انطباع مأنوس عند اليهود، فوجود وصي النبي له من الأهمية ما لوجود نفس النبي من الأهمية.

ومن ناحية أخرى، فإن في وجود علي عليه السلام مع الرسول إتماماً للحجة على اليهود، لأنهم كانوا يجدون أوصافه في كتبهم، فكان عليهم إذا شاهدوا تلك الأوصاف المذكورة في الكتب في ذلك الوجود المبارك، أن يؤمنوا بالنبي ﷺ وأيقنوا صدق دعوته ^(١).

كان اليهود يجدون في كتبهم أن هلاكهم على يد إيليا، وبعد قرون من الخوف والحذر، إذا هو ماثل أمامهم تتجلى من ساعده قدرة الله تعالى وتلحظ في عيونه شرارة غضب الله سبحانه، وهو الضرغام وحيدر الذي كانت تسمع باسمه، الأمر الذي يؤكد صدق كل ذلك الخوف والحذر السابق.

وبذلك صار أشقياء اليهود يعادون علياً، حيث تجلّى ذلك يوم خيبر، ولكن من المؤسف نجد أن أكثر الكتاب المسلمين الذين قدّموا دراسات عن روابط الرسول واليهود من العامة لم يسلطوا الضوء على دور علي عليه السلام من هذا الأفق وفي دفع شر اليهود ولا على ضلوعه في تحقيق أهدافه النهائية، لتبقى هذه الحقائق خلف ستائر الكتمان، وتابعهم في ذلك عامة المحققين من غير المسلمين مما زاد في الطين بلة،

(١) سأل يهودي رسول الله عن وصيه فأشار إلى علي، فقال قد صدقت إنا قد وجدنا نعته في التوراة. المستدرك للبحار ١١: ١٨٧.

وأدى إلى تغطية الحقائق أكثر فأكثر، بحيث أدى إلى غمر مواقف أمير المؤمنين أخي رسول الله وساعده القوي والقوة المنفذة لمهامه في هذا الشأن.

لا زالت الأصابع اليهودية من صدر الإسلام تعمل على إطفاء هذا النور وتسعى إلى إخفاء دور الإمام علي عليه السلام ومحوه من الأذهان، وإلى يومنا هذا ما زال اليهود يتحاشون هذا النور ويحذرون من قواه الغيبية ومن هلاكهم على يد ولي الله من ذريته الغائب المنتظر، الذي سيكون فرج المؤمنين والمستضعفين على يديه، أعني صاحب الأمر الحجة بن الحسن الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

وبدوري سأسعى - وبكمال التواضع - ومن خلال هذه السطور في تسليط الضوء على مظلومية أمير المؤمنين وهدفي الأساسي من هذه الدراسة هو بيان أبعاد ذلك الظلم والدفاع عن مقامه الشامخ، عليّ! ذلك المدافع الحقيقي الأول عن حريم الرسالة النبوية والمتصدي الأول لأهل العناد من اليهود، ذلك الرجل الذي لولاه لم تتحقق أهداف الرسالة ولم يبق منها عين ولا أثر، وبصورة كلية فإن من غير الممكن دراسة أعمال الرسول في مجابهة اليهود من دون ملاحظة دور أمير المؤمنين الفاعل، لأنه حلقة الوصل والرباط بين مختلف الأحداث التي وقعت.

القرآن المجيد كتاب الرسول معجزة خالدة

يُعتبر القرآن الكريم معدنًا للعلوم الربوبية والأسرار الإلهية، فيه آيات محكمات وأخر متشابهات وله ظاهر وباطن، فإن كان تفسير ظواهره ميسورًا فإن المصير إلى بواطنه مما لا يتيسر إلا للراسخين في العلم من ذوي القلوب السليمة، ولا يحق لأي أحد أن يدّعي امتلاكه لعلم الكتاب، والعلم اللدني.

ومن ناحية أخرى فإن أكثر من ربع القرآن، عبارة عن قصص الأنبياء العظام وأخبار أهمهم، وإن أكثر تلك القصص سردًا هي قصص بني إسرائيل خصوصًا اليهود، فإن القرآن مشحون بأخبارهم الحقيقية وعواقبهم الحتمية، والمواعظ الوافية والدروس الشافية.

فكل من يقارن بين القرآن وبين باقي الكتب على رغم تحريفها، يجد أن القرآن في الغالب ناظر إلى ما أوحاه الله إلى أنبيائه وعامة ما ألهمهم من الحقائق لمدة أكثر من ثلاثين قرنًا، فكيف من الممكن في زمان الجاهلية الوقوف على كل تلك الحقائق المغمورة التي غطتها ستائر التعصب لمدة عدة قرون متتالية، ولم يبق منها أثر ولا علامة، وكيف يمكن إعادة الحياة لتلك الحقائق التي قضت عليها يد التحريف والتبليس، لتأخذ قالبها الواقعي وتبلغ إلى أسمع العالمين فتستنير بها القلوب المظلمة.

لا يكاد يمكن ذلك إلا بالعناية الإلهية، وذلك بأن يبعث الله رسولاً يفصح عن تلك الحقائق بلسان بليغ ويبينها ببيان ساهر وآيات

واضحة والقرآن قد عكس تلك الوقائع بجلاء.

تتجلى أهميّة تأكيد القرآن على ما أصاب بني إسرائيل بحذافيره وكل ذلك الاهتمام بقصصهم، من قول الرسول ﷺ: «سيصيب أمّتي ما أصاب بني إسرائيل حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل»^(١).

لقد أفشى القرآن بيانه المعجز نوايا اليهود الفاسدة، وكشف استبطانهم الكفر والشرك، وقام بفضح حيلهم في مواجهة النبي المبعوث وأتباعه المسلمين، كما كشف عن ميولهم إلى أكل الحرام والربا والسحت، وأصرّ على بيان خياناتهم ونقضهم العهود والمواثيق التي أخذت عليهم، كما قام بفضح آبائهم الذين خانوا دينهم وكتموا الحقائق وقاموا بتحريف الكتب السماوية في القرون الماضية وهم على آثارهم مقتدون، فشوّ سمعتهم وخرّب وجهتهم. وليس من العجيب أن يسهم ذلك الفضح في عدااء أكثر اليهود للرسول ودعوته، كما كان له السهم الأكبر في إيمان البعض الآخر من المتنورين والعلماء العارفين من بينهم.

تجد في القرآن أصدق الحديث عن دأب اليهود في مناهضة الرسول والوقوف بوجهه والتدبير له ومخالفته ومنازعته، فهو يحكي عن مواقفهم المعادية الثقافية والسياسية والعسكرية، وإن كان الكلام في أكثر الموارد كلياً بنحو الإجمال ولكن يمكن استنباط بعض الجزئيات والوقوف عليها، ولم يترك القرآن الإشارة إلى ما أصابهم والنتائج التي

(١) جاء ذلك في حديث نعثل اليهودي، البحار ٣٦: ٢٨٣، وج ٣: ٣٠٣.

صاروا إليها من أجل اعتبار الآخرين ولتتم الحجة على الخلق.

تلك الآيات الشريفة المشحونة بالحقائق والحكم الكثيرة التي لا يحيط بها سوى أهل بيت النبوة **عليه السلام** والتي تجلّى بعضها من كلماتهم فكان بحرًا متلاطمًا يقف الناظر على ساحله ليصيبه قطرات منه، ويستحصل الغائص فيه على لآلئ ثمينة وجواهر كريمة. كلٌّ بمقدار سعته.

ولما قمنا بتصفح كتاب بحار الأنوار الجامع لأخبار الأئمة الأبرار، المؤلف من ١١٠ مجلدًا، وقمنا برصد الأخبار المربوطة بأهل الكتاب من بين تلك المجلّدات، سنحت لنا الفرصة للوقوف على بعض تلك الحقائق في هذا الشأن، وصرنا إلى تزيين هذا الكتاب ببعض تلك الأخبار، لتزيد في اعتباره، ومما يؤسف له أن بعض الكتاب ترك السماع من أهل البيت **عليه السلام** وأصغى إلى مثل الكلبى واليعقوبى. ولم يكتف بذلك حتّى ادعى وضع تلك الأحاديث فأعرض عنها كلّ الإعراض.

ومهما يكن من أمر فإن الوقوف على حقيقة اليهود من خلال القرآن بحاجة إلى دراسة مستقلة، ولكن لا مناص من التعرّض إلى ما أبانه القرآن مما جرى على اليهود، لهدم تلك العقائد الفاسدة، والانتقاص من قوم ظالمين، وفضح جماعة المنافقين الذين نقضوا العهد وقتلوا سبعين نبيًا في يوم واحد وعادوا إلى مكاسبهم وكأن شيئًا لم يكن^(١).

يجب أن يقف العالم على حقيقة اليهود ويتعرّف على تاريخهم ويحيط بسننهم التي يعيدها التاريخ وتكرر بمرور الزمان كي ينجو من فتنتها.

ومن الملح والحكمة وجود الإشارة إلى اليهود في سورة الحمد، باعتبارهم المغضوب عليهم، وكذا جاء وصف رؤساء اليهود في سورة الجمعة وحذر من خطرهم ليبين سبب عداؤهم ويؤكد لزوم اليقظة والحذر على المسلمين كلّ أسبوع، وفي جميع العالم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ثم أبان القرآن العوامل النفسانية لهذه الخصلة الرديئة التي لا تنحصر آثارها بنفس المتصف بها، بل تشمل وتعم المجتمع والمجتمعات أيضاً، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ❀ وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^(٢)، وما ذلك العامل النفسي سوى الأنانية والاستكبار، حتى ادّعوا أنهم أولياء الله في الأرض، وذلك اعتماداً على موازين قومية وعرقية وليست دينية ولا اعتقادية، وهو أخطر ما يكون^(٣).

(١) الجمعة: ٥.

(٢) الجمعة: ٧٦ و٧٧.

(٣) جاء في البحار ١٨: ١٣، يهود قديماً وحديثاً: ١٤ و٧٠، الإسلام واليهودية: ٦٠٧ و٦٠٨، التاريخ اليهودي العام ١١٣: ٢-١٥٢.

جابه الرسول الأعظم ﷺ من اليهود أنواع الصعوبات وتحمل أنواع الأذى في سبيل تبليغ هذه المعارف الإلهية والأُمور الغيبية، وجاهد من أجل إثبات أحقيته وفي سبيل نشر الدين جهادًا مريّرًا. وهكذا نجده يبذل السلم لجميع اليهود الذين جاؤوا يسألونه، ويجادل المعترضين منهم على دينه بالتّي هي أحسن، ويستعمل أقصى الصبر والتّأني في مجال استعطافهم وهدايتهم، وهو يسعى دائبًا في دعوتهم إلى الإسلام، والمحافظة عليهم واستبقائهم في جواره يتعايش معهم معاشة سلمية.

ولكنهم لما أصروا على الخلاف ونقض العهد واستمروا بالإفساد وإثارة الفتن وصدّ الآخرين عن دخول الإسلام، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بأن يجليهم من منازلهم أوّل مرة، ولما لم ينفعهم هذا التحذير واستمروا على أعمالهم السابقة، أمره بجهادهم وقتالهم.

وأبرز من قاتل أولئك المعاندين وجالدهم في هذا الميدان وقام بحصد رؤسهم وإذلال أنوفهم، هو أمير المؤمنين علي عليه السلام. والحاصل أن معاملة اليهود مع الرسول في إدبارهم وإقبالهم على الدين، ومقابلته أو مساعدته، تعود إلى ثلاثة أركان:

أحدها: هو شخص النبي محمد ﷺ بعنوان الرسول الخاتم.

وثانيها: شخص أمير المؤمنين عليه السلام بعنوان وصي محمد ﷺ.

والثالث: كلام الله الذي تجلّى في القرآن وهو كتاب محمد ﷺ.

الفصل الثاني

منشأ اليهودية في بني إسرائيل واليهود
في جزيرة العرب

الكلام الأول:

منشأ اليهودية

قيل: إن كلمة يهود مأخوذة من «هُدْنَا»^(١)، من كلام موسى عليه السلام في القرآن، حينما قال لربه: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»^(٢)، لكن كلمة اليهود عبرية ولسان القرآن عربي، وهذا الفعل «هُدْنَا» مشتق من الهوادة بمعنى السكون أو من الهود بمعنى التوبة أو بصيغة المجهول من الهداية، فهي كلمة عربية^(٣).

بينما يذهب البعض إلى أن كلمة اليهود مأخوذة من يهوذا اسم دولة سليمان الجنوبية، التي مركزها أورشليم «القدس»، وهناك نظرية تذهب إلى أن كلمة اليهود مأخوذة من يهودا اسم أحد أولاد يعقوب عليه السلام، لأن رئاسة بني إسرائيل كانت في أبناء يهودا، ولكن لا يمكن قبول ذلك الكلام رأساً لأن الرئاسة الدينيّة كانت أولاً في سبط لاوي، فإن موسى وهارون من هذا السبط.

والرأي الرابع أن الانقسام الذي حصل في أتباع موسى يشابه

(١) الأعراف: ١٥٦.

(٢) عقل اليهود الأسير: ٩. البحث عن الحقيقة: ١١.

انقسام السنة في أتباع النبي محمد ﷺ، واليهودية منتسب باسم يهودا الذي هوّ اليهود، كما في الرواية^(١).

يمكننا أن نفهم من قوله «هوّد اليهود» في هذه الرواية أن اليهودية لم تكن قبل ذلك، وما كان اسم أتباع موسى «اليهود»، وإنما كان اسم من حرّفهم وأصلّهم هو «يهودا» فسمي أتباعه «اليهود»، أو لعلّه هو من سبط يهودا واليهودية في البداية نشأت في هذا السبط ثم انتشرت.

ولما انتشرت هذه الفرقة (أو السبط) وقويت، صارت الفرقة المحقّقة هي الأقلية، ودخلت دور التقيّة والتخفي بالمعتقد، فاستترت باسم اليهود، وصار اسمًا لجميع من آمن برسالة بموسى واعتقد بها، ولذا فإن اليهودية في الحقيقة فرع مبتدع وولد غير شرعي سرعان ما صار هو الأصل.

وقابل للذكر بأن السحرة الذين آمنوا بموسى قالوا: ربنا توفنا مسلمين^(٢).

ونجد أيضًا أن زبور داود النبي الذي نزل أربعمائة عام بعد موسى عليه السلام لم يطلق على بني إسرائيل اسم اليهود، بل يسميهم بني إسرائيل

(١) الخصال: ٣٩٩، ح ١٠٦، ثواب الأعمال: ٢١٦-... لسبع صناديق فيها خمسة من الأمم السالفة واثان من هذه الأمة. قال: قلت: جعلت فداك ومن الخمسة ومن الاثنان، قال: أما الخمسة: فقابيل الذي قتل هابيل ونمرود الذي حاج إبراهيم في ربه، حيث قال أنا أحبي وأميت، وفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، ويهودا الذي هوّد اليهود وبولس الذي نصر النصارى، ومن هذه الأمة أعرابيان. وكذا في قصص الأنبياء للجزائري: ١: ١٠٥ وروي مثله عن النبي ﷺ في كتاب سليم بن قيس: ١٦٢، والاحتجاج: ١: ١١٢، وفي البحار: ٣٠: ٤٠٥ عن علي عليه السلام. وفي بعضها: ستة من الأولين وستة من الآخرين....

(٢) الأعراف: ١٢٥، ١٢٦.

على الدوام^(١).

وهناك آيات في القرآن فيها دلالة أن دين موسى عليه السلام لم يكن اليهودية، بل كان على ملّة إبراهيم^(٢)^(٣)، فإن كلمة «الذين هادوا» في القرآن لا يعني حتماً بني إسرائيل، ويستفاد من التفسير أنها تتكلم عن زمان أسر اليهود في بابل وزمان كتابة التلمود.

وهناك آية أخرى في سورة المائدة: ٤٤ تبين بوضوح فصل اليهود عن دين موسى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٤).

ففي هذه الآية يذكر أن الأنبياء أسلموا، ومكان أن يقول للمسلمين قال للذين هادوا، وهذا يعني أن هؤلاء الأنبياء بعثوا حينما ظهرت في بني إسرائيل اليهودية وكانوا يحكمون بين اليهود بالتوراة.

مع العلم أن القرآن حينما يتحدث عن الوقائع والحوادث التي حدثت في زمان موسى لم يعبر عن أتباعه باليهود، وإنما جاء التعبير ببني إسرائيل فقط، وإذا جاء التعبير بكلمة «هادوا» فهي ترتبط بمن جاء بعد زمان موسى.

(١) يوجد نسخة قديمة لترجمة كتاب الزبور في مدرسة النمازي في مدينة خوي، عندي صورة منها كتبت في القرن الثالث الهجري لا يوجد بينها وبين النسخة المتداولة اليوم أي وجه للشبه. أنظر النسخ القديمة وتراجمها.

(٢) البقرة: ١٣٥ - ١٣٨.

(٣) النحل ١١٨، ولعله أشارت هذه الآية المكية إلى ما قصص على النبي في سورة الأنعام: ١٤٦.

(٤) المائدة: ٤٤.

ففي سورة البينة تصرّح بوضوح أنهم اختلفوا في دينهم وخرجوا من محدودة الحق: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ ﴿٢﴾ فهي تبين أيضاً أن دين موسى وعيسى الذي أمر به بنو إسرائيل هو دين إبراهيم الحنيفية.

وأضف على ذلك، فإن هناك دليلاً علمياً ومادياً؛ لأن الأسناد والوثائق التاريخية والنقوش الحجرية والفخارية التي تمّ كشفها، تدلّ على عدم وجود أي أثر لكلمة اليهود ولا لتسمية أتباع موسى بذلك قبل تقسيم ملك سليمان، وكل ما هو موجود فهو يرتبط بالدورة التي أعقبت سليمان ومن زمان الأسر فصاعداً.

فقد وجد على بعض النقوش التاريخية على الحجر حكاية هجوم سنحاريب على دولة يهودا وجاء فيها التعبير عن حزقيا بحزقيا اليهودي، وهذه الكلمة نسبة إلى مدينة يهودا التي تأسست بعد زمان سليمان عليه السلام ^(٢).

(١) البينة: ٤ - ٨. ولا يخفى أن تعبير أهل الكتاب شامل للمسلمين أيضاً.

(٢) العلاقات: ٣٧.

الكلام الثاني

بنو إسرائيل في جزيرة العرب

ينقسم الكلام حول تواجد بني إسرائيل في جزيرة العرب إلى عصرين، أحدهما من زمان يعقوب ويوسف الصديق، يعني ما يقارب ستمائة سنة قبل موسى عليه السلام والآخر من يوم خراب الهيكل والإسارة البابلية إلى زمان نفر اليهود من أطراف المدينة وخروجهم من جزيرة العرب على عهد عمر بن الخطاب، فقد وردت أخبار عن أهل البيت عليهم السلام تتحدث عن انتشار أبناء يعقوب (بني إسرائيل) ^(١).

وكما جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام فإن قبر يهودا الابن الأكبر ليعقوب في الكوفة في منطقة النخيلة، مما يحكي عن تواجد أبناء يعقوب في بلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة ^(٢).

وجاء في أحاديث أهل البيت أن عامة الأنبياء جاؤوا إلى البيت الحرام وحجّوا، وفي خصوص النبي موسى وداود وسليمان وردت

(١) البحار ١٣: ٣٩٤.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٦٥.

روايات خاصة، تدلّ على أنّهم حجّوا بصحبة جماعة من خواص بني إسرائيل^(١).

فإن رواية صاحب الأغاني حول مسير جيش النبي موسى كليم الله ﷺ إلى شمال جزيرة العرب ووادي القرى لتأديب العمالقة، تحكي عن أقدم زمان لنفوذ بني إسرائيل في جزيرة العرب^(٢).

صار هذا الكلام مستند كثير من الكتاب في هذا المجال، بينما يرى صاحب كتاب العلاقات أن هذه القصة من وضع اليهود، وتردد في صحتها، لعدم نقل فيلون ولا يوسفوس لها، ولعدم الإشارة إليها في كتاب التلمود^(٣).

ولا شك أن دولة النبي داود ﷺ لم تقتصر على فلسطين وتوسعت لتشمل خارجها أيضاً، والآخر ملك سليمان الذي أشار القرآن إليه وإلى قصة ملكة سبأ بلقيس وإيمانها به، ووجود القرابة بين بني إسحاق وبني إسماعيل، كل ذلك ساعد على هجرة بني إسرائيل وترددهم في أطراف الجزيرة، وكذا فإن هذا وأمثاله يجعل من ذلك أمراً معقولاً وقابلاً للتصديق.

(١) خلاصة الأخبار: السهمودي: ٩٥، فروع الكافي: ١: ٢٢٤ وفي البحار ١٣: ١١. "عن أبان عن زيد الشحام عن أبي جعفر ﷺ قال: حجّ موسى بن عمران ومعه سبعون نبياً من بني إسرائيل، خطم إبلهم من ليف يلبّون ويحيبهم الجبال... وفي الكافي، عن أحمد الأهوازي عن الإمام الصادق ﷺ وهو صلى في الحجر عند البيت، وقال: هذا موضع صلاة شبر وشبر ابني هارون النبي ﷺ".

(٢) الأغاني ٣: ١١٦؛ اليهود في الشرق الأوسط ص ٧٠.

(٣) العلاقات: ٩٧.

ولكن جغرافية التوراة تبين أن نفوذ بني إسرائيل إلى الجزيرة كان مزامناً لخروجهم من التيه، وبمقتضى النصوص التوراتية، فإن سبطين من أسباط بني إسرائيل الإثني عشر حينما خرجوا من التيه أعرضوا عن التوجّه إلى فلسطين وصاروا في طلب مراتع خضراء، فهاجروا إلى هذه المنطقة^(١).

وما نقل في التوراة بأن النبي سليمان عليه السلام أسس خطأ تجارياً بين فلسطين وجزيرة العرب فكان يشتري الذهب والفلزات الأخرى والأحجار الثمينة والأعشاب الطبية وينقلها إلى مركز حكومته^(٢).

وأشرنا بأن دولة سبأ في بعض نواحي اليمن صارت تحت نفوذ النبي سليمان عليه السلام وبعده ابنه ارجعم، ثم تسلط عليها حمير حتى وصلت النبوة إلى تبع والتبابعة^(٣).

وفي خبر أن جبرئيل عليه السلام نزل على النبي فقال: يا محمد ألا أبشرك بخبيئة لذريتك؟ فحدثه بشأن التوراة وقد وجدها رهط من أهل اليمن بين حجرين أسودين وسماهم له فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال لهم: كنتم كما أتم حتى أخبركم بأسمائكم وأسماء آبائكم وأنكم

(١) جغرافية التوراة: ١٧٨-١٨٣: كما يرد في سفر العدد: ٣٢: ١-٥، نباشر بحثنا عن موطن جاد وأوبين باستشارة سفر العدد ٢٦: ٥-١١ ويقول سفر التكوين ٤٦: ١٦ أن جاد أي الجد الأعلى للسبط، خلف كلاً من صفون، وهو اسم القبائل نفسها «آل صفوان» و«بنو صفوان» و«الصفيان» الحجازية. وفي العلاقات: ٦٨ وقيل إن اقدم إشارة وردت للعرب في التوراة هي ذكر قصة سيدنا يوسف وبيع أخوته له إلى تجار من الإسماعيليين.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ١٩٢.

(٣) جاء في كتاب تاريخ اليمن القديم: ١٦٤، أن حكومة التبابعة كانت إبتداء من القرن الخامس الميلادي، ولذا فإن تسلط اليهود على اليمن كان بعد هذا التاريخ.

وجدتم التوراة وقد جئتم بها معكم، فدفعوها له وأسلموا فوضعها النبي ﷺ عند رأسه ثم دعا الله باسمه فأصبحت عربية ففتحها ونظر فيها ثم دفعها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وقال هذا ذكر لك ولذريتك من بعدي^(١).

وما يليق أن نتذكر أن يهود اليمن قد دخل في الصلح مع النبي ﷺ عقيب مصالحة النصارى بعد قضية المباهلة^(٢).



(١) بحار الأنوار ٤٠: ١٧٠؛ أمالي الشيخ الطوسي: ١٧٨؛ وفي بصائر الدرجات: ١٦١ هذه أمانات من يوشع وصي موسى، وكذا في المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٢٥١.

(٢) اليمن في صدر الإسلام: ١٨٧.

الكلام الثالث

تواجد اليهود في مكة المكرمة

جاء في الكتاب المقدس في صحيفة أخبار الأيام أن أوّل المهاجرين إلى البلاد العربيّة هم بطون بني شمعون، حيث ذهبوا إلى طور سيناء، فنزلوا فيها على بطون معون واختلطوا معهم حتّى قوت شوكتهم وغلبوا عليهم.

وذكر المستشرق دوزي في كتابه بنو إسرائيل في مكة أن بني شمعون توجّهوا إلى مكة قبل زمان داود الملك، يعني ألف سنة قبل الميلاد تقريباً ولكن يرى البعض أن هذه الهجرة كانت في زمان الملك حزقيا الذي كان حاكماً ليهودا بين عام ٧١٧ ق.م إلى ٦٩٠ ق.م يعني سبعمائة سنة قبل الميلاد^(١).

ولم ينقل المؤرخون أخباراً موثقة حول تواجد اليهود في مكّة بشكل دائم ومستمر كالذي نقلوه عن تواجدهم الدائم في يثرب، ويرى المحقّقون في ذلك دليلاً على أن اليهود لم يسكنوا مكّة بشكل طائفة أو قبيلة مستقلة، ولذا تردد ولفنسون في وجود حي من اليهود

(١) العلاقات: ١٠٢، ١٠٣.

الساكن في مكة^(١).

ومع كل ذلك فإن مكة لم تخلو من اليهود، وكان أهم ما يحفزهم لاختيارها المكانة التجارية التي تحظى بها وسيول الزائرين التي كانت تقصدها في أوقات مختلفة من السنة يصاحبها حركة اقتصادية عظيمة، لليهود منها نصيب ملحوظ، حتى نقلوا أن اليهود كانوا يقيمون سوقاً خاصاً بهم وباسمهم ليكون لهم الامتياز الأكبر في ذلك المكان التجاري^(٢).

بعدما اطلعنا على جانب من كلام المحققين في هذا المجال نلفت أنظاركم إلى عدة أخبار تحكي عن تواجد اليهود في مكة.

منها: الأخبار الواردة في محاولة اليهود لقتل عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ.

ومنها: خبر تدبيرهم لقتل الرسول حين ولادته بواسطة امرأة يهودية دبّر ذلك كبار اليهود ونقلوا ذلك في كتب السيرة^(٣).

وجاء التصريح باسم يوسف اليهودي، بعنوان أنه خبر من أخبار اليهود الساكن بمكة، لاحظ ليلة ولادة النبي ﷺ توالي الشهب وكان يرى أنها علامة على حدث هام جداً. فهذه الأخبار تدل على تواجد اليهود في مكة.

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٩٤؛ العلاقات: ١١١.

(٢) العلاقات: ١١١.

(٣) تقدم الكلام في ذلك في بحث عداة اليهود لأجداد النبي ﷺ.

وكذا خبر رجوع خديجة زوجة الرسول ﷺ إلى حبر يهودي باسم يوسف وذكرت له أحوال الرسول الكريم أيام البعثة، يحكي عن سكنى عالم يهودي بمكة، ولعلّه نفس يوسف المذكور في الخبر السابق، على الرغم من فصل ٤٠ عامًا بين القصّتين.

وجاء في كتب المغازي ذكر عبد يهودي باسم عبد الدار بن حبر (جبر) وأنه بعدما سمع سورة يوسف من الرسول ﷺ دخل مكة وصار في ضمان رسول الله ﷺ^(١).

ونحن نعتقد بأن احترام الحرم ومناسك الحج من موروثات إبراهيم الخليل عليه السلام^(٢) وحج اليهود في السابق حجًا إبراهيميًا علامة على وجود أواصر تربط بين أهل الكتاب وأهل مكة، وقد تعرّض في كتاب تاريخ الكعبة إلى حجّ اليهود^(٣).

ورغم كل تلك الأوصاف يبقى في النفس هذا السؤال، هل كان في مكة يهودي يعيش مع القرشيين بسلام أم لا؟ وأنّ علم قريش بأخبار الأمم السابقة وخصوصًا بني إسرائيل هل كان عن طريق أهل الكتاب ومعاشرتهم، فنذعن بقضية تواجدهم في مكة؟

وللحصول على هذا الجواب وكشف القناع عن هذه الحقيقة ناسب الرجوع إلى القرآن المجيد وملاحظة السور والآيات المكيّة.

(١) العلاقات: ١١١؛ تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٠٦.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٩٦.

(٣) تاريخ الكعبة: ١١٠.

ففي القرآن نجد أن أكثر الآيات التي تتكلم عن بني إسرائيل نزلت في مكة مما يحكي عن وجود أرضية لبيان تلك القصص، ومن المحتمل جداً أن يكون المخاطب الأول بها هم أهل الكتاب أنفسهم، والأغلب هم اليهود^(١)، الذين كانت لهم روابط حسنة مع المكّيين.

الآيات القرآنية الدالة على وجود اليهود في مكة:

بناء على ما بيّنه المفسرون أن بعض الآيات وحتى بعض السور جاء جواباً على أسئلة اليهود من الرسول ﷺ ومع الالتفات إلى كونها سور مكّية فإن تواجدهم في مكة مما لا يمكن إنكاره، بالإضافة إلى أن بعض الآيات عبّرت بـ **(يا أهل الكتاب) و(يا بني إسرائيل)** مما يدلّ بوضوح على تواجد اليهود في مكة.

وفي ظل هذا العنوان نلقي نظرة عابرة على آيات السور المكّية المشعرة بوجود أهل الكتاب واليهود في مكة المكرمة.

قال تعالى في سورة المدثر ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

فإن الكلام عن أهل الكتاب في أول البعثة عند نزول آيات رابع سورة من القرآن ليس إلا أن أهل الكتاب كانوا موجودين في مكة، وهذا يدلّ على تواجدهم هناك.

(١) من المتفق عليه أن النصارى كانوا في مكة قليلين جداً. وأكثر أهل الكتاب هم اليهود.

وسورة الإخلاص، قيل: جاءت جواباً على يهودي طلب من الرسول ﷺ أن يصف ربّه (١).

وفي سورة الأعراف بعد الشروع في بيان قصة موسى ﷺ يستمر إلى سبعين آية، يفصل قصة رسالته ولقائه بفرعون، ويستمرّ إلى حديث الميقات بالتفصيل المذكور (٢).

ففي هذه الآيات تتجلى مخاطبة أهل مكة بما فيهم اليهود بشكل واضح.

وفي الآية ١٨٧ من هذه السورة جواب على جماعة اليهود الذين سألوا الرسول ﷺ في مكة عن القيامة، فهو دليل على تواجدهم فيها. وفي سورة طه من آية ٩ إلى آية ٩٩ يعني تسعين آية، حول قصّة موسى وبني إسرائيل بتفصيل أكثر من سابقه، نجد خطاب يا بني إسرائيل من لسان الرسول ولا يمكن عدّه من كلام موسى، لأنه لا يتمّ له معنى، وبذلك يكون هذا الخطاب من النبيّ دليل على أن مخاطبي الرسول ﷺ هم أهل الكتاب الموجودين في مكة.

وفي سورة النمل بعد بيان قصص بعض الأنبياء العظام يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

(١) البحار ٣: ٣٢٥، التوحيد: ابن الوليد عن محمد العطار عن الأشعري عن الميثمي عن صفوان بن يحيى عن أبي أيوب عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله ﷺ قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا إنسب لنا ربك، فلبث ثلاثاً لا يجيبهم، ثم نزلت هذه السورة إلى آخرها؛ فقلت: ما الصمد؟ فقال الذي ليس بمجوف.

(٢) سورة الأعراف ١٥٥ إلى ١٥٩.

وَأَنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ هذه القصص كانت تقرأ على طائفة من بني إسرائيل، نعم فإن اليهود كانوا في مكة وقد جابهوا الرسول، لأن النصارى في مكة كانوا قليلين جداً.

وفي سورة القصص التي تبدأ ببيان قصة موسى عليه السلام وفرعون، هناك قرائن كثيرة دالة على أن الكلام مع أهل الكتاب ولم تُستثن هذه الآيات من الآيات المكية، وفي الآيات ٤٧-٥١: يطلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً ككتاب موسى، ونحن نعلم أن قريشاً الوثنيين لم يكونوا مطالبين بكتاب ككتاب موسى، ولذا فمن المحتمل قوياً أن الكلام عن أهل الكتاب.

وفي سورة الإسراء: قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ...﴾**، فإن كلمة فاسئل تشعر بوجود عالم من علماء بني إسرائيل حاضر في مكة يمكن السؤال منه إلا أن يثبت كون الآية مديّة.

وفي سورة يونس: **﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ...﴾**.

فمن الواضح أن الرسول لم يك في شك مما أنزل إليه ولم يك من الممترين ولكن الله أراد أن يبين أن أهل الكتاب ليعلمون أن القرآن منزل من عند الله، وأن المكذّبين والممترين هم الخاسرون حقاً، فإن بيان قصّة موسى وبني إسرائيل في هذه السورة (الآيات ٧٥-٩٣) وخطاب

فاسأل في هذه الآية (٩٤) لدليل على أن المخاطب بهذه الآية هم أهل الكتاب، وأنهم كانوا يتواجدون في مكة.

وفي سورة الأنعام نزل في مقام الإجابة على المستهزئين من الكفار الذين يقولون إذا كان محمد صادقاً لنزل عليه قرطاس مكتوب من السماء، فهذه الآيات: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٤﴾.

دلت على أن أهل الكتاب كانوا يستهزئون بالرسول والدين الجديد، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون آبائهم وأيقنوا أنه رسول الله ﷺ ومع ذلك لم يؤمنوا به وكانوا يفترون على الله وصاروا من جملة الخاسرين، ومن الواضح أن هذا الكلام دليل على تواجدهم في مكة. وكذا هذه الآيات:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ...﴾.

من قوله تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا...﴾ يعلم أن المخاطب بالقرآن هم أهل الكتاب وهم الذين استكبروا وأنكروا الرسالة، وتخفون كثيرًا من الآيات.

وكذا الآيات التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا
مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا
قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

يبدو أن نزول هذه الآيات إذا كان قبل الهجرة فمن عساه يكون المخاطب بها؟ ليسوا هم المسلمون كما هو واضح، لأنهم لم يفرقوا بعد، ونحن نعلم أنه لم يكن بين عبدة الأصنام فرق ولم يكن بينهم تحزب ديني يستحق الذكر ولا محيص عن كون الخطاب لأهل الكتاب، وإنما أراد الله سبحانه العتاب على تفرقهم واختلافهم.

وجاء التعبير في هذه السورة عن اليهود بـ«الذين هادوا» وهذه أول مرة يجيء فيها التعبير بذلك عنهم في السور المكيّة، ومن الواضح فإن المراد أولئك الذين جاؤوا بعد موسى وأدخلوا في دينه البدع: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾
﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولعلّ المخاطبين كانوا من

أهل الكتاب.

وفي سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا...﴾.

الآيات أعلاه تتكلم عن إيمان أهل الكتاب وتأمر بجدهم بالتي هي أحسن مما يدل على ابتلاء الرسول الشديد بهم، فإذا كانت هذه الآيات قد نزلت في مكة فهي تعطي تواجدهم في مكة، وأنهم كانوا يجادلون الرسول وينظرونه. وغير هذه الآيات تركنا ذكرها اختصاراً.



الكلام الرابع

اليهود في يثرب وأطرافها

يثرب

تقع مدينة يثرب على خط القوافل التجارية بين الشام والبلاد العربية واليمن^(١)، وجاء ذكر يثرب في كتيبه التي كتبها بأمر من نبوخذ نصر البابلي، ويرجع تاريخ ذلك إلى ٥٥١ ق.م، فهو أقدم من تاريخ بطليموس الجغرافي الذي ذكرها أيضاً، ولكن ليس هناك أقدم من التوراة الذي عبر عنها بطيبة وأسماء أخر^(٢). أكثر من أربعين اسماً.

قيل إن تعدد القرى التي يسكنها اليهود أطراف المدينة لأجل ما جاء من المدح والتعريف بمدينة آخر الأنبياء والإخبار بهجرته إليها، وصار كل واحد من اليهود يسكن هذا الصقع بأمل أن يدرك زمان ذلك النبي العظيم^(٣).

(١) العلاقات: ١١٢، ١٧٩.

(٢) العلاقات: ١١٢، والعنصرية اليهودية ج ٢ ص ٣١. سيرة النبي، شيخ علاء الدين: ص ١٠١.

(٣) العنصرية اليهودية ٢: ٤٦.

وقالوا: إن أول من سكن يثرب هو يثرب بن قانية (قابيد، قاين) بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن (إرم بن) سام بن نوح، وقد أخذ اسم يثرب من اسمه^(١).

ثم غزاها قوم من العماليق فأخرجوهم عن منازلهم، ثم لجأ إليها اليهود وغلبوا عليها بالتدريج، حتى ورد لها الأوس والخزرج سنة ٤٥٠ م. ويعود تواجد الأوس فيها إلى أقل من قرنين قبل الإسلام، ولكن حلول اليهود فيها ينيف على أربعة قرون قبل الإسلام.

هجرة بنى إسرائيل واليهود إلى يثرب

هناك آراء مختلفة حول بدايات هجرة بنى إسرائيل إلى هذا الصقع، أشرنا إلى طائفة منها في السابق، فمن المسلم أنهم لم يدخلوها دفعة، والمروي أن موسى كليم الله جاء حاجاً إلى مكة، ثم مرَّ على يثرب في طريق عودته، ودخلها متخفياً خوفاً من المنافقين والعيون، وعرفها أنها محلّ هجرة نبيّ آخر الزمان، وتوفي هناك أخوه هارون، فدفنه موسى في ذلك المكان، ولذلك أشار موسى عليه السلام على جماعة من بنى إسرائيل بالسكنى فيها، فجاؤوا وأقاموا في البقعة التي تعرف اليوم بسوق بني قينقاع^(٢)، وفي هذا السفر آمن به جماعة من العرب^(٣).

(١) العلاقات: ١١٢ عن المسعودي وابن خلدون.

(٢) العلاقات: ١١٤، تاريخ المدينة: ١٨، خلاصة الوفاء للسمهودي: ٩٥، الأغاني ١١: ٩٤، اليهود في الشرق الأوسط: ٧٠.

(٣) وقيل: هذا ما تأسس دين موسى عليه السلام في منطقة الحجاز بواسطة العرب.

وقيل: إنه في زمان يوشع وصيّ موسى هاجر جماعة من بني إسرائيل أيضًا إلى هذه المنطقة^(١).

ويستفاد من بعض كلمات المؤرخين أن هجرة بني إسرائيل إلى الجزيرة ومنها يثرب، كانت من يوم هجوم بخت نصر الأول، يعني ستة قرون قبل الميلاد^(٢).

واختلف المحققون في يهود يثرب هل هم من العرب الذي تهودوا وصاروا يعرفون باسم أماكنهم أو هم من يهود فلسطين^(٣).

في رواية ابن إسحاق أن يهود المدينة ينتمون إلى رجل باسم خزرج يرجع نسبه إلى داود عليه السلام، وذكر في كتاب العنصرية اليهودية أدلة وقرائن على أن بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة لم يكونوا من العرب بل هم من بني إسرائيل، نحيل القارئ إلى ذلك الكتاب^(٤).

وكما ذكرنا في البحث القرآني أن خطاب يا بني إسرائيل قد تكرر في القرآن، وفي الغالب هو خطاب للحاضرين، فلا شك في تواجد بني إسرائيل في مكة والمدينة وحواليها، ويحتمل وجود نسل هارون النبي فيها.

ويستفاد من كلام رسول الله ﷺ مع صفية بنت حيي بن

(١) العنصرية اليهودية ٢: ٢٨.

(٢) العلاقات: ١٠٣.

(٣) العلاقات: ١١٦، تاريخ اليهودي ٢: ٤٩، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٢٧.

(٤) العنصرية اليهودية ٢: ٢٤، ٣٢. وسيرته ابن هشام: ١: ٣١.

أخطب اليهودي، أن هذا البيت من نسل هارون^(١).

ويمكن أن يكون قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إني لا أفرق بين بني إسماعيل وبني إسحاق»^(٢)، شاهداً على وجود بني إسحاق بين بني إسماعيل، وكذا قيل: إن بني قينقاع من نسل يوسف عليه السلام وأن بني النضير وبني قريظة من نسل هارون^(٣).

وكانت هذه الطوائف اليهودية الثلاث يدعون أنهم من بني إسرائيل ومن نسل هارون وداود، ومع الالتفات إلى ما سطرناه في هذا المبحث وما قبله وكلام مؤلف جغرافية التوراة لا يبقى أقل شك أن هذه المنطقة هي محل سكونة طوائف من بني إسرائيل واليهود^(٤).

يهود تيما ووادي القرى

إن وادي القرى منطقة واسعة على السفح الأخضر بين المدينة والشام، فيه مجتمعات مصغرة من اليهود، يعيشون في قرى متقاربة، ويقال: إن السكان الأوائل لوادي القرى هو قوم صالح عليه السلام كلهم من العرب، هم أول من زاول التجارة^(٥).

(١) لما اشتكت صفية من بعض نساء النبي ﷺ سليلهما من جدّها ومن عمّها وأما أنت جدك هارون وعمك موسى تفسير القمي ٢: ٣٢١، إمتاع الإسماع ١: ٣٢١، المغازي ج ١ ص ١٣٧ وج ٢: ٧٥.

(٢) الصحيح من السيرة للسيد مرتضى ج ٤ ص ١٨ وج ٣ ص ٣٤٣.

(٣) العلاقات: ١١٨.

(٤) جغرافية التوراة: ١٧٥ انظر الفصل الثامن فإنه يغنينا عن تطويل الكلام في ذلك.

(٥) تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف.

بينما تيمنا تفصل أكثر من وادي القرى عن المدينة، واليهود هم أقدم من سكنها. وقال صاحب العلاقات: من المراكز التي استوطنتها اليهود في بلاد الحجاز تيمنا وهي مركز مهم ولها تاريخ عريق ويدل على أهميتها أن الملك نبونيد اتخذها عاصمة له في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وقد ورد ذكر هذا البلد في نصوص الآشوريين كما ذكرت في التوراة^(١).

فدك وخيبر والطائف ومقنا وجربا من المناطق التي استوطن اليهود فيها، وبعضها اشتهرت بمياهها ونخيلها وكانت تمر منها القوافل التجارية.

الطوائف الأصلية لليهود الحجاز

وقيل إن جماعة من يهود يثرب كانوا باسم بنيفطيون، ظلوا إلى زمان الرسول، أخرجهم الرسول ﷺ من المدينة في السنة الثالثة للهجرة، وقال ابن دريد: أنه كان في شهداء بدر عدة أشخاص من بني فطيون، ويقال إن بعضهم صار رئيساً وسمي ملكاً، وكلمة فطيون هي لقب الرئيس والملك، مثل كلمة النجاشي وقيصر، التي تطلق على الرؤساء في بعض البلاد^(٢).

وهناك روايات إسلامية سوى هذه الأخبار يمكن التعرف من خلالها على بعض طوائف اليهود، مثل: بني النضير، وبني قريظة، وبني قينقاع، وبني عكرمة، وبني محمر، وبني زعورا، وبني زيد، وبني شظية،

(١) العلاقات: ١١٤.

(٢) من زمرة شهداء الإسلام لم يذكر من هذه الطائفة شهيداً. (كتاب شهداء إسلام در عصر پیامبر ترجمه آیتی)

وبني جشم، وبني بهدل، وبني عوف، وبني القصيص (العصيص)، وبني ثعلبة، وتلك الطوائف لم يكونوا بدوًا، بل هم سكان أطراف المدينة الدائمين، ولهم حرفهم وأعمالهم وإمكاناتهم وأمواهم، وكان يعرف بنو النضير وبنو قريظة بالكاهنين من بين اليهود، ولعل هذه نسبة إلى جدّهم الذي كان يعرف بالكاهن، أو كان لهم سابقة في الكهانة والسيادة بين اليهود، أو لأنهم من نسل هارون فيكون كاهن بمعنى النبي^(١).

ويقال: إن يهود هذه المنطقة وإن كانت لهم اختيارهم وذاتيتهم، ولكنهم كانوا برعاية حاكم أو ملك من قبل الدول العظمى، أو كانت تلك الدول تحميهم وبينهم معاهدات.

والنتيجة أنه كان في المنطقة أعداد يعتنى بها من اليهود من بني إسرائيل ومن العرب وغير العرب، يشكّل اجتماعهم فيها قدرة تصعب مواجهتها.

ثقافة اليهود في المدينة

خضع اليهود في يثرب للنظام السياسي والاجتماعي السائد عند الأوس والخزرج، وكانوا يدفعون لهم الضرائب من مواردهم الزراعية.

ولكن ثقافة اليهود كانت تتميز بحسب نظرهم عن ثقافة العرب ويعيشون بطريقة متميزة، كانوا ينظرون إلى العرب كأُميين ويرون أنفسهم أهل كتاب وأصحاب دين سماوي، ويجدون أنفسهم بمرتبة أعلى من حيث الثقافة والعلم، وكانوا يحتفظون ببعض أخلاقهم

الاجتماعية الخاصة بهم، خصوصاً ما ينسجم مع ديانتهم، وكذا لغتهم فإنهم وإن كانوا يعيشون بين العرب ويتكلمون بالعربية ولكنهم يتكلمون فيما بينهم بالعبرية ويمارسون طقوسهم الدينية بالعبرية كعلامة على حفظ استقلالهم وكيانهم^(١). فليس عند اليهود دافع لتبليغ اليهودية ونشرها، بل كانوا لا يستقبلون من يريد اعتناق اليهودية، ولكن العرب كانوا يحترمون اليهود ويرونهم أهل كتاب وعندهم علوم الأولين، ولم يكونوا يعرفون خيانتهم وجنایاتهم وخبث باطنهم حتى كشف عن ذلك القرآن وأزال الستار عن فضائحهم، ولذلك كانوا قبل الإسلام يتمتعون بالاعتزاز الديني، وعبادة الله بين العرب لعدة قرون بدون وجود مساعٍ للسلطة والنفوذ بين العرب.

كانت روابط يهود المدينة مع يهود الشام وفلسطين ضعيفة جداً، ولم يكن بين يهود المدينة مع سائر اليهود أي تبادل ثقافي وإعلامي، وبذلك استطاعوا وإلى حد ما أن يتعايشوا مع العرب ويسايرونهم ولعل هذا هو السبب لعدم وصول مدد وحماية من خارج الجزيرة بشكل ملحوظ، مما أدّى إلى تشديد استسلامهم وتسالمهم مع العرب.

كما ولم يكن لليهود هذه المنطقة من الناحية العلمية والثقافية أي فعالية تبليغية وعلمية ملحوظة فليس ثمة كتاب ولا مؤلف ولم يشهد لهم مبادرة علمية، فكان أكثر المهاجرين الأوائل من طبقة العمال والفلاحين والرعاة الذين خرجوا من الشام وراء العشب والكلاء ولما

(١) جاء في خبر قتل أبي الحقيق أن عبد الله بن عتيك تكلم مع زوجة أبي الحقيق بالعبرية بلسان اليهود فاطمأنت له.

وصلوا إلى بعض النواحي الآمنة استقروا فيها.

هذا وقد جاء في رواياتنا أخبار كثيرة عن هذه الطوائف اليهودية الثلاث^(١).

يظهر من الآيات القرآنية أن يهود المنطقة كانوا متأثرين بتعاليم التلمود، فالآية الشريفة التي تنقل كلام اليهود: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فهو بعينه مآثرة التلمود.

لم يهتم اليهود بإنشاد الشعر، ولم يظهر منهم سوى عدة شعراء كالسموأل، شريح بن عمران، وكعب بن أشرف، وكنانة بن أبي الحقيق، وربيع بن أبي الحقيق^(٣).

وقال ولفنسون: إن الاعتقاد بالنسيء كان سائداً بين اليهود، ويقال إن هذه الفكرة سرت من اليهود إلى العرب، وذلك لأن كبس الشهور كان يعمل بواسطة اليهود، نسب ذلك إلى البيروني والمقرئزي وأبي معشر البلخي^(٤).

ونحن نعلم مع ظهور الإسلام وبيان حرمة النسيء تبدلت ثقافة

(١) بحار الأنوار ٩٠: ٦٩.

(٢) آل عمران: ٧٥.

(٣) العلاقات: ١٨٦، السؤال بن عادي هو الجد الأمي لصفية بنت حيي بن أخطب، وأخطب ابن شعبة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن تخوم من بني إسرائيل ومن سبط هارون بن عمران (عن ابن هشام عن ابن عبد البر).

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٩٨.

المدينة، وكان المسيح يكفرون اليهود لأجل ذلك^(١)، وهو أحد محاور صراع الإسلام مع اليهود حيث يقولها بالصرامة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢).

ومن الناحية الأمنية فإن اليهود كانوا يتحصنون بالقللاع التي بنوها على المرتفعات والقلل وكان اسمها الآطام، وكانوا يدخرون فيها ما يحتاجونه لعدة أشهر، كما كانوا يخبئون فيها ثمار مزارعهم، وكنوزهم وذخائرهم، ويحفظونها فيها، وأهم تلك القلاع هي قلعة الأبلق كانت للسموأل وقلعة قموص لأبناء ابن أبي الحقيق.

وأما من الناحية الاقتصادية فقد كان اليهود يبذلون جهوداً كثيرة في المشاغل الصعبة كالحرث والسقي والزراعة والعمل في البساتين والنخيل وجمع المحاصيل والحفاظ عليها من اللصوص والغارات، وكذا اتخاذ بعض الصناعات فقد صاروا أصحاب أموال وثروة، والنتيجة أن اليهود كانوا من الناحية الاقتصادية في خدمة العرب ويقوم العرب بتأمين الأمن لهم وحفظ منافعهم.

ومن أهم أعمال اليهود بعد الزراعة هي التجارة، فكانوا يترددون بين اليمن والمدينة والشام واليونان، فكان طريق الحجاز من مكة إلى يثرب وديدان (علا)، ثم إلى حجر (مدائن صالح)، وإلى تيماء وتبوك والبراء، ثم إلى الشام^(٣)، وكان في المدينة بعض التجار الأغنياء مثل أبي

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٩٨.

(٢) التوبة: ٣٧.

(٣) اليهود في الشرق الأوسط: ٦٢.

رافع الخيبري اليهودي.

وأما من الناحية السياسية فإن ابن إسحاق ذكر أن اليهود كانوا هم الحاكمون قبل مجيء الأوس والخزرج إلى المدينة، وكانت كلمتهم هي المسموعة وصاروا يتجاوزون حتى على الوثنيين العرب^(١).

ولكن استفتاح اليهود وانتظارهم نبي آخر الزمان على أمل الانتقام به من العرب، قد يلفت أنظارنا إلى سلطة العرب على اليهود أو أن ظهور الإسلام، وأنه كان يلحقهم من هذه الناحية بعض الأذى والضرر، ولذلك كانوا يقولون للعرب الوثنيين: «سيعث نبي ونحن ستابعه ونقتلكم عليه قتل عاد وثمود»، فليس من المستبعد أن يكون هذا التحول في القدرة السياسية حدث بعد سقوط حكومة الحميريين لليهود في اليمن (٥٣٠ م)^(٢). ولكن اليهود لم يبلغوا ما أملوا بعد بعثة ذلك الموعود المسعود، لأن العرب الوثنيين سبقوهم إلى الإيمان به، بينما كفر اليهود به.

علمنا أنه كان هناك أحلاف بين الطوائف اليهودية الثلاث وبين قبيلتي الأوس والخزرج العظيمتين في المدينة، فكان هناك تحالف بين طائفة من اليهود مع الأوس، وطائفة أخرى مع الخزرج، وقد بينا أن

(١) العلاقات: ١٥٤ و ٢٣٧، جاء في الروايات التاريخية أن مالك بن عجلان كان من الخزرج وسيّد قومه، وكانت السلطة في زمانه بيد اليهود وكان هناك رجل باسم فطيون من يهود بني ثعلبة هو الرئيس، وكان شديداً على الناس.

(٢) سيرة ابن إسحاق: ٨٤، سيرة ابن هشام ١: ٢٠٠، العلاقات: ١٥٦، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٧٩، العنصرية اليهودية ٢: ٤٦، وجاء في تفسير الإمام العسكري: ٣٩٤: قبل بعثة النبي بعشر سنوات حدث معركة بين اليهود ومشركي المدينة واستفتح اليهود فيها.

هناك تحالفًا بين الخزرج وبين بني قينقاع، وبين بني النضير وبين قريظة مع الأوس، وكأن هذه التحالفات لم تكن دائمة، بل هي قابلة للفسخ والتغيير والاستئناف، ترتبط بوفاء الطرف المقابل، ولذا أطلق الأوس على اليهود في معركة بعاث عنوان الثعالب، وهو دليل تفرق الجماعات اليهودية في يثرب وتشتتهم في علاقاتهم.



الفصل الثالث

خلفيات اليهود وموقفهم مع الرسول الخاتم

نريد أن نستقصي البحث في حقائق خطيرة مثل وقوف اليهود على حقانيّة الرسول ﷺ ومعرفتهم به من جميع الجهات، وحتى من قبل ولادته، وأنهم بشّروا به، وعرفوا جميع أوصافه، ولكنهم مع كل ذلك صار أكثرهم من الّدّ أعدائه، وتعددت الروابط بينهم وبينه إلى أبعد الحدود، ثم نعطف الكلام على نوع تعاملهم مع الرسول بصورة عامّة، والإشارة إلى بعض جزئياته وظرائفه، فكانت حصيلة عملهم أنهم وقفوا بوجه مصلح عالمي يعلمون منه ذلك جيداً.

الكلام الأول

معرفة اليهود برسول الله

تقرّر أن يكون ظهور الأنبياء بهذا الترتيب، أولهم آدم عليه السلام وآخرهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، والباقي بين ذلك، ويكون خاتمهم هو أعظمهم وأكرمهم على الله، هذا الدرس الذي علّمه أنبياء بني إسرائيل أتباعهم، ولا يزال ذكر الرسول والأئمة الأطهار عليهم السلام في كتب السابقين أوثق دليل على اشتهار هؤلاء من اليوم الأول للخلق، وعلى مرّ التاريخ قبل أن يولدوا وتطأ أقدامهم الأرض، فإن اليهود وعدوا بمجيء الرسول وصاروا ينتظرون ظهوره.

والقرآن الذي هو الكتاب الذي أنزل لهداية البشر على مرّ القرون وفيه ذكر أحوال الماضين، يخبرنا عن التبشير بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أسفار أهل الكتاب باسمه، ووصفه إلى حدّ أن علماء اليهود والنصارى إذا وجدوها في تلك الكتب، عرفوه بأنه آخر مبعوث وإن لم تره عيونهم، وذلك لأن معرفة النبي وأوصيائه كان فرضاً عليهم وواجبة، وقد تيسّرت السبل إلى معرفته للجميع، فكان تعريفه وتعريف أوصيائه من كلّ ناحية، وجرى اسمه وذكره على جميع الألسنة.

نشير في هذا الموضع إلى بعض الآيات:

الآية الأولى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

الثانية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

الثالثة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

الرابعة: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٤).

الخامسة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) الأنعام: ٢٠.

(٣) الأحقاف: ١٠.

(٤) يونس: ٩٤.

كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ (آية الاستفتاح) (٢).

السادسة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣).

إن معرفة الرسول بمقتضى ما جاءت به الكتب السماوية كانت واضحة إلى أقصى الحدود ومن جميع الجوانب بحيث أن القرآن يشبه هذه المعرفة بمعرفة الأب والأم لأبنائهما: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، ويؤكد إنه قد نزل هذا الكلام مرتين، مرة بمكة وأخرى بالمدينة، لأنه كلام ينطوي رغم قصره على معان عميقة وواسعة جدًا.

ولذا نجد أن اليهود الذين أسلموا كانوا يقرّون بأنهم كانوا عالمين بظهوره، وكلمة «مسيحا»، «شيلوخا» و«ابن الإنسان»..... في التوراة وباقي الكتب السماوية تعني عندهم خاتم المرسلين (٤).

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) طبقاً لكلام صاحب كتاب إقامة الشهود فهي بمعنى أن كتب الأنبياء إذا فسّرت على حقيقتها وتبين المراد منها، وقرأنها حسب ما تقتضيه القرائن، نتعرف من خلالها على الرسول الخاتم وأهل بيته وحتمية ظهوره ونجد فيها حتى مثل البشارة بظهور الحجة (عليه السلام).

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) راجع محمد في الكتاب المقدس لعبد الأحد داود.

معرفة الرسول بالاسم

اسم محمد

هذا الاسم مذكور في التوراة السريانية بصراحة بلفظ المنحَمَّا بمعنى محمد، فإن ما يقابله بالعبرية هو طاب طاب، وقيل: ترجمة كلمة مود مود وماد ماد، وقيل: هو اسم النبي محمد بمقدار مطاوعة ألسنة اليهود^(١).

والمذكور في قصة إسلام عبد الله بن سلام أن رسول الله ﷺ قال له: يا بن سلام أما قرأت في التوراة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...﴾^(٢).

وجاء فيما كتبه رسول الله إلى أهل خيبر: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه، المصدق لما جاء به، ألا إن الله قال لكم يا معشر أهل التوراة لتجدون ذلك في كتابكم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

(١) أسماء الرسول المصطفى، عباس تبريزيان ٢: ٥٠٣. الأحاديث القدسية ج ٢ ص ١٧٩.

(٢) الفتح: ٢٩.

سُجَّدًا....، الآية، وإني أنشدكم بالله وأنشدكم..... ألا أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم، قد تبين الرشد من الغي، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه^(١) فتكرار اسم محمد في هذه المكاتبة وإتمام حجة النبي على اليهود من دون نكير، أقوى دليل على وجود هذا الاسم بالصرحة في كتب اليهود. وكذا جاء اسم النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصرحة ومكرراً في مزامير لداود عَلَيْهِ السَّلَام منها زمور ١٠٧^(٢).

والظريف أنه ليس بين الأنبياء العظام على مر التاريخ من كان باسم محمد حتى تعزى الفضائل والمناقب والبشارات الواصلة إليه، وهو الوحيد الذي سمي بهذا الاسم من بين الأنبياء وقد خصص هذا الاسم له من ابتداء الخلقة، فإن آمنة أمه كانت قد رأت في منامها أن تسمي ابنها محمداً.

وفي كتاب شيث جاء اسم النبي طاليثا، بمعنى العظيم القدر، وفي صحف إدريس مشفح على وزن محمد بمعنى المحمود، وفي صحف إبراهيم بقطا، بمعنى المضيئ، وفي صحف موسى، قبل نزول التوراة أخرايا، بمعنى آخر الأنبياء وختم المرسلين، وقهايا بمعنى سيد وعظيم آخر الزمان، وفي التوراة مود مود بمعنى عظيم ومحمود^(٣).

(١) مكاتيب الرسول ١: ١٧٤، عن كنز العمال، الوثائق: ١٨.

(٢) المزامير - النسخة المصورة لإحياء التراث الإسلامي: ١٣٩.

(٣) البحار ١: ١٥٠، لمعات ملكوتية: ٣٤٠ - ٣٥٠. آيينه عباسي در دين شناسي، ط، ورق ٩١.

اسم أحمد

سمع اليهود -إضافة إلى ما وجدوه في كتبهم- أخباراً عن النبي الخاتم من الحواريين وما وجدوه في الإنجيل، ومنها اسم أحمد عليه السلام الذي بشر به عيسى على ما جاء في القرآن ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١).

ونقلوا عن يهودي باسم نعثل في مقالته: أنه إذا كان آخر الزمان يخرج نبي يقال له «أحمد» خاتم الأنبياء، لا نبي بعده يخرج من صلبه أئمة أبرار عدد الأسباط...^(٢).

وقال فخر الإسلام: شاهدت إنجيلاً مخطوطاً كتب قبل الإسلام على الجلد في بعض مكتبات النصارى البروتستانت، أن في وصية عيسى لشمعون بطرس: «يا شمعون، قال لي الرب أن أوصيك بسيّد المرسلين وحبيبي أحمد عليه السلام، صاحب الجمل الأحمر والوجه الأقرم والقلب الطاهر والبدن الزكي، أعظم ولد آدم ورحمة للعالمين، النبي العربي الأمي...^(٣).

(١) محمد در تورات وإنجيل: ٢٨٠.

(٢) البحار ٣٦: ٢٨٣ - ٢٨٥، وج ٣: ٣٠٣.

(٣) بشارات عهدين: ٢٣٢، عن أنيس الأعلام ٥: ١٩٦ (الجزء الثاني من القسم الإسلامي)، وذكر ابن طاووس في كتاب سعد السعد: ١٢٥، ١٤٠ أن هناك إنجيلاً ترجم في زمان المأمون من السريانية إلى العربية كتب في هامشه أن المراد من سربال ومسيحا هو محمد. وقال في كتاب «علي والأنبياء» إن الأنجيل التي كانت بأيدي المسيحيين قبل عام ١٨٠٠ م، موجود فيها صحيفة غزل الغزلات، ويذكر في آخرها خلو محمدي من كلام سليمان، وقد حذقت هذه في الأنجيل التي طعبت بعد ذلك (علي وبيامبران: ١٣).

ووصف شمعون بن حمون، النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما لاقى أمير المؤمنين عليه السلام يقال له أحمد، الأنجل العينين،... الحديث^(١).

وفي كتاب النبي حبّوق عليه السلام، جاء اسم أحمد حيث يقول:
وامتلأت السموات من تسبيح أحمد وأُمته^(٢).



(١) البحار ٣٣٦: ١٥، وج ٣٠٣: ١.
(٢) لمعات ملكوتية: ٧٤٩. كتاب حبّوق: الإصحاح الثالث: ٣.

معرفة الرسول بالأوصاف

إنه من ولد إسماعيل

الموجود في رواياتنا التي تنقل عن النصارى واليهود الذين أسلموا وذكروا ما هو موجود في صحيفة آدم وشيث وصحف نوح وإبراهيم وآيات العهد القديم والجديد، المارة فإن الموجود فيها أن الرسول الخاتم من نسل إسماعيل.

وينقل ذلك أيضًا عن إنجيل برنابا من بشارة عيسى عليه السلام^(١).

يتيم الأم والأب

وفي رواية سئل من بعض اليهود بأي شيء عرفت نبوة محمد؟ قال: من الصفات التي قرأتها في التوراة: إنه المبعوث في آخر الزمان يموت أبوه وأُمّه ويكفله جده وعمّه^(٢).

(١) محمد در تورات وإنجيل: ٢٨٦. من إنجيل برنابا، الفصل ٢٠٨: ٥ - ٨.

(٢) البحار ١٦: ٢٠.

مولده مكة ومهاجره المدينة

وجاء في خبر عن غزوة بني قريظة، أنه لما دعي بكعب بن أسد ليضرب عنقه، نظر إليه رسول الله ﷺ فقال له: يا كعب، أما نفعلك وصية ابن حواش (ابن خراش) الحبر الذي أقبل من الشام، فقال: «تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور لنبي يبعث، هذا أو أن خروجه، يكون مخرجه بمكة وهذه دار هجرته»^(١).

وجاء في التوراة: «قد جاء نور من جبل طور سيناء، وأضاء لنا من جبل ساعير واستعلن علينا من جبل فاران». والمراد من الجملة الأخيرة النبي محمد ﷺ^(٢) والجبل فاران هو جبل مكة.

وفي كتاب حَبَقُّوقِ النَّبِيِّ: الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران، سلام جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسييحه^(٣).

صاحب الجمل وراكب الحمار

وجاء في كتاب شعيا: ورأيت راكب البعير ضوؤه مثل ضوء القمر.

وفي الإنجيل: صاحب الجمل الأحمر، وقرئ من التوراة في حضور

(١) كمال الدين: ١٩٨. البحار ٢٩٦: ١٥ و ٢٠: ٢٣٧.

(٢) محضر الشهود: ١٤٠. و ١٢٦ الطبعة الجديدة.

(٣) حَبَقُّوقِ الإصحاح الثالث: ٣، البحار ١٥: ٢٠٩، البحار ١٠: ٣٠٨، ومثله عن حجي النبي، فصل ٢ آيه ٧ (محمد درتورات وإنجيل: المقدمة: ١٧).

الإمام الرضا عليه السلام إذا جاءت الأمة الأخيرة أتباع راكب البعير يسبحون الرب جداً جداً^(١).

ووجدنا في وصية الله سبحانه لعبده موسى في الرسول الخاتم: «صاحب الجمل الأحمر»^(٢).

وفيما كتبه رسول الله ﷺ إلى اليهود ما جاء على لسان الخبر اليهودي: «هو آخر أنبياء الله وأكرمهم، يركب الحمار ويشتمل الصماء، يجتزئ بالكسرة»^(٣).

على كتفه خاتم النبوة

أهم علامة ظاهرية للرسول ﷺ وأهم دليل على صدق دعواه النبوة، هو وجود شامة سوداء على ظهره طرف الكتف الأيمن، وطبقاً لبعض الأخبار فإن الشامة عبارة عن سطين: الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله ﷺ^(٤).

وشاهدنا حديث الخبر: أنه في عينه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة^(٥).

(١) البحار ١٠: ٣٠٥.

(٢) الكافي ٨: ١٣٨.

(٣) كما في حديث كعب في البحار ١٥: ٢٠٦.

(٤) البحار ١٥: ١٤٩ و ٣٠: ٩٤ ومن كلام الإمام علي عليه السلام في جواب قوم من اليهود إذا سألوا عن صفة النبي ﷺ قال: بين كتفيه كدارة القمر ليلة البدر مكتوب فيه بالنور سطران، السطر الأعلى: لا إله إلا الله وفي السطر الأسفل: محمد رسول الله. (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ١: ٩٣. وفي الخصال ٢: ٥٩٧، وفي بصائر الدرجات ١: ٣٥ مثل ذلك.

(٥) بحار الأنوار، ١٥: ٢٠٦ وج ٢٠: ٢٣٧.

بالإضافة إلى الرواية المارّة، فقد جاء في كتاب شمعون الفصل الخامس: «أثر سلطانه على كتفه»^(١).

هذا وقد عرف البعض الرسول ﷺ به وصدّق به عدد من علماء اليهود والنصارى على أثر مشاهدة الخاتم، فقد نقلوا عن حليلة السعدية أنها قالت: ذهبت بمحمّد وعمره سنتين إلى حبر يهودي فنظر إلى كتفه الأيمن، ولما شاهد خاتم النبوة قال: هو والله، أقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه، فإنه يأتي على دولة اليهود وينسخ دين موسى^(٢).

ولما لاقى نسطور الراهب النبيّ في سفره إلى الشام، صار يلتمس من هذا الخاتم فلما رآها أكبّ عليه يقبّله ويكيّ وسلّم على النبي بالنبوة^(٣).

وفي الفترة التي كان يخرج فيها الرسول بأموال خديجة للتجارة، ذكرت خديجة حاله لحبر من أبحار اليهود، فطلب منه أن يثني الرّداء عن ظهره ويعري كتفه، فلما وقعت عينه على خاتم النبوة قال: والله خاتم النبوة... وحقّ الكليم رسول الملك العظيم في آخر الزمان^(٤).

واستيقن راهب بصرى أنه نبيّ آخر الزمان لما رأى هذه العلامة^(٥).

(١) البحار، ١٥: ٢٠٧، وفي كتاب الحسام الممدود: ٢٠٤: جاء في مكاتيب البحر الميت وكهف قمران في وصف النبي الموعود بأن خاتم النبوة على كتفه.

(٢) البحار، ١٥: ١١١.

(٣) البحار، ١٥: ١٩٦، ومثله في البحار ١١: ٣٥٥، طبقات ابن سعد ١: ٨٢.

(٤) البحار، ١٦: ٤.

(٥) البحار ١٥: ٢١٤.

وعداس الراهب لما رأى خاتم النبوة على ظهر النبي قال: قدّوس قدّوس، أنت والله النبيّ الذي بشّر بك موسى وعيسى ^(١).

وفي قصّة إيمان سلمان الفارسي ذكروا أنه طلب من الرسول أن يريه خاتم النبوة، فأسلم على أثر رؤيته ^(٢).

صاحب المعراج

جاء في نبوءة النبي ملاخي وتطبيقه على معراج الرسول ^{صلّى الله عليه وآله} والإسراء به ليلاً إلى البيت المقدس وزيارة ذلك المعبد: «ها أنا ذا أرسل ملاكي (رسولي) فيهيئ الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله، السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به، هو ذا يأتي» ^(٣). فإن عيسى وإن جاء إلى الهيكل ولكن الحوادث التي وقعت عند زيارته لا تتطابق مع هذه النبوءة.

كتابه القرآن

جاء في الحديث عن الإمام الحسن العسكري أن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ في الآية الثانية من سورة البقرة يشير إلى الكتاب الموعود به الذي بشر به اليهود، بأن كتاب نبي آخر الزمان يشرع بالحروف المقطعة، ونحن نعلم أن أول سورة البقرة هو: «الم» وكثير من سور

(١) البحار ١٨: ٢٢٢، ٢٢٩.

(٢) البحار ١٩: ١٠٥، خلاصة الوفاء: ١١١.

(٣) ملاخي، الإصحاح الثالث: ١.

القرآن تبدأ بالحروف المقطعة.

وفي الآية القرآنية: ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ دالة على ذلك^(١).

وهناك صفات أخرى للنبي مذكورة في كتاب النبي دانيال، منها أوصاف كتابه^(٢).

معرفته بأخلاقه الحميدة

نقرأ في الزيارة الجامعة الماثورة من ناحية الإمام الهادي عليه السلام أن الله سبحانه قد عرف جميع الخلق جلاله أمر أهل البيت عليهم السلام، وعظم خطرهم، وكبر شأنهم، وتما نورهم، وهذا يعني أنه سبحانه وتعالى قد عرف جلال أهل البيت وعظمتهم لجميع الأمم السابقة^(٣).

وعلى هذا الأساس قد تمّ التعريف بالرسول الخاتم وأهل بيته من عدة جهات، سواء كمالاتهم النفسية أو صفاتهم الظاهرية التي يمكن معرفتهم بها بأي أنحاء المعرفة، ومنها صفات النبي الأخلاقية، فقد جاء في حديث أن في التوراة: محمد بن عبد الله، مولده بمكة ومهاجره بطيبة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا متزّين بالفحش، ولا قول الخناء...^(٤).

وجاء في رواياتنا عن التوراة أيضاً: أحمد، عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن

(١) البحار ١٠: ١٤.

(٢) محضر الشهود، الفصل الخامس: ١٢٧ - ١٦٢.

(٣) مفاتيح الجنان: الزيارة الجامعة.

(٤) البحار ١٦: ٢١٦.

يعفو ويغفر، مولده بمكة وهجرته بطيبة...^(١).

وفي كتاب إشعيا النبي: عبيد خيرتي من خلقي، رضي نفسي،
أقبض عليه روعي (أنزل عليه روعي)، فيظهر في الأمم علي، لا
يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، ويسمع الآذان الصم،
ولا يميل إلى اللهو، ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، حتى
تثبت في الأرض حجتي وينقطع به العذر^(٢).

وإذا طالعنا عن حياة الرسول ﷺ ينقدح لنا الدور الأكبر لأخلاقه
السامية في جذب الناس إلى الإسلام أكثر من أي شيء آخر، يؤكد قوله
تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٣).

حتى أنه بلغنا إسلام يهودي لأجل عطفة الرسول على الأطفال^(٤).

معرفته بجوابه على المسائل العلمية

استخرج عبد الله بن سلام ألفاً وأربعمائة وأربع مسائل من التوراة
ليسألها النبي، فلما جاء إلى الرسول ﷺ أخبره النبي بعزمه وما جاء
له، فأسلم في أول وهلة، ومع ذلك فقد طرح بعض الأسئلة وتلقى
الأجوبة الشافية وقد طبعت هذه الأسئلة والأجوبة في رسالة مستقلة،

(١) البحار ١٥: ٢١٣.

(٢) البحار ١٥: ٢٠٧.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) البحار ٤٣: ٢٩٧.

وهي موجودة في كتاب البحار^(١).

ولما كانت أكثر أجوبة الرسول ﷺ، مطابقة لما بلغهم عن الأنبياء السابقين فمن الطبيعي تكون من السبب لمعرفة اليهود بالرسول وأوصيائه، لأن إخبار النبي ﷺ بما يطابق الدفاتر والكتب غير المفتوحة وغير المقروءة بالمرّة، لا يكون إلا معجزة، فإن مضامين وملخص ما جاء به القرآن موجود في التوراة، وهذا ما علمه اليهود جيداً ومع ذلك امتنعوا من الإيمان بالنبي إلا القليل منهم.

وذلك مثل ما روي أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ سأل عن ذي القرنين ولما أجابه الرسول قال: نعم هذا موجود في التوراة^(٢). وأمثال هذه الرواية كثيرة جداً.

معرفة بصدور المعجزة عنه

نحن نعلم أن أحد طرق معرفة الرسل والأنبياء هو إظهارهم المعاجز - أعني الأمور التي لا يتمكن غيرهم من تحقّقها - بإذن الله سبحانه، ولذا لم يظهروا المعجزة لكل من طلب ذلك منهم، بل كانوا ينتظرون في ذلك الوحي وإرادة الله تعالى.

وكان هناك بعض اليهود العارفين بالقراءة والكتابة ولهم مكانة مرموقة بين أهل الحجاز، يقرؤون قصص الأنبياء السابقين ومعاجزهم،

(١) البحار ١٦: ٣٢٧، وج ٩: ٣٢٧، وج ٥٧: ٢٤٢.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٠٧.

فكانوا ومن أجل تكذيب دعوة النبي وصدّها وتفنيدها تراهم يطلبون منه أن يريهم نظائر تلك المعاجز كإحياء الموتى وشفاء المرضى، والإخبار بالغيب، ومثل تبديل العصا إلى ثعبان، واستنطاق الجمادات والحيوانات وغيرها، والمستفاد من الأخبار المنقولة في هذا الشأن أن بعض أولئك اليهود كان يؤمن إذا شاهد المعجزة، بينما البعض الآخر لا تزيده مشاهدتها إلا شقاء وتعتّاً ويرى أن ذلك من السحر، واليك بعض النماذج.

أتى جماعة من اليمن النبي ﷺ فقالوا: نحن من بقايا الملل السابقة من آل نوح وكان لنبينا وصي اسمه سام، وأخبر في كتابه أن لكل نبيٍّ معجزاً وله وصي يقوم مقامه، فمن وصيّك؟ فأشار بيده نحو علي، فقالوا: يا محمد إن سألناه أن يرينا سام بن نوح فيفعل؟ فقال ﷺ نعم بإذن الله، وقال ﷺ: يا علي قم معهم إلى داخل المسجد واضرب برجلك الأرض عند المحراب، فذهب علي... فصلّى ركعتين، ثم قام وضرب برجله الأرض فانشقت فظهر لحد وتابوت، فقام من التابوت شيخ يتلأأ وجهه مثل القمر ليلة البدر، والحاصل أنهم تكلموا معه وسألوه عدّة أسئلة ولما تيقنوا بذلك أسلموا وشهدوا بوصاية أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً^(١).

(١) البحار ٤١: ٢١٢ ح ٢٦، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٦٢.

معرفته من جهة ذريته وأوصيائه

طبقاً لما جاء في الأخبار فقد تكرر ذكر اسم النبي واسم آبائه وذريته وأوصيائه في التوراة نظير تكرّر اسم النبي موسى عليه السلام في القرآن بما ينيف على ١٣٦ مرة، وإلى جانبه اسم أخيه وخليفته هارون.

ومن الأمور المهمة التي كانت بين النبي وأهل الكتاب في المدينة عملية المباهلة التي لا تقل في الأهمية عن واقعة الغدير، فإذا كان في واقعة يوم الغدير إثبات لولاية أهل البيت: فإن في المباهلة تسقيط لأعدائهم وتضعيفهم وإذلالهم إلى أبعد الحدود، وإذا كان الغدير هو الأساس في التولي، فالمباهلة هي أساس التبري، والتنفر وإبعاد الله سبحانه لأعدائهم.

وهكذا فقد شارك في هذه العملية من الجانب الإسلامي خمسة أشخاص حيث جلس الرسول في الوسط وعليّ على يمينه والحسن والحسين بين يديه وفاطمة وراءه. والملاحظة أن المباهلة وإن كانت مع النصاري ولكن لما تجلّت فيها أحقية الرسول صلى الله عليه وآله وصدق دعواه، لم يفرق فيها من كان بإزائه من النصاري أو اليهود، ولا شك أن هذا الحدث ينفي حقانية كل دين سوى الإسلام وكل مذهب سوى الشيعة الإثني عشرية، ولا يمكن إنكار ما وقع بعد وروده في القرآن، وفي آلاف الكتب والروايات من طرق الشيعة والسنة خصوصاً الواردة في تفسير آية المباهلة. (١).

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري: ٦٥٦.

وقد عكست تسمية أبناء الرسول باسم أبناء هارون مدى الارتباط المعنوي الوثيق بين هذين البيتين النبويين، ومن اللازم أن يلفت ذلك أنظار اليهود^(١).

وسأل يهودي رسول الله عن خمسة أسطر مكتوبة في التوراة، فأجابه: أول ما في التوراة مكتوب محمد رسول الله، وهي بالعبرانية «طاب طاب»، ثم تلا رسول الله هذه الآية: (يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل (و) مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد).

وفي السطر الثاني اسم وصيي علي بن أبي طالب

وفي الثالث والرابع اسم سبطيه الحسن والحسين.

وفي السطر الخامس اسم أمهما فاطمة سيدة نساء العالمين^(٢).

وسأل جماعة من اليهود رسول الله ﷺ: من هو وصيك؟ فقال رسول الله: علي عليه السلام. قالوا: صدقت. وجدنا أوصافه في كتبنا^(٣)، وأخذوا يسألون أسئلة أخرى فلما أجابهم أسلموا.

(١) جاء في باب ميلاد الإمام الحسين عليه السلام: هنالك هبط جبرئيل، وقال: يا محمد، العلي الأعلى يبلغك السلام، ويقول: علي منك بمنزلة هارون من موسى، فسم ابنك باسم ولد هارون، فقال وما اسمه؟ قال: شبير، فقال النبي: لساني عربي قال: سمه حسيناً.
(٢) البحار ٩: ٢٩٨.

(٣) الصراط المستقيم ٢: ١٤٤ وفي بحار الأنوار ٣: ٣٢٤: سأل يهوديان أمير المؤمنين أسئلة فأسلما وقالوا: فوالذي نزل التوراة على موسى، إنك لأنت الخليفة حقاً، نجد صفتك في كتبنا، نقرؤه في كنائسنا، أنت وصيه وزوج ابنته وأبو السبطين والإمام بالحق بعده وأول من آمن به. وفي الفضائل للأحمد في قصة نعت اليهودي، وعند سؤال سلمان في الفضائل ٢: ٦١٥، ١٠٥٢، هكذا.

وفي كتاب النبي إدريس عبّر عن النبي بـ «پارقليطا» وعن علي بـ «إيليا» وعن فاطمة بـ «طيطه» وعن الحسن والحسين بـ «شِپَر و شُپِير» وعدّ ذلك الرجل الإلهي وعلياً وفاطمة والحسن والحسين محور الكائنات^(١).

وجميع هذا الذي ذكرناه يعكس حقانيّة الرسول المكرم وأهل بيته **عليهم السلام** وصدقهم وعلمهم وقدرتهم ومجدهم وعظمتهم بحيث يدعو كل عاقل إلى التسليم والرضوخ.



(١) بشارات عهدين: ٢٢٩، ٢٣٠، عن كتاب إدريس: ٥١٤، طبع في لندن سنة ١٨٩٥م باللغة السريانية، وهو موجود اليوم..

الكلام الثاني

عداء اليهود بالنسبة للنبي المكرم

عداء اليهود لأجداد النبي

ما زالت تعاليم الأنبياء وأصولهم الاعتقادية هي الإيمان بالغيب واليقين بظهور نبي آخر الزمان، مع الإقرار بأنه أفضل الأنبياء والرسل والأكرم على الله^(١)، ولا زال تصديق ذلك من علامات الإيمان الصادق، ومحبه من علائم التقوى، وبغضه علامة على النفاق، ولا شك أن أتباع النبي موسى عليه السلام فيهم المؤمن والمنافق، والمؤمنون منهم هم محبو نبي آخر الزمان والمعتقدون به، حليتهم التقوى وانتظارهم لظهور عيسى المسيح ومن بعده ظهور نبي الإسلام، وقد طال انتظارهم حتى مات بعضهم ولم يدرك ما أمل ورجا، ولكن البعض الآخر منهم أدرك زمان عيسى فبادروا إلى الإيمان به وصاروا من أتباعه ومن أمته، وسمعوا منه البشارة بمجيء خاتم الأنبياء.

(١) قال أمير المؤمنين في خطبة خطبها بعد رحلة النبي ﷺ بسبعة أيام: وما من رسول سلف ولا نبي مضى وقد كان خبراً أمته بالمرسل الوارد من بعده، ومبشراً برسول الله ﷺ (تفسير البرهان ٥: ٤٥٠).

وعلى أساس هذه الأخبار فإن ما شهدناه من عداوة بني إسرائيل للنبي وأهل بيته وحقدهم عليهم يعود إلى المنافقين من بينهم، حتى شملت نار فتنتهم بني إسماعيل وبني إسحاق. هناك خصلتان في نبي الإسلام هي الأساس والداعي إلى عداة منافقي اليهود بالنسبة للرسول وأهل بيته: واحدة هي أصل الرسالة، والثانية الخاتمة، فإن اليهود كانوا في حيرة من هذين الأمرين خصوصاً مع توالي الأخبار السماوية بذلك وتقدير الله الذي لا يتبدل، فلم يجدوا سبيلاً سوى الاستبداد والتحريف والتأويل، فطالت أيديهم كتب الأنبياء فحرفوها، وصاروا بصدد تغيير الصفات والنعوت المذكورة للرسول حتى لا تتطابق مع النبي محمد ﷺ، فكان أول ضحية هذا العداة هو الكتب السماوية.

هذا إذا قطعنا النظر على ماضيهم الأسود وقتلهم الأنبياء والأولياء كما هو معلوم إجمالاً ويعود إلى أنانية منافقي اليهود فإن أوضح ضحية من بين بني إسرائيل هو عيسى بن مريم حينما سأله: أنت خاتم الأنبياء وشيلو^(۱) الموعود؟ وأجابهم: «لا، هو أفضل مني، إذا أدركت زمانه فسأخدمه». ولذلك عادوه، لأنهم كانوا يتوقعون كون عيسى وأنه من بني إسرائيل هو النبي الخاتم الموعود به، كي لا تخرج النبوة عن سلالة إسحاق، فلما علموا أنه المبشر برسالة خاتم الأنبياء وعرفه من بني إسماعيل، عادوه وقتلوه بزعمهم، فإن مزعمهم الأول

(۱) شيلوخاه: اسم رسول الله في كتب اليهود، أنظر كتاب [محمد در تورات وإنجيل: ۱۸۴]: يعقوب عليه السلام در آن پیشگویی معروف از عبارت بی همتای شیلوخاه یعنی رسول الله استفاده می کند و در انجیل برنابا از حضرت محمد به همین نام یاد کرده است و خوشبختانه ژرم در ترجمه لاتینی خود این کلمه را به درستی ترجمه کرده است: (رسول الله).

عدم خروج الرسالة عن بني داود وستختم ببني إسرائيل، على الرغم من علمهم بحقيقة الأمر ولكنهم كانوا يكتمون ذلك، وبعد انكشاف الأمر وظهور النبي الخاتم من بين العرب ومن ذرية إسماعيل صاروا يحسدونه ويخالفونه ويكذبونه إلى أبعد الحدود.

ثم كان سعي اليهود الآخر هو محوه من الخواطر وحذف اسمه من الأسفار، وعلى أساس ذلك حذفوا من عباداتهم ومراسمهم كل ما يرتبط بتكريم وتقديس النبي الخاتم وأهل بيته، هذه هي أقدم تدابير اليهود العدائية حتى قبل ظهور الإسلام وعلى أيدي المنافقين منهم.

الخطوة الثانية معاداة أجداد الرسول من بني إسماعيل والتدبير لقتلهم والحيلولة دون ظهور ذلك السعيد الموعود به.

وأساساً فإن هناك فكرة شيطانية خاطئة عشعت في أذهان اليهود، وهي أنهم قالوا إن الله يمحو من اللوح ويثبت، فقد يحصل البداء والتغيير في إرادة الله وتجدد مشيئته باختيار النبي الآخر من بني إسرائيل، الأمر الذي صلبهم على مواقفهم واجتهادهم في قصد اغتيال أجداد الرسول عليه السلام من العرب، حيث كانت هذه الفكرة تجول في أذهانهم وما زالوا يطلبون لها المسوغ والموجه حتى لا يظهر ذلك الموعود به من بين العرب لئلا تنزع دولتهم وعزّتهم.

فإذا طويينا كشحاً عن ذلك فهناك عدة أخبار عن عزم اليهود على قتل عبد الله أبي محمد رسول الله، وكانت محاولاتهم بمثابة من الوضوح بحيث ذاع واشتهر هذا الأمر، فصار الرهبان والقساوسة المسيحيون

يحذرون عبد المطلب وأبا طالب من اليهود وفتكهم.

فظلت تلك الجماعة بمكة تتربصه عسى أن تجده بمفرده فتقتله، حتى خرج عبد الله يومًا للصيد، فظنها اليهود هي الفرصة التي ينتظرونها، فهجموا عليه بعيدًا عن مرأى الآخرين ولكن الله سبحانه أمدّ عبد الله بالقوة والمدد حتى يحفظه من فتكهم^(١)، هذه مجرد نماذج من محاولات اليهود لقتل أجداد النبي والفتك بهم أشرنا إليها باختصار.

تعرّض اليهود لشخص النبي قبل البعثة

وهذا التعرّض والتصدي لشخص النبي ﷺ يمكن بحثه في فصل مستقل، ومن جانبين. أحدهما ما يرتبط بالبرهة السابقة على البعثة، والآخر دورة ما بعد بعثته.

أما قبل البعثة فهي أيضًا لها مراحل، تبدأ من يوم ولادته ويليها زمان طفولته، وصباه وشبابه، فقد بلغنا عن ذلك عدة أخبار، تحتاج معرفة صحتها وسقمها إلى البحث والتحقيق، ولكن المتيقن من مجموعها أصل عدااء اليهود وحرصهم على أذاه، بل عزمهم على قتله، ولكنهم فشلوا في جميع ذلك، فكانت تلك المحاولات وذلك العدااء واضح جدًا، منشؤه تحريض رجال الدين اليهود وزعمائهم^(٢).

(١) بحار الأنوار: ١٥: ٧٨ و ١١٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٧: ٣١٤.

تعرض اليهود للنبي بعد البعثة

نعلم أن أمانة الرسول ﷺ وصدقه كان معروفاً بين العدو والصديق، والجميع كان يقرّ بأمانته وصدقه قبل البعثة ويسمّونه «الصادق الأمين» ويأتمنونه على أموالهم وغيرها، فكانت فعالة وسجاياه تكسب المحبة ولم تكن بنحو تورث البغض والعداء، فعداة اليهود والمشرّكين له جذور دينية واعتقادية، فلأن الرسول ﷺ كان يعيب الأصنام ويذكرها بسوء عاداه المشرّكون، ولأنه كان لا يرتضي أفعال رؤساء اليهود ويخطئ بعض نظراتهم عاداه اليهود، والقرآن يذكر هذا المعنى بصراحة: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِئْتَهُمْ بِأَهْوَاءِهِمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١).

نجد الرسول ﷺ يشكو من اليهود في الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران حينما أدخلهم في الذمة، بينما نجده في المقابل يشكر صنيع النصارى ومطاوعتهم، ويبين ذلك بشكل عام وكأن أكثر اليهود اتخذوا طريق العداء والمحاربة، وبينما اتخذ أغلب النصارى طريق الصلح والمسالمة، الأمر الذي نجده في القرآن في سورة المائدة التي نزلت في أواخر الهجرة^(٢).

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.. (المائدة ٨٢). الطريقة التي اتبعها القرآن هي فصل اليهود عن النصارى في الحكم عليهم ويمكن أن نعتبر أن هناك خطة متبعة تستند على وجود تقارب في المباني الأخلاقية بيننا وبين النصارى، فإن الاستبداد والأنانية والتمييز العنصري المشهود عند اليهود لا نجدها بين النصارى، ولكن الأمر مع اليهود على العكس من ذلك، فيجب محاربتهم وتقويض أعمالهم ونقدها، الأمر الذي أدى إلى إنزواء اليهود في الجزيرة، وهذه هي الطريقة القرآنية التي يجب إتباعها في جميع العالم.

ولكن في هذا الظرف يمكن الاستفادة من كتاب النبي إلى النصارى فإنه نافع جداً^(١).

وقد عللت آيات متعددة في القرآن عداً اليهود بالحسد، وذلك لأن الرسول ﷺ وأهل بيته لهم منزلة خاصة عند الله وقد شملتهم عناياته بشكل خاص، لذلك صار رؤساء اليهود يحسدونهم ويغضونهم^(٢).

هذا وقد وصلنا أخبار متنوعة عن عداً اليهود للرسول ﷺ ووصيّه وحقدهم عليهما بعد البعثة حيث شنوا حرباً ثقافية شعواء^(٣)، مثل تكذيب القرآن وآياته، واتهام الرسول ﷺ بالكذب والافتراء، ودعوى أنه ساحر أو مجنون، ثم بذكر معائب مفتريات لشريعته، وانتقاد بعض الأحكام التي جاء بها وغير ذلك من الإثارات.

وعملوا قاموا بالاستهزاء به والسخرية منه، واستعمال الألفاظ غير المناسبة، في السوق والشارع، ومضايقة المسلمين الجدد ومنع الآخرين من الالتحاق بالدعوة الجديدة، وغير ذلك.

وقد صرفوا خلال ذلك أموالاً طائلة في هذا النحو من المحاولات الإجرامية، تحدثت بذلك الآيات الأولى التي نزلت في مكة، واستمر ذلك إلى آخر الآيات التي نزلت في المدينة؛ ونحن بعد ملاحظة تلك الآيات عكسنا للقارئ صورة منها.

(١) الوثائق: ٨٦ - ٩١.

(٢) البحار ٤٣: ٣١٤.

(٣) العنصرية اليهودية ٢: ١٦٠.

وكان بعض اليهود يسلم على الرسول ﷺ بالموت، فيقول بدل «السلام عليكم»، السام عليكم، و«السام» بالعبرية هو الموت، فكان الرسول يكتفي بقوله «و عليكم» في جوابهم^(١)، أو كانوا يقولون راعنا يتهمون بالنبي، فجاء الخطاب من الله سبحانه للمؤمنين أن يقولوا أنظرنا بدل راعنا^(٢).

ويتجلى بوضوح تهكم اليهود بالكلام واتخاذهم هذه الطريقة وتعاليمهم على الرسول حينما قام ﷺ بنصح بني قينقاع منهم فأجابوه بكلام غير نزيه^(٣).

ولم يترك اليهود أن يستعينوا بالسحر لإيصال الأذى إلى الرسول ﷺ، وصاروا بصدد سحره فنزلت المعوذتان من أجل ذلك على ما قيل^(٤).

وطالما فضح القرآن محاولات اليهود التي تصبّ في مجال السخرية بالرسول وإثبات أنه كاذب كثير الادّعاء^(٥).

فالقبلة التي هي الوجهة والشعار لكل دين، بحيث إن قداسة كل ديني واعتباره يستمد من قداستها واعتبارها، ونحن نعلم أن النبي كان

(١) العنصرية اليهودية ٢: ٣٧١.

(٢) العنصرية اليهودية ٢: ٣٦٩؛ بحار الأنوار ٩: ص ٣٣٣، وفي الكافي ٢: ٦٤٨، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مرّ يهودي بالنبي فقال: السام عليك. فقال النبي ﷺ: عليك، فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت عليك، قال النبي ﷺ: وكذلك.

(٣) البحار ١٩: ٢٠٦.

(٤) البحار ١٨: ٧٠، عقل اليهود الأسير: ٤٥.

(٥) البحار ١٧: ١٧٠.

يصلي في بادئ الأمر إلى بيت المقدس، فكان اليهود ينتقصون الدين الإسلامي ويقولون: أي دين هذا! لا قبله له! ولو كان على دين إبراهيم فقبلته الكعبة، فتحمل الرسول ﷺ ذلك الاستهزاء حتى جاء حكم تغيير القبلة، فعاود اليهود الاستهزاء بنحو آخر، فقالوا إن تغيير الجهة والعدول إما أن يكون عدولاً من الحق إلى الباطل أو من الباطل إلى الحق، وأيهما كان الجواب فهو بضرر الرسول، لأن شطراً من عمره وعبادته كان باطلاً.

فأجابهم ﷺ بأنه عدول من الحق إلى الحق^(١).

هذا وقد أثاروا ضجة إعلامية أخرى وانتقادات واسعة حينما تزوج الرسول ﷺ بزینب التي كانت زوجة زيد ابن الرسول ﷺ بالتبني، بذريعة بطلان هذا الزواج عند اليهود^(٢)، ولكن الله سبحانه بيّن جواز ذلك ونزلت بذلك آية من القرآن.

وكانت احتجاجاتهم الدائمة تبتني على أساس أن أحكام الدين الإسلامي الفرعية تخالف أحكام اليهود، فكانوا يقولون: إن محمداً خالف كل حكم من أحكامنا^(٣).

وأما محاولاتهم لاغتيال الرسول ﷺ وقتله فقد شرعت في السنة الثانية للهجرة عقيب معركة بدر، ولعلّ أوّل محاولة هي الإقدام على سمّ الرسول ﷺ بواسطة امرأة يهودية قد دسّت السم في شاة

(١) البحار ١٧: ١٧٢، وج ٦٧: ١٦٩، العنصرية اليهودية ٢: ٣١٦.

(٢) اليهود قديماً وحديثاً: ٤٨.

(٣) البحار ١٧: ١٧٣، وج ٦٧: ١٦٤.

ثم قدمتها للرسول بهدف قتله، ويحتمل ضلوع رؤساء اليهود في هذه المؤامرة واشترакهم في هذا العمل، ولكن الشاة نطقت بأمر الله وأخبرت عن وجود السم فيها. وحدث مثلها بعد معركة خيبر وقد توفي أحد أصحاب النبي على أثر تناوله منها^(١).

وفي رواية أن اليهود لما رأوا تعاظم شأن الرسول ﷺ في المدينة تواطأ جماعة منهم مع جماعة من قريش على قتل الرسول، وحينما خرج إلى خارج المدينة في عمل تصدى له جماعة من اليهود، يناهزون المائتين رجلا وأرادوا قتله، ولكن الله سبحانه حفظه من شرهم، وظهرت معجزة أدت إلى هلاك جماعة منهم، ولكن لا يعلم زمان هذا الحدث بالدقة^(٢).

ثم لما دارت الحروب بين الرسول ﷺ واليهود كانت في الأغلب دفاعية أو هي جواب على استفزازات اليهود وغدرهم بالرسول، مثل تخطيطهم لقتل الرسول في غزوة بني النضير، وإعلام الحرب في معركة الخندق أقوى شاهد على ذلك.

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري: ١٧٧ - وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سم رسول الله يوم خيبر فتكلم اللحم، فقال: يا رسول الله إني مسموم، قال: فقال النبي ﷺ عند موته: اليوم قطعت مطاياي الأكلة التي أكلت بخيبر وما من نبي ولا وصي إلا شهيد. [بحار الأنوار ١٧: ٤٠٥].

(٢) بحار الأنوار ١٧: ٢٦٩.

الفصل الرابع

علاقة الرسول واليهود بعد الهجرة

إن هجرة الرسول إلى المدينة لم تكن بمنحى عن فكرة مواجهة اليهود والنفوذ إلى قلب تواجدهم وإرشادهم في مجال إكمال الدين وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، بعد ما شرع دعوته بزعة قواعد الشرك في مكة وغيرها، وقبل ذلك يتحتم علينا إلقاء نظرة على هجرة المسلمين بصورة عامة ثم نعطف الكلام على هجرة الرسول إلى المدينة وشروع المراءوات الظاهرية بين الرسول واليهود وتريث اليهود في اتخاذهم موقفًا حازمًا مع الرسول ﷺ وعقدهم عهد الصلح معه انتظارًا لأفول دعوته على يد قومه، ولما يؤسوا من ذلك تشددوا معه وصاروا يظهرن العداوة شيئًا فشيئًا.

الكلام الأول

هجرة النبي والمسلمين

إن أتباع الرسول الذين أكثرهم من الطبقة الفقيرة والمستضعفة وعلى أثر المضايقات والضغوط والقسوة التي استخدمت في حقهم، لم يجدوا بداً من الخروج من مكة، ولذا فإن الرسول ﷺ أشار على بعضهم بالهجرة، ويبقى البلد والمكان الذي يستقبلهم إذا هاجروا إليه، والحال أن أكثر أهل جزيرة العرب مشركون وعبداء الأوثان مناهضون للديانة التوحيدية، والباقي هم يهود ونصارى، واليهود بطبعهم يعادون سائر الأديان الأخرى، وإذا كان الغالب على أهل نجران المسيحية، فهم إذا لم يكونوا من أعداء الدين الجديد، فليسوا في صدد مناصرته ولا الدفاع عنه لا محالة.

فيبقى اختيار مكان بعيد عن أيدي قريش ويستقبل المسلمين النازحين إليه ويدافع عنهم بحاجة إلى دقة عالية في الاختيار؛ لأن المسلمين قليلون جداً فإذا هلكت هذه الثلة القليلة سيبقى الرسول ﷺ لو حده، فلا بد أن يمتاز الموضع الذي يختاره الرسول بمواصفات

خاصّة ويحظى بحالة أمنيّة عالية، نعم اختار رسول الرحمة الحبشة.

هجرة المسلمين إلى الحبشة

تقع الحبشة (إثيوبيا المعاصرة) في شمال شرق قارة أفريقيا وتبعد عن مكة ما يقارب من ألف كيلومتراً ويفصل بينها وبين قارة آسيا البحر الأحمر، وكان ملكها يومئذ النجاشي.

يبقى السرّ في اختيار الحبشة لهجرة المسلمين وخلاصهم من أذى قريش بحاجة إلى التأمل، وكيف اعتمد المسلمون على النصارى وهم من زمرة المخالفين للإسلام، ولكن ينبغي أن يعلم أن اليهود لم يكونوا وحدهم بانتظار نبي آخر الزمان، فإن النصارى كانوا أشد انتظاراً منهم، وصراحة الإنجيل في هذا الشأن أكثر من التوراة، وإذا سمي الإنجيل بالإنجيل -وهو بمعنى البشارة- فلاجل مجيء البشارات العديدة فيه، فليس من العجيب الاعتماد على النصارى أكثر من اليهود.

ونحن نعلم أن الآية التي أخبرتنا بأن النصارى أرحم على المسلمين من اليهود، نزلت آخر سنوات الهجرة، في المدينة^(١)، ولكن يبدو أن هذا الشيء كان محسوساً ابتداءً لدى المسلمين وكانوا يلمسون أرجحية رافة النصارى بالمسلمين، وإنما جاء خبر ذلك في القرآن بعد ذلك، ولعلّ السرّ في ذلك يعود إلى تلاقي عقائدهم مع عقائد المسلمين وتقاربها، بالإضافة إلى نظرهم اللينة إلى عامّة البشريّة والتعامل مع

عقائدهم وحقوقهم أكثر اعتدالاً من اليهود.

يخبرنا ابن إسحاق عن مجيء وفد من الحبشة من قبل النجاشي إلى النبي ﷺ وعددهم اثنا عشر شخصاً، سبعة منهم رهبان وخمسة قسيسون، ولما التقوا مع الرسول ﷺ عند الكعبة وسمعوا منه بعض آيات القرآن فاضت دموعهم وأسلموا^(١)، وقيل قد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٢).

لم يذكر تاريخ هذه الملاقاة بالدقة، ولكن ابن إسحاق يصرح بأن هذه الملاقاة تمت حينما كان الرسول في مكة، ولكن الآية لما كانت من سورة المائدة فيجب أن يكون نزولها بعد فتح خيبر وحتى بعد فتح مكة في أواخر الهجرة، وإذا كانت في أوائل البعثة نستطيع الحدس بدوره في استقبال المهاجرين من المسلمين.

ينبغي الالتفات إلى أن أوائل سورة مريم نزلت قبل هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ لأن جعفر بن أبي طالب ﷺ قرأها على النجاشي عند لقائه، ولا يكون نزول هكذا سورة من دون سبب وبدون وجود أي مطالسة أو لقاء مع النصارى.

ومهما يكن من ذلك، فإن النبي ﷺ كان يرى أن السفر إلى الحبشة، سيكون فيه بعض الترفيه على المسلمين وبعض الاستقرار، قال: «لو

(١) سيرة ابن إسحاق: ٢٠٢.

(٢) المائدة: ٨٣.

خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم خرجًا مما أنتم فيه».

هذا وقد ترأس جعفر بن أبي طالب المهاجرين إلى الحبشة وتبلغ عدتهم سبعين شخصًا، أرسل معهم رسول الله ﷺ رسالة إلى النجاشي يدعوه فيها إلى الإسلام، فقبل النجاشي تلك الدعوة وأسلم سرًّا^(١).

يجب القول أن النبي ﷺ كان يعلم بإسلام النجاشي وتصديقه بعلم النبوة، وكذا كان يعلم بعلم النبوة حال المسلمين إذا هاجروا إلى تلك البلاد وما سيؤول إليه أمرهم، ولا يمكن قبول اكتفائه بظواهر الأمور في اختيار ذلك البلد، خصوصًا ممن لم ير الحبشة، فمن أين علم أنها أرض صدق ويسير ملكها بالعدل، فهل من الممكن قبول اعتماده على الأخبار الواصلة عن الحبشة، فإن الكلام في ذلك بحاجة إلى مزيد من الفحص والتحقيق.

ولما كان لهذا الأمر علاقة بالمسيحية، لم يفضل المحققون المسلمون ولا اليهود الخوض فيه كما يستحقه، وإلا فإن استقبال النجاشي للمسلمين يتمتع ببالغ الأهمية ويستحق التمجيد والتقدير، ولا يخفى موقف جعفر بن أبي طالب ﷺ سفير النبي، فإنه لعب دورًا فاعلاً وأبلى بلاءً حسنًا^(٢).

وقد ذكر المستشرقون والكتّاب المسلمون بعض الأمور اليسيرة

(١) سيرة ابن هشام ١: ٢٤٦؛ وذكر ابن إسحاق في سيرته: ٢٥٦، أسماء بعض المهاجرين إلى الحبشة وكذا ابن هشام في سيرته ١: ٢٥٣، وفي ٣: ٢٦٠-٢٦٧، بعض الحوادث المربوطة بهذه الهجرة.

(٢) سيرة ابن إسحاق: ٢٤٩ وسيرة ابن هشام ١: ٢٥٧.

فيما يخصه لكن ينبغي التأمل فيها والتحقيق أكثر فأكثر^(١).

ولما لم يكن هناك أخبار مفصلة تتعرض لجزئيات الوقائع، نختصر الحديث في ذلك ثم نعطف على الكلام عن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن الرسول ﷺ هاجر بصحبة أمير المؤمنين ﷺ إلى خارج مكة عدة مرّات، ولكنها كانت قصيرة جدًا في الغالب، وأهمّها هجرته إلى الطائف فقد استغرقت أربعين يومًا كان فيها الرسول خارج مكة^(٢).

هجرة النبي إلى المدينة

صار عدد المسلمين يتزايد في مكة يومًا بعد يوم، وقد ضاقت قريش بذلك ذرعًا وصارت تجد نفسها في مأزق، ومن ناحية أخرى فقد فقد الرسول ﷺ بوفاة أبي طالب محاميه الأوّل في قبيلة قريش^(٣)، وصار الوقت ينذر بالخطر لأن قريش اتخذت قرارًا خطيرًا وصمّمت على تبيت النبي ﷺ وإنهاء أمره، عندها كانت حياة رسول الله والمسلمين في خطر، ولذلك اتخذ النبي قرارًا بأمر من الله سبحانه بالهجرة إلى المدينة، وبناء على بعض الأخبار الواصلة فإن جماعة من المسلمين كانوا قد هاجروا خفية إلى المدينة بأمر من النبي ﷺ من قبل^(٤).

(١) العلاقات: ٢٢٢-٢٢٦، عن كتاب «محمد في مكة» للمونتقمرى بعض الآراء وناقش بعضها، وولفنسون في تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١١١، تكلم بكلمات تثير التعجب.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٦٤٥.

(٣) أنساب الأشراف ٢: ٢٩. موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٦٣٥.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ١١٠. موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٧١٨.

وفي الوقت عقد المشركون اجتماعاً في دار الندوة واتخذوا قراراً بإرسال أربعين شخصاً بعدد قبائل قريش من كل قبيلة شخص؛ ليشارك الجميع في قتل رسول ﷺ ولا يتمكن بنو هاشم من المطالبة بدمه والاقتصاص من قاتله، فنزل جبرئيل الأمين من عند الله سبحانه على النبي واطلعه على قصد المشركين وتصميمهم، وأمره بالخروج من مكة للتخلص من كيد قريش ومكرها، ولم يكن الرسول ﷺ راغباً بترك مسقط رأسه وقبلة إبراهيم الخليل عليه السلام، لكن إطاعة أمر الله واجبة، وإذا لم يخرج الرسول ﷺ رغبة، ولكن أذى قريش ومضايقاتها اضطره إلى ذلك.

و من ناحية أن لها أهمية خاصة لبقاء دين الله، صارت متابعة الرسول في هذه الهجرة عبادة ولها عنوان خاص عند الله سبحانه وتحسب في الشريعة المقدسة من ملاكات الإيمان والتسليم، وظلت تحتفظ بهذا الاعتبار حتى صلح الحديبية أو بعده إلى زمان فتح مكة، ففي هذه الظروف كان على كل من يتحلل الإسلام أن يهاجر إلى المدينة خفية أو جهاراً، إلا من يأذن له الرسول ﷺ بالبقاء في مكانه، ولكن بعد فتح مكة لم تعد الهجرة عبادة، ولذا جاءت الإشارة، في القرآن إلى المهاجرين الأوائل ﷺ وقد فرض لهم امتياز على السائرين ^(١).

(١) الأنفال: ٧٣: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ لَّا تَفْعَلُونَهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ التوبة: ١٠٠، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ومن سورة الحديد: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وأما بالنسبة إلى اليهود وأخبارهم عن نبي آخر الزمان، فإن للهجرة أهميّة خاصّة، لأن الهجرة أمر تنبؤا به وعلموا أنها ستقع لا محالة وما هي إلا طارئة تطرأ على حياة الدين الإسلامي، والموجود في أخبارهم أنه سيهاجر إلى المدينة وفي الرواية «أن مهاجره بطيبة»^(١)، وبهذا كانت هجرة الرسول ﷺ إلى هذه المنطقة واحدة من العلامات والآيات وأحد مشخصات نبي آخر الزمان التي تحققت وتمت بها الحجّة على اليهود الجاحدين، وبصورة كليّة فإن كل مشخصة وصفة كانت تتحقق تتم بها الحجّة أكثر فأكثر.

وكذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون أول بشارة بطلوع تلك الشمس الوضاءة في سماء المدينة على لسان رجل يهودي حيث نادى: «يا بني قيلة هذا جدّكم قد جاء» يعني أن الذي سيبنّي عزّكم ويرفع رؤسكم قد جاء وحلّ في أوساطكم وقد ورد أيضا «هذا صاحبكم قد جاء»^(٢).

هذا وقد تحقّق على أثر هذه الهجرة أمران مهمّان لا يمكن ترك التطرق لهما والمرور عليهما مرّ الكرام، ولو أن محقّقي العامّة تركوا الإشارة إليهما.

أحدهما: واقعة ليلة المبيت ونوم أمير المؤمنين ﷺ على فراش النبي ﷺ يفديه بنفسه كي تبوء محاولة قريش لقتل الرسول ﷺ.

(١) بحار الأنوار: ١٦: ٢١٦.

(٢) البحار ٦٥: ٣٢٥، وج ١٩: ١٢٣، سيرة ابن هشام ٢: ١٠٣ وتاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٢٣.

بالفشل، ويعكس مدى أهميّة هذا العمل ومدى تفاني أمير المؤمنين عليه السلام، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١)، فنزول هذه الآية دليل على قبول هذا العمل (الجهاد) عند الله، وأنه بمثابة من الأهميّة بحيث يجب أن يعلمه جميع العالم ويعرفوا علياً بسببه، فلذا ناسب الاعتراض على محققي العامة أنهم كيف ارتأوا تسليط الضوء بأكبر حجم ممكن على التحاق أبي بكر بالنبي صدفه في وسط الطريق وتركوا الإشارة إلى تفاني أمير المؤمنين علي عليه السلام وشجاعته، فأين من خاف ووسوس نفسه بالإفساد وأين من وطّن نفسه على القتل مكان رسول الله ﷺ صيانة لنفسه الشريفة؟ هذا وقد نقل علي عليه السلام بنفسه هذه الواقعة في جواب يهودي عند سؤاله عن أوصاف الأوصياء الإلهيين على أنها فضيلة ومنقبة^(٢)، ولا شك أن هذا العمل الشجاع قد ألقت نظر اليهود الذين ما زالوا يراقبون أعمال رسول الله ﷺ وأصحابه عن كثب.

الأمر المهمّ الثاني: هو القرار الذي اتخذته رسول الله ﷺ ليبيّن به مقام ومنزلة علي عليه السلام أوّل الناس إيماناً بالرسول وأوفى أصحابه، فإنّه وعلى الرغم من شدة اشتياق الأنصار إلى دخول النبي المدينة، إلا أنه

(١) البقرة: ٢٠٧، موسوعة التاريخ: ١: ٧٤٢، عن يعقوبي: ٢: ٣٩. ومناقب آل أبي طالب ٢: ٦٤.
(٢) البحار: ٣٨: ١٦٠، قال الإمام علي عليه السلام: يا أبا اليهود فإن قريشاً لم تزل تحيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي ﷺ حتى كان آخر ما اجتمعت في ذلك يوم الدار دار الندوة، وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف.... فأخبرني رسول الله ﷺ بالخبر وأمرني أن اضطلع في مضجعه واقية بنفسي، فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له مسروراً لنفسي بأن أقتل دونه؛ فلما استوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي فدفعتهم عن نفسي بما قد علمه الله والناس، ثم أقبل على أصحابه فقال: أليس كذلك؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين..

تباطأ وقصّر خطاه وعلى خلاف المترقب، توقف على مرحلة من المدينة في موضع باسم «قبا»، ولم يدخل المدينة فور وصوله لشدة اشتياقهم واستعدادهم لاستقباله، وكان إصرارهم بحدّ أن جماعة ممن كان معه ترك النبي ﷺ من دون استجازته وبادر بكل وقاحة إلى دخول المدينة قبل رسول الله، ولكن النبي ﷺ أبى ذلك، وبأمر من الله سبحانه مكث في قبا مدة خمسة عشر يوماً، كل ذلك ينتظر وصول علي عليه السلام والتحاقه (به) بالنبي ﷺ فكان يقول: «لا أريم من هذا المكان حتّى يوافي أخى علي»^(١).

ولا يمكن تصوّر مقدار اشتياق القوم واضطرابهم في تلك الأيام الخمسة عشر، والكلّ ينتظر قدومه ويرغب في استضافته بالأخص رؤساء القبائل، ولكن تأخر النبي ﷺ وانتظاره كان بأمر من الله، ليس لأحد أن يتدخل فيه، وقد كُلف بذلك، فهي (إرادة الله سبحانه) تحكي عن مقام أمير المؤمنين عليه السلام الرفيع وارتباطه الوثيق بالرسول.

وبدوره خرج أمير المؤمنين عليه السلام من مكة إلى المدينة بعد أداء ما أمره رسول الله ﷺ بأدائه وتحقيق المهام المحولة إليه، يصحبه ثلاث فاطميات: فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة أم أمير المؤمنين، وفاطمة بنت الزبير، وبعد فراق طويل، التحق بمحبوبه رسول الله ﷺ في قبا^(٢).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٩. «ولست أريم حتّى يقدم ابن عمي وأخي في الله عز وجل وأحب أهل بيتي إليّ فقد وقاني بنفسه من المشركين»
(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٧٤٨، وفي الأمالي للطوسي: ٤٧١: (آل عمران ١٩٠ تا ١٩٥). وفي موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٧٤٩: وقال رسول الله لعلي: يا علي أنت أول هذه الأمة إيماناً بالله ورسوله وأولهم هجرة إلى الله ورسوله وآخرهم عهداً برسوله لا يحبك والذي نفسي بيده إلا مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان ولا يبغضك إلا منافق أو كافر. وفي فضائل لأحمد حنبل، هكذا.

هذا وقد تجلّت في هذه الساعات الحرجة، في أوّل الهجرة، هذه الفضيلة السامية

وظهرت للجميع بما فيهم اليهود، الذين كانوا يرقبون جميع المجريات، وإنه أمر عجيب وقد تكون هناك بعض الأخبار المنبئة عن ذلك، وإن لي اطمئنناً كاملاً أن أعداء علي عليه السلام قد أخفوا تلك الأخبار وأتلفوها، ولذا فإن ولفسنون يصرّح في هذا الموضع ويقول إن اليهود كانوا يرصدون هذه المجريات بدقّة ^(١).

وفي المدّة التي أقام فيها الرسول صلّى الله عليه وآله بقبا التقى الكثير من الجماعات بالنبي صلّى الله عليه وآله وتحدثوا إليه وقد أسلم العديد آنذاك ومن جملتهم سلمان الفارسي الذي جاء إلى النبي صلّى الله عليه وآله وأسلم على يديه وقد كان في ذلك الزمان عبداً يعمل لحساب امرأة يهودية، ستتكلّم عنه في المكان المناسب ^(٢).

وقيل إن حُيي بن أخطب اليهودي مع أخويه وكعب بن الأشرف من رؤساء اليهود اجتمعوا بالرسول صلّى الله عليه وآله في هذا الموضع، وبعد الحديث معه عرفوا أنه النبي الموعود، ولكنهم لم يكتفوا أن تركوا الإيمان به، بل أخذوا يضمرّون له العداوة، ذلك العداء الذي ظهرت آثاره فيما بعد ^(٣).

وفي آخر الأمر دخل النبي صلّى الله عليه وآله المدينة بصحبة علي وباقي الصحابة

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١١٨.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ١٠، البحار ١٩: ١٠٦.

(٣) البحار ١٩: ١١٠ وفي موسوعة التاريخ الإسلامي، ٢: ١٣؛ العنصرية اليهودية ج ٢ ص ١٢٤.

الذين كانوا معه، فكان الكلّ من مشتاقين إلى رسول الله ﷺ يرغب في نزول الرسول عنده ويحلّ ضيفاً عليه، وصار كل واحد يحاول الإمساك بزمام ناقة الرسول ﷺ عسى أن يأخذه إلى داره، فقال النبي ﷺ: «من على ناقته: أتركوها أينما بركت، فهي مأمورة، وقد تعدّ هذه واحدة من علامات النبوة التي تجلّت عند دخول النبي المدينة (١)».

والأمر الآخر الذي يستحق الذكر حديث يفترى وقد تناقله العامة وهو أن النبي يوم ورد المدينة صادف ذلك اليوم عيداً من أعياد اليهود وكانوا صائمين فيه، فسأل الرسول عن سبب صومهم، ف قيل إنه يوم عاشوراء واليهود يصومون هذا اليوم، فقال الرسول ﷺ: «أنا أحقّ بصوم هذا اليوم من اليهود»، فأمر أصحابه بصوم ذلك اليوم، وصام معهم.

وكان ذلك مستمسك العامة، فأخذوا بالاستناد إليه يؤكدون على استحباب صوم اليوم العاشر من المحرم (=يوم عاشوراء) ولكن يرد عليه أمور: الأول فإن الأخبار جاءت بأن الرسول ﷺ هاجر في شهر ربيع الأول وليس في المحرم، وثانياً فإن عيد اليهود هو العاشر من تشرى من السنة اليهودية التي تبني على الدورة الشمسية وهو يوم كپور وعيد كپور ويسمونه الكفور، ولعلّه في تلك السنة اتفق تزامنه مع يوم عاشوراء من محرّم، ثالثاً: إن عيد كپور لا يتطابق مع العاشر من المحرم في كل سنة، لأجل أن اليهود يكون عندهم في بعض السنين ثلاثة عشر شهراً، رابعاً: فإن اليهود لا يتخذون العاشر من المحرم عيداً، ولا يصومون هذا اليوم

لا في السابق ولا اليوم، خامساً: أن الأحاديث النبوية التي تنقل عن صوم يوم عاشوراء متضاربة وأكثرها ضعيف السند، ولذلك فالملاحظ أن إصرار العامة على استحباب صوم هذا اليوم لمخالفة الشيعة وناشئ من طغيان بني أمية الذي حصل بعد واقعة الطف وهو مصداق: يوم فرحت به بنو أمية وآل زياد بقتلهم الحسين عليه السلام ^(١).

الجو الحاكم في المدينة إبان الهجرة

تصعب دراسة الوضع في المدينة وتسلط الضوء على الظروف الحاكمة يوم هاجر الرسول إليها، فمن ناحية نجد أن الوثنية قد تغلغت في أعماق اعتقادات الناس خلال القرون المتتالية، ومن ناحية نشاهد استفحال اليهودية التي لها أربعمائة عام ولها رسومها وعاداتها الخاصة بها، ومن ناحية فإن الروحية العالية التي يمتلكها الشباب الداخلين في الدين الجديد والذين يسعون بحيوية وب نشاط تام في نشره ومحو آثار الوثنية، بحيث صارت تسمع أصوات تكسير الأصنام في السكك والأسواق كعلامة على قبول الإسلام، تلك الأصنام التي كانت تقدس قبل اليوم وهي اليوم بمنظر ومرأى من متعصبي الوثنيين تحطم وتداس بالأرجل، فإن من الصعب جداً تصوّر كل ذلك واستساغته، ولكن المحسوس آنذاك هو تهيوّ النفوس لاستلهاام الروح المعنوية المتعالية.

والذي يلفت النظر أن اليهود لم يقوموا بأيّ تبليغ ديني في تلك

(١) صوم عاشوراء، نجم الدين طهسي ٤٣-٤٧.

الأجواء الحماسية وذلك التوجّه المعنوي، وقبل ذلك فقد كانوا يعيشون مع الوثنيين من دون محاولة لكسب أيّ فرد إليهم، بل هم تأثروا بالوثنية، وذلك فإن أكل رؤسائهم الربا وكنزهم الأموال وتعاطيهم الخمر لم يبق للمعنوية مجالاً، كل ذلك الأمر الذي حدا بهم - وهم من أهل الكتاب وأصحاب دين سماويّ - إلى الانزواء واللامبالاة (المهجورية)، وفقدان الذاتيّة والاستقلال، وحتىّ بعض الشباب اليهود صاروا يميلون إلى الإسلام وحصل عندهم التردد تجاه دين آبائهم.

وصار عدد المسلمين يتزايد يوماً بعد يوم وأخذ صيت رسول الله ﷺ يملأ أرجاء المدينة وحواليها، وحصلت الفرصة للراغبين في زيارته وملاقاته ممن منعهم بُعد المسافة بين مكّة والمدينة من زيارته قبل ذلك، فأسرعوا إلى ملاقاته وزيارته، فحدث اضطراب شديد في المدينة وصارت تتوالى الأحداث حتىّ كان يحدث في كل يوم بل في كل ساعة حدث جديد، من هنا يسلم أحد رؤساء القبائل وهنا تنزل آية أو آيات من القرآن، وهناك يبلغ حكم جديد من أحكام الله، أو تحصل معجزة على يد رسول الله ﷺ وغير ذلك.

لما دخل رسول الله ﷺ المدينة، بادر إلى بناء مسجد حتى يكون للمسلمين موضع لاجتماعهم يخصّصهم، وساهم هو بنفسه في بناء هذا المسجد^(١)، ثم عطف على تنظيم أمور المدينة الاجتماعيّة، فعمل معاهدة بين المسلمين القادمين من مكّة وبين المسلمين من أهل المدينة أشرك فيها اليهود العرب.

الكلام الثاني

المرحلة الجديدة في ارتباط النبي مع اليهود

تنبغي الإشارة إلى أن اليهود كانوا فرقتين رئيسيتين، إحداهما يهود بني إسرائيل سيأتي الكلام عنهم، والأخرى اليهود العرب، وهم في الحقيقة المتهودون من العرب، كان رسول الله ﷺ يوليهم اهتماماً خاصاً، بحيث عيّن لهم حقوقاً ووظائف في المعاهدة التي أبرمت بين المهاجرين والأنصار، نجد في هذه المعاهدة التي جاءت متناسبة مع اللغة والظروف في ذلك العصر، أنه قد أبرمت أموراً هامة من أجل تنظيم الروابط الاجتماعية في المدينة وعامة أمورها التي لها بالغ الأهمية وهي كما يلي:

المنشور العام الأول بعد الهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل (يَثْرِب) ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم

وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو عوف على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو الحارث على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو جشم على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو النجار على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو النبيت على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

و بنو الأوس على ربعتهم، يتعاضلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وان المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى

دسيعة ظلم أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم^(١).

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يحير عليهم أذناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وأن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة لا يُسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وأنه لا يجير مشرك^٢ مأللاً لقريش، ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا يرضى ولي المقتول (بالعقل) وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في (هذه) الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر، إن ينصر محدثاً أو يؤويه وأن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وإنكم مهما

(١) إلى هنا جاء في الكافي والتهذيب. وابن إسحاق نقل في سيرته متفرقة.

اختلفتم في شيء، فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة - بطن من ثعلبة - كأنفسهم.

وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف. وإن البر دون الإثم.

وإن موالي ثعلبة كأنفسهم. وإن بطانة يهود كأنفسهم.

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ^(١).

وإنه لا ينحجز على ثأر جرح. وإنه من فتك في نفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا.

(١) لعل المراد منها أنه لا يخرج من المدينة إلا بإذن محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أو أنه لا يخرج من الطائفة التي انتسب نفسه إليها إلى الأخرى إلا بإذن محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

وإنه لا يأثم امرؤ بحليفة، وإن النصر للمظلوم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وإن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا تجار قريش، ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصّتهم، من جانبهم الذي قبلهم.

وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

وإن البر دون الإثم. لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على

أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم، وإنه من خرج آمن،
ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وإثم وإن الله جار لمن برّ واتقى
ومحمد رسول الله ﷺ (١).

الوحدة هي الأمنية العظمى

هذه أول خطوة للرسول ﷺ في طريق تأسيس مجتمع ديني متمدّن
ينادي بالصلح والمحبة والاتحاد والوحدة الاجتماعية وحفظ الكيان
والثغور الوطنية، وحرية الفكر وبيان الحقوق وتدوينها والوظائف
العامة والسياسية والتأمين على النفس والمعتقد للمسلمين واليهود.

وتعدّ هذه المعاهدة طريقة إلهية وتمدّن حكيم في طليعة حكومة
دينية من أجل رعاية حقوق أفراد المجتمع الإسلامي على اختلاف
انتماءاتهم.

وليس هذا حلاً مقطعيّاً لتجاوز عقبة مستعصية ولا هو نتيجة
ضغوط وإلجاء، بل هو منحة وإنعام وكرامة تفضل بها الرسول على
مسلمي ذلك العصر.

ولا يسعنا بيان بنود هذه المعاهدة لأننا بحاجة إلى كتاب ولكن
أهم ما فيها هو الدعوة إلى الاتحاد بين جماعات المسلمين وإيجاد المحبة

(١) مكاتيب الرسول ١: ٢٦١؛ سيرة ابن هشام ٢: ١١١؛ إعلام الوری: ٥٩؛ فتوح البلدان:
٦٠؛ العنصرية اليهودية ٢: ٨١، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٢٤.

والألفة وتحمل العبء عن الآخرين إلى حدٍّ أن يتحمل كل جماعة جرائم وديات أفراد تلك الجماعة وبالأخص فإن هذه المعاهدة بين قبيلتي الأوس والخزرج العظيمنتين اللتين طالما تنازعتا واصطرعتا وتحاربتا حروباً شعواء، أدّت المعاهدة إلى إيجاد الإخاء الديني الذي كان يرجوه مبعوثو القبيلتين إلى رسول الله ﷺ لما التقوا به في مكة وأظهروا السأم من تلك النزاعات (قصة ذكوان)^(١).

وفي ذلك اليوم وجدوا ما أمّلوه وطلبوه.

وكان رسول الله ﷺ يرى من الضروري إيجاد الوحدة بين أفراد المجتمع ويرى من اللازم تجديد هذه المعاهدة مثل ما تحقّق في بيعة العقبة وكتب ذلك لكي تتأمن المدينة التي صارت مهذاً للإسلام - على يد ساكنيها، تلك البقعة التي يحيط بها اليهود الحاقدون وفيهم الأشرار الذين يتخوّف من مكرهم، ووسوستهم في صدور حديثي الإسلام، فهذه المعاهدة المكتوبة هي الضامن لأمن المنطقة واستقرارها.

إن عقد معاهدة بهذا النحو لم يكن غريباً على العرب، بل كان سنّة مألوفة يتمسّكون بها إلى أبعد الحدود، ويعدّون من الوفاء بالعهد والحفاظ على كيائها الديني أو العرقي، كما وقد لوّح الرسول ﷺ فيها على أن الوفاء بهذا العهد من أساس الدين كما أن حقيقة الرسالة هي عهد إلهيّ حمله جميع الأنبياء.

وידعوننا إلى التأمّل والتدقيق نزول آيات سورة البقرة في هذه

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٦٥٠، إعلام الوری: ٦٥-٦٨.

المرحلة وقد بين الله سبحانه في إطار هذه الآيات ما جرى على بني إسرائيل والعهود والمواثيق التي أخذت عليهم ويذكر في المقابل على نقض بني إسرائيل العهود وعواقب ذلك النقض ونزول أنواع العذاب الإلهي.

ولما كانت الآيات تنطبق على تلك الأزمنة فقد كان لها معاني تشد السامع ولها وقع في نفسه، وهي اليوم تفتح بصر المتفكرين وتدعوا إلى إنذارات وعبر.

والأمر المهم الآخر في المعاهدة هو حماية الرسول ﷺ لليهود فيها وجاء ذكر أسماء طوائف لم يذكروا بعد ذلك إلا نادراً، ولعل أكثرهم قد أسلم أو سالم وبقي في جانب المسلمين، لأنه لم تأت أخبار تستحق الذكر عن مخالفتهم أو تعرّضاتهم للرسول ﷺ، وكان من بينهم عرب من الأوس والخزرج أو حلفائهم المتواجدون في المدينة وحواليها، ولعل ذكرهم وشمول ذلك اللطف لهم كان احتراماً للأوس والخزرج، ولم يحضر منهم رجل في مجلس الحلف وإلا لذكر اسم رئيسهم وكان هناك محل لإمضائه، وإذا حضر منهم أحد، يجب أن يكون من بني عوف لأنهم من العرب وهم من أركان المعاهدة، ويتراءى أن منح هؤلاء اليهود هذه الامتيازات لأنهم كانوا من أهل المدينة ولهم حقوقهم المدنيّة، ويعدّون من أهل الكتاب، ولذا فإن الرسول الذي يسير بالعدل قد حفظ لهم حقوقهم وعدّ أموالهم وأنفسهم محترمة وعاشوا بين المسلمين على دينهم حتّى من دون دفع الجزية، ولم يلزموا بترك دورهم وديارهم، ولكن لم تعلم غاية نفوذ هذا الحكم فإنه مما لا يعلم

بالدقة، وأتصور أن هؤلاء اليهود مكثوا في المدينة حياة رسول الله ﷺ من دون أن يدفعوا الجزية، إلا من نقض منهم عهداً، كما يبدو أنهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينية بحرية.

ومن الظريف أن الأصل الإسلامي ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) جاء في أول دخول الرسول ﷺ إلى المدينة وصار يعمل عليه، فإن النبي المكرّم بحسب مقتضيات المجتمع الإسلامي حكم بتساوي جميع أفرادها بالحقوق والوظائف وأبان عن ذلك بصراحة حينما قال: «إن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»، كما جاء في نصّ المعاهدة.

وكان الرسول ﷺ يهدف من وراء هذا النحو من التعامل مع اليهود إلى عدة أمور:

الأول: احترام يهود الأوس والخزرج من ناحية الأشخاص الذين أسلموا منهم،

الثاني: يكون قد احترّم أهل الكتاب مقابل المشركين والوثنيين من سكان المدينة،

الثالث: ترغيبهم بذلك العمل في دخول الإسلام.

الرابع: يكون قد راعى أصول الأقوام والطوائف التي كانت سائدة في ذلك الزمان خصوصاً في الأخلاق والمعاهدات، وكأن الإسلام يرضى بتلك الأمور، لأنه ذكر في المعاهدة اسم كل طائفة على حدة.

الخامس: أراد بذلك أن يزيل الدواعي لمقاومة الإسلام أو التظاهر عليه مع أعدائه ومناصرتهم.

السادس: أراد أن يشرك اليهود العرب في إدارة المدينة والدفاع عنها.

السابع: أن يساوي بين اليهود العرب في الحقوق.

الثامن: أن يعزل اليهود العرب عن يهود بني إسرائيل، ونحن نجد نتيجة ذلك إلى نهاية الهجرة.

التاسع: أنه لا يقبل للمتخلف والمتمرّد عهد ولا ميثاق، وتلغى حقوقهم التي كانت تراعى إلى اليوم.

العاشر: أن يكون الرسول ﷺ هو الحَكَم عند حصول النزاع.

فإن تلك الامتيازات لم تُنظر للمشرّكين العرب وعبدّة الأصنام في المدينة ولم يؤبه بهم في هذا الحال.

ومن الواضح أن احترام اليهود في هذه المعاهدة، ومنحهم بعض الحقوق المحدودة بنودها، لا ينافي الأحكام الشرعية التي تفرض تفاوتاً بين أهل الكتاب وبين المسلمين، فلا يحدث تصوّر أن الرسول قد جعل اليهود في مرتبة المؤمنين وأنه ساوى بينهما في أحكام الدية والإرث وغيرها.

فقد بيّنّا سابقاً أن الرسول ﷺ كانت له طريقتان في مواجهة

اليهود: إحداهما مواجهة مذهبهم وأفكارهم يعني في الجانب الثقافي والنظري، والأخرى مواجهة أشرار اليهود والمتخلفين وناقضي العهد، فإن حالهم يختلف عن سائر اليهود، وقد أشار القرآن إلى هذا التمييز حيث يقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾^(١).

فعلى هذا تكون المماشة والمعايشة السلمية مع الجيران اليهود المسلمين والمؤدبين المراعين لوظائفهم مقبولة عند الرسول ﷺ، ولكن لا يفسر مثل ذلك بميل النبي ﷺ إلى اليهودية.

ولعل مثل هذا التصور الخاطئ أدى إلى أن يتوهم البعض أن الرسول ﷺ كان قد أرشد المسلمين في صدر الإسلام إلى اليهود الذين كان لهم مجتمع ديني ولهم أحكامهم الدينية المستندة إلى كتاب سماوي ووافقهم على اعتقاداتهم، حتى أن ولفنسون قال:

«إن الرسول كان يرغب المسلمين في التقرب إلى اليهود»^(٢).

فإن هذا افتراء على رسول الله ليس أكثر، ولا يستفاد ذلك من هذه المعاهدة، وعلى العكس من ذلك فإن المستفاد بوضوح من الآيات المكية والمدنية هو مخالفة الرسول ﷺ لليهود، وما زال ينهى عن أخذ أحكام الله منهم، واليهود أنفسهم كانوا يكذبون الرسول ﷺ ولا يقبلون القرآن.

وكذا فإن استنباط المستشرقين تمايل الرسول ﷺ إلى اليهود في أول

(١) البقرة: ١٠٥ واليمنة: ١ و٦ والحشر: ٥٩.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٢٤.

الهجرة ومماشاتهم وأنه خطأ معهم بضع خطوات لأجل كسب ودّهم وعطف نظرهم على قبول الإسلام مردود أيضاً^(١)، كما أشرنا إليه في مبحث صوم عاشوراء.

والأمر الذي إفتري على المسلمين أعني ما نقله ولفنسون عن مستشرق باسم جودين، من أن ثلاث طوائف عظيمة من اليهود شاركت في هذه المعاهدة ولكن لما وقعت الحرب بينهم وبين الرسول ﷺ مسح المسلمون أسماء هذه الطوائف من تلك المعاهدة، لعدم مشروعية محاربة أولئك المعاهدين مع الرسول ﷺ^(٢).

لأننا نريد القول إن أولئك الطوائف الثلاث (أعني بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة) أبرموا - وبطلب منهم - معاهدة أخرى مع الرسول يأتي الكلام عنها تحت عنوان المعاهدة الثانية.

والمعروف بين المؤرخين أن هذه المعاهدة أيضاً انعقدت بين الرسول

(١) ذكر بعض محققي العامة ذلك في خصوص مسألة القبلة ولكنه إشتباه محض عندنا، أنظر كتاب العنصرية اليهودية ٢: ٣١٩، والعلاقات: ٢٧٦، وتاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٢٤. فإن رسول الله ليس فقط لم يكن راغباً في متابعة قبلتهم، بل كان يرغب في تحويل قبلته إلى الكعبة، أنظر تفاسير أهل البيت ذيل الآية الشريفة.

وفي الخبر: إن رسول الله ﷺ نهى أن يفرق المصلي بين قدميه في الصلاة وقال إن ذلك فعل اليهود ولكن أكثر ما يكون ذلك نحو الشبر فما دونه وكلما جمعها فهو أفضل إلا أن تكون به علة (بحار الأنوار ٨١: ٣٢٧). وقال النبي اتقوا اليهود والهنود ولو إلى سبعين بطنا. (أنوار النعمانية ١: ٦٧).

ولما رأى علماء اليهود الاختلاف في كثير من الأحكام قالوا: ما يريد هذا الرجل، أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه (الدر المنثور ١: ٢٥٨)، فهل هناك علامة تشير إلى تمايل الرسول ﷺ إلى اليهود؟؟!

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٥٢ و ١٣٢.

واليهود، ولكن الموجود في متنها هو عقدها بين المسلمين الموجودين في المدينة أعم من المهاجرين والأنصار ولم يذكر فيها اليهود، وإذا جاء ذكر بعض العرب اليهود فلاجل أنهم كانوا من سكان المدينة وحلفاء المسلمين العرب، تقرّر لهم بعض الحقوق وعليهم بعض الوظائف والعهد، ومهما يكن من أمر، فإن هذه المعاهدة تختلف مع المعاهدة التي اقترحها اليهود على الرسول ﷺ.

والكلام في تلك المودعة يدور حول إراءة منشور ومقرّرات قرّرها الرسول ﷺ بابتكاره وإملائه للمهاجرين والأنصار لأجل تنظيم روابطهم مع البعض ومع يهود المدينة، وبحسب الظاهر فليس لليهود دور في تنظيم تلك المعاهدة ولذلك نذهب إلى عدم حضورهم في مجلس المعاهدة والحلف.

أهميّة هذا العهد

إن أهميّة هذا العهد آتية من ناحية انطوائه على كيفية إدارة المدن واستتباب الأمن والاستقرار والحيلولة دون النزاعات الداخليّة، والإبقاء على بعض العهود القبليّة التي كانت قبل الإسلام، وأيضاً فإن رعاية حقوق الآخرين على أساس القسط الذي تكرر ذكره في المعاهدة مما يلفت النظر، جاء هذا مقارناً لحصول الاختلال في توازن القوى الناشئ من إسلام البعض دون الآخر، كإسلام الابن دون الأب أو الزوج دون الزوجة وبقائه على الشرك أو اليهوديّة، وكذا فإن عطف

نظر زعماء القوم على حفظ الثغور وتعيين وظيفة كل قبيلة في قبال ذلك، وكذا إيجاد الوحدة والتآلف بين المهاجرين والأنصار بحيث لا يفتخر أحدهما على الآخر ولا يتعدى عليه، ومنح اليهود الحقوق المدنية التي يتمتع بها المسلم في مقابل تحمّل المسؤولية اللازمة، كلّ ذلك من امتيازات هذا العهد.

ويعلم من بنود هذه المعاهدة أن ظروف ذلك الزمان كانت تفرض إيجاد تلك الوحدة، وأن نفسية القبيلتين (الأوس والخزرج) كانت مستعدة لقبولها، ولكن محو كلّ الرواسب الذهنيّة المرّة وما خلّفته النزاعات السابقة، والعصبيات الجاهلية، لا يتيسر إلا تحت لواء الإسلام وفي ظل نورانيته ومعنويته، نعم كان لبناء مسجد المدينة والحثّ على المشاركة في صلاة الجماعة والجمعة، دور أساسي في تعزيز تلك الوحدة، وكذا تحكيم المعايير الدينيّة على التعهّدات الأخرى ولم يكن مطروحاً قبل ذلك الزمان، وكذا فإن التأكيد على بعض الأحكام مثل حرمة دم المؤمن ووضع القصاص العادل، وأن نفس المؤمن بنفس المؤمن دون الكافر، وإنفاذ أوامر الرسول وإثبات حاكميّته بأن يكون هو الحكم في كل نزاع بين الطوائف، ساهم كل ذلك في استمرار قداسة النبي ﷺ ورسالته، وصار يعطي كل من ينتمي إليه مكانة أكبر، حتّى أن يهود بني عوف صار لهم امتياز في تلك المعاهدة لأن النبي ﷺ ورد على قبيلة بني عوف أولاً حينما هاجر إلى المدينة وكان منهم المسلمون الأوائل من الأنصار.

الكلام الثالث

التعامل مع يهود بني إسرائيل

نحن نعلم أن الرسول ﷺ مبعوث إلى جميع العالم بما فيهم اليهود، وكان نصف أهالي البقعة التي يبلغ فيها من اليهود، فصرف شطراً من حياته في مجابتهم، الأمر الذي يدعونا إلى مطالعة عمل اليهود والرسول ﷺ والتأمل فيه، وبما أن الدين الإسلامي كان يتقدّم وهو دين لعامة البشرية إلى يوم القيامة، فلا بدّ من أن ترسم صورة عن العمل في الظروف المختلفة كي يتخذ سنّة جارية، وتطلع الأجيال القادمة والدول الإسلاميّة على كيفيّة التعامل مع غير المسلمين خصوصاً اليهود، ومن هنا كانت خطورة هذا الموضوع كبيرة، وهدفنا النهائي في هذه الرسالة ليس هو النقل وإن كنا مضطّرين إلى ذلك، بل هو الوصول إلى النظرة الواقعيّة ومعرفة الجذور الأخلاقيّة والاجتماعيّة واكتشاف الأسباب والدواعي وراء المواجهات والمعارضات التي حدثت بين الرسول ﷺ واليهود اعتماداً على الروايات والأخبار المعتمدة.

فإن عمل الأنبياء مثل أقوالهم ينبع من الحكمة ويصير سنّة من بعدهم على أن لا تغفل عن بعض الحقائق مثل نبوتهم ومقام العصمة

والتأييد الإلهي الذي طالما حالفهم، والملك المقرب جبرئيل الذي شمر عن ساعد الجدّ في خدمتهم، وغيرها من الحقائق.

ومهما كان ذلك العمل فمنشؤه أمر الله سبحانه ومقام الولاية والإشراف وليس هو عمل انفعالي وعفوي، وذلك أن التدبّر في آيات القرآن يوصلنا إلى أن مثل خطاب القرآن وعتابه وكذا عمل رسول الله ﷺ لما كان من منطلق الهداية والتربية ومبني على الحكمة لا يعدّ إهانة ولا تحقيراً، بل لا يزال توجيهاً وهداية، فبعنوان المثال نجد أن القرآن يأمر النبي بالإعراض عن عمل المنافقين وفي نفس الوقت يأمره بالوعظ فيقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(١)، حيث نشاهد الجمع بين الإعراض والموعظة، أو نشاهد توبيخ اليهود مع الدعوة إلى وجه الاشتراك في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢)، فإن خطاب المعلمين والرسل وعتابهم له حساب آخر، ولا يعني من مثل توبيخ الرسول ﷺ المجابهة والمنافرة، بالإضافة إلى ملاحظة اختلاف معاملة الرسول ﷺ مع اليهود المهذبين، عن معاملته مع اليهود المشاكسين، وبصورة كلية فإن معاملة الرسول مع اليهود لم تكن تشير العواطف، والدليل على ذلك وجود أعداد كبيرة من اليهود في

(١) النساء: ٦٣.

(٢) آل عمران: ٦٤.

مركز الدولة الإسلامية يعني المدينة، وإشغالهم أهمّ المراكز الاقتصادية من أوّل الهجرة إلى وفاة النبي ﷺ.

كان الرسول ﷺ يعامل اليهود كأب حنون، يريد سعادتهم وسلامتهم، وكان يدعوهم إلى الإسلام بمتهى الرفق ويذكر لهم الحجج والبراهين ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويحذّرهم ببيان ما أصاب بني إسرائيل في سالف الأيام^(١)، فكم كان يصابر على جواب أسئلتهم ولم يترك سؤالاً إلا ويجيب عليه إلا أن ينتظر فيه الوحي، هذا وقد تناقلت كتب الأخلاق والسيرة نماذج كثيرة من ملاطفة الرسول ﷺ ورحمته باليهود كأنموذج مما مدحه به الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

علمنا أن يهود المدينة هم في الأصل طائفتان وعندما دخل الرسول المدينة ميّز بينهما كما علمنا ذكر اليهود العرب الساكنين في المدينة وأطرافها في العهد الأول ولهم أن يبقوا على يهوديتهم، ويعيشوا مع المسلمين بسلام، نعم جعلت عليهم بعض الوظائف التي يجب عليهم تحقيقها وهو مشهود في المواقعة.

(١) البحار ١٣: ١٨٦، عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام ٢٥٦ و ٥٤٦: أقبل رسول الله على اليهود وقال: احذروا أن ينالكم بخلاف أمر الله وخلاف كتاب الله ما أصاب أوائلكم الذين قال الله فيهم: فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، وأمروا بأن يقولوا.....، فقال الله تعالى: «فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً» عذاباً «من الساء» طاعونا نزل بهم فمات منهم مائة وعشرون ألفاً، ثم أخذهم بعد ذلك فمات منهم مائة وعشرون ألفاً أيضاً وكان خلافهم أنهم لما أن بلغوا الباب رأوا باباً مرتفعاً فقالوا ما بالناس نحتاج إلى أن نركع عند الدخول هاهنا ظننا أنه باب منحط لا بد من الركوع فيه وهذا باب مرتفع إلى متى يسخر بنا هؤلاء يعنون موسى ويوشع بن نون... الحديث

(٢) القلم: ٤.

وأما يهود بني إسرائيل فإن النبي ﷺ تركهم وحالهم ولم يتعرّض لهم، وكأنه ينتظر ردود الفعل من قبلهم تجاه تواجده في المدينة، ويستنبط في هذا النحو من التعامل أنهم لو سكتوا ولم يحرّكوا ساكنًا وتركوا رسول الله ﷺ يتابع أعماله كان بإمكانهم البقاء على يهوديتهم والعيش بسلام حتّى من دون دفع الجزية.

ويشهد لذلك العهد الثاني مع الطوائف الثلاث اليهودية المبتني على أصليين أساسيين الذين اقترحهما اليهود وهما:

«لليهود دينهم وللمسلمين دينهم» و«أن لا نكون لك ولا عليك».

وبذلك نجد أن بعض اليهود الذين وفّوا بما عليهم من الحقوق بقوا في المدينة في زمان رسول الله ﷺ وبعد وفاته من دون دفع الجزية، ولم يزاحمهم أحد^(١)، وأن بعضهم ممن أدرك رسول الله ﷺ وكان عليهم أن يؤمنوا به، أسلموا في خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام، يعني بعد ثلاثين سنة، وهذا يعني بقاءهم على يهوديتهم إلى ذلك الحين.

وهو يعكس عدم وجود ضغوط تجبرهم على الإيمان بالرسول فقد كانوا يتمتعون بتمام الحقوق ومظاهر الحياة في المدينة، وما كانت دعوة الرسول ﷺ في وسطهم إلا الإرشاد بحيث لا ينافي ذلك العهد، لأن إبلاغ الرسالة هو واجبه الإلهي، فكان يحضر اجتماعاتهم ويدعوهم برفق، أو كان يبعث إليهم سفيرًا ينفذ مهمّته الإرشادية، حتّى قيل إنه

ذهب إلى كنيستهم وتكلم معهم فأسلم واحد من بينهم ^(١).

وقالوا إنه كتب إلى أهل خيبر كتاباً يذكرهم فيه على العهد المأخوذ عليهم في نصره نبي آخر الزمان ودعاهم فيه إلى الإسلام ^(٢).

وفي خبر أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل خيبر كتاباً دعاهم فيه إلى الإسلام، فصار عظماء اليهود في صدد التحقيق عن الرسول كي يجيبوا على كتابه ^(٣).

معاهدة مع يهود بني إسرائيل

وكان رؤساء يهود بني إسرائيل يظنون أن قريشاً ستكفيهم أمر رسول الله ﷺ ولا تشملهم دعوته، ولكن بمجرد دخول النبي ﷺ المدينة، علم اليهود أنهم في قبال أمر خطير، وأنهم إذا آمنوا فقدوا رئاستهم، وإذا خالفوا هلكوا.

(١) تفسير الميزان ١٨: ١٩٨.

(٢) جواباً على كتاب النبي ﷺ إلى أهل خيبر أنهم بعد التشاور مع عظماء اليهود وجّهوا عبد الله بن سلام أحد رؤساء اليهود مع أربعة آلاف مسألة وأربع مسائل مستخرجة من التوراة حتى جاء بها إلى النبي ودخل عليه مع جماعة من اليهود ليسألوا عن تلك المسائل ويعرفوا حقانيته، وما أن دخلوا عليه حتى أخبره النبي بقصده وما جاء له والمسائل التي جمعها، فسأل بعض أسئلته وتيقن أنه النبي الموعود، فأمن به في الخفاء، فقال عبد الله: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت فأخبئني عندك وابعث إلى أحمالي فسلهم عني، فخبأه رسول الله ﷺ وبعث إليهم فجاءوا، فقال: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: هو خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وعالمنا وابن عالمنا، قال: رأيتم إن أسلم أتسلمون فقال: يا عبد الله بن سلام اخرج إليهم، فلما خرج واعلم إسلامه، قالوا: شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا فقبلوا كلامهم، فقال ابن سلام: قد أخبرتك يا رسول الله إن اليهود قوم بهت.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٨، وفي التبيان ١: ٣٣٦، وإعلام الوری ١: ١٥٧.

ففي الخبر أن أحبار اليهود اجتمعوا في خيبر وتشاوروا وقالوا: إن محمداً قد أفسد شبابنا واجتذبهم إليه، يجب أن نذهب إليه فنسأله عن أساس علمه، وعما يدعو إليه^(١).

فقد حضر رؤساء الطوائف اليهودية الثلاث، وتكلموا معه، وتوصلوا إلى عقد معاهدة وتوقيع وثيقة لا يعلم بالدقة تاريخ انعقادها، والأقوى أنها قبل نفر بني قينقاع، لمجيء الكلام عن مخريق اليهودي الذي كان قد أستشهد في معركة أحد وهو رئيس بني قينقاع.

أنظر إلى متن الرواية: قال علي بن إبراهيم بن هاشم: وجاءته اليهود قريظة والنضير وقينقاع فقالوا: يا محمد إلى ما تدعو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وإني الذي تجدونني مكتوباً في التوراة، والذي أخبركم به علماءكم أن مخرجي بمكة، ومهاجري في هذه الحرّة، وأخبركم عالم منكم جاءكم من الشام فقال: «تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور لنبيّ يبعث في هذه الحرّة، مخرجه بمكة ومهاجره ههنا، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، يركب الحمار ويلبس الشملة، ويجتزي بالكسرة، في عينه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة، ويضع سيفه على عاتقه لا يبالي من لاقى، وهو الضحوك القتال، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر».

فقالوا له: سمعنا ما تقول، وقد جئناك لنطلب منك الهدنة على أن لا نكون لك ولا عليك، ولا نعين عليك أحداً ولا نتعرض لأحد

(١) موسوعة الفلاسفة المتصوفة اليهودية للدكتور عبد النعيم الحفني: ٣٣ وتاريخ العالم اليهودي ٢: ٢٠، تفسير الإمام الحسن: ٤٦٢ يراجع بحث إسلام ابن سلام..

من أصحابك ولا تتعرض لنا ولا لأحد من أصحابنا حتى ننظر إلى ما يصير أمرك وأمر قومك.

فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك، وكتب بينهم كتاباً ألا يعينوا على رسول الله ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا بيد ولا بكراع في السرّ والعلانية، لا لبيل ولا بنهار، والله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حلّ من سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم.

وكتب لكل قبيلة منهم كتاباً على حدة، وكان الذي تولّى أمر بني النضير حُيي بن أخطب، فلما رجع إلى منزله قال له إخوته «جدي بن أخطب» و«أبو ياسر بن أخطب»: ما عندك؟ قال: «هو الذي نجده في التوراة والذي بشرنا به علمائنا ولا أزال له عدوّاً لأن النبوة خرجت من ولد إسحاق وصارت في ولد إسماعيل ولا نكون تبعاً لولد إسماعيل أبداً»

وكان الذي ولي أمر بني قريظة كعب بن أسد، والذي ولي أمر بني قينقاع مخيريق، وكان أكثرهم مالاً وحنائق، فقال لقومه: تعلمون أنه النبيّ المبعوث؟ فهلّمّوا نؤمن به ونكون قد أدركنا الكتابين، فلم يجبه قينقاع إلى ذلك^(١).

(١) بحار الأنوار ٩٠: ٦٢ وج ١٩: ١١٠ و موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٨ أعلام الوري ١: ١٥٧. العنصرية اليهودية ٢: ٨٧ وقد ذكر في تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٧ عدة معاهدات ولكنه لم يتعرض لهذه المعاهدة ويظهر من كتاب العلاقات ص ٣١٥ أن المؤلف لم ير هذه المعاهدة، ولم يذكرها في أول البحث وقد يكون ذلك لأجل نقل المصادر الشيعية لها فقط ولكنه تكلم عن معاهدة النبي مع بني النضير بعد قتل كعب وابن سنية، وأنها كانت محفوظة عند أمير المؤمنين ونحن أسميناها المعاهدة الثالثة. ولا يخفى أنه قيل إن مخيريق الذي تولّى أمر بني قينقاع كان من بني النضير ولعل بمناسبة إرشادهم يوم أحد.

وامتياز هذا العهد أنه انعقد بطلب من اليهود فكان الرسول فيه من موقع القدرة، وسند هذا الحديث أفضل وإن كانت بنوده المنقولة مختلفة ولكن مضمونه واضح والأطراف فيه والموقعون مشخصون، وعلى أساسه ألزم اليهود أنفسهم بعدم الإقدام على ما يغيض الرسول والمسلمين فتحلّ دماؤهم للنبي وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم، هذا وقد كتب لكل طائفة كتاباً على حدة وكأن كل طائفة عقدت عهداً يخصّها، وقد لوحظ شأن أصحاب النبي وأن على اليهود ملاحظتهم، ولم يقرّر في هذا العهد جزية على سكانهم في المدينة وأطرافها، ولم يشترط خروجهم على شيء من إذن، ويكونون أحراراً في دينهم وممارسة طقوسهم الدينية.

ولعل اقتراح هذا العهد من قبل اليهود وتوقيعه، هو في الحقيقة قبول سلطة الإسلام بحيث إذا نقضوه تعرّضوا لخطر الإبادة.

أهمية المعاهدة الثانية

وقد جاءت في هذا العهد نكتة مهمّة وهي أن اليهود طلبوا الهدنة إلى أن يتبين حال الرسول مع قومه، فهو يحكي عن ثورة ونقل للسلطة، وهي فرصة محدّدة للنبي في قباهم تظل محفوظة، وينبغي الالتفات إلى أن هذه المعاهدة انعقدت حينما كان اليهود أكثر من أحد عشر ألفاً، وعدد المسلمين لا ينيف على ألف، فإن انعقاد هذا العهد في حريم اليهود ومواطنهم يعني يشرب وحواليها مع إطلاعهم الكامل على المحل وامتلاكهم القدرة

الكافية والتجارب اللازمة في خوض الحروب، وامتلاكهم لأقوى العُدّة الموجودة في ذلك الزمان، وامتلاكهم الأموال الطائلة، كل ذلك يعكس قدرة الرسول الإلهية، بحيث لا يمكن تحليلها بالموازين الظاهريّة.

وعلى هذا فكلّام بعض المستشرقين في تفسير ما وقع، بعدم وجود التوازن الذي ألجأ الرسول إلى الحيلة واتخاذ تلك السياسة لأجل تلافي ذلك الضعف مقابل اليهود غير صحيح، وما قولهم ذلك إلا لأن عقولهم قاصرة عن درك تلك القدرة والعزّة الأزليّة وتصديقها بالنسبة للأنبياء عليهم السلام ولا يسعهم درك ذلك بفكرهم المحدود.

معاملة اليهود مع الرسول ودواعيها

وكما قلنا مراراً إن رؤساء اليهود الواقفين على نصوص التوراة كانوا يعلمون أن الرسول الخاتم من العرب ومن أبناء إسماعيل وكانوا يرقبون ظهوره من سالف الأيام من بين العرب، وما زالوا في صدد إخماد نوره، وما زالوا يعادونه بغير انقطاع ولم يفتّر عداؤهم وإن كانت أنحازّه تتغير من فترة إلى أخرى.

فقد لاحظنا كلام حيي بن أخطب أنه قال: والله هو الذي نجده في التوراة والذي بشرنا به علمائنا، ولا أزال له عدوّاً؛ لأن النبوة خرجت من ولد إسحاق وصارت في ولد إسماعيل، ولا نكون تبعاً لولد إسماعيل أبداً^(١).

(١) البحار ١٩: ١١٠؛ العنصرية اليهودية ٢: ١٢٤، كلام صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن صارت زوجة النبي ﷺ.

والسبب الآخر لحقد اليهود وغيضهم هو فقدانهم لمناصبهم ورئاستهم وكيانهم الديني، إذ لم يبق مع ظهور النبي لعلماهم مكانة ولا أقل اعتبار، خصوصاً مع إخبار القرآن عن أخلاقهم الباطنية وأعمالهم السرية التي تهدم كل ما أسسوه في السابق، فصارت العرب تتعرّف على حقيقة من كانت تتعايش معه، وأن تلك الاحترامات والتوجّهات التي كانوا يبذلونها لهم لم تكن في محلها.

وقد غبر اليوم الذي كانت اليهود تصف نفسها فيه بأنها خير الأمم، وقد صار خير الأمم هي الأمة الإسلامية، وهي القدوة والأسوة للعالمين.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٢).

بالإضافة إلى اختلاف طريقة الرسول وطريقة علماء اليهود في أنظار الناس اختلافًا فاحشًا، سواء في الاعتقادات النظرية أو العمل، فإن عمل علماء اليهود وطريقتهم في الحياة بالخصوص أحبارهم ورجال الدين على خلاف ما أمر به الأنبياء وطريقتهم في الحياة الدنيا، مثل

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الأحزاب: ٢١.

أكلهم الربا وشربهم الخمر وطلب العلوّ والأناية والتميز العنصري وغيرها من آثار الأحكام التلمودية هي من جملة الموارد التي يتمايز فيها طريقة عمل الرسول مع طريقة عمل اليهود، فإن التاريخ يشهد أن الرسول ﷺ كان منزّهاً من كل تلك الرذائل.

وكان اليهود يقولون للعرب بصريح الكلمة: إنكم أميون ويحقّ لنا أن نأخذ أموالكم، وإذا أودع البعض عندهم أمانة، فإنهم لا يتورّعون عن الخيانة بها، ولا يجدون أي حزاة في وجدانهم ولا حرجاً في أنفسهم من ناحية العقيدة والتدين، ولعلّ تعايشهم مع عبدة الأصنام أورث عندهم هذه الحالة وجعلتهم بحيث لا يتحرّجون من ارتكاب الذنوب، لأنها لم تكن مذمومة عند المشركين.

وبعد ظهور الإسلام وتجلّى الأحكام الإلهية، صار اليهود في معرض نقد جديد ووضعت أعمالهم في الميزان الحقيقي وصار يحكم بها أصحاب الضمائر الحرّة، فلم تكن نتيجة ذلك إلا الخسران.

الصفحات المشرقة لليهود

ولا نترك القول بأن التاريخ الإسلامي الحافل بما ينسبه إلى اليهود من العناد وتأجيج الفتن بالنسبة للرسول، ينقل في عرض ذلك صفحات مشرقة عن اليهود الذين أسلموا وجاهدوا في سبيل الله، وأظهروا المودة والصدقة والنصيحة ودعاء الخير ونهاية الأدب، فإن هناك يهوداً كانوا على طيبتهم وسرعان ما أسلموا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ولأنهم

صاروا في زمرة المسلمين فهم خارجون عن دراستنا، فإننا لاحظنا في الآيات المكيّة أن الله سبحانه وتعالى مدحهم واستشهد بإسلامهم على السائرين: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾^(١)، فإن من المسلّم أن بعض الشباب اليهود اعتقدوا بالرسول، ولكننا لم يبلغنا دخولهم في الإسلام بشكل جماعي كالذي سمعناه عن إسلام الأوس والخزرج، أو لم نطلع على ذلك، مع أن اليهود كانوا هم أهل الكتاب، والأوس والخزرج من عبدة الأصنام، وليس سوى ما جاء من إسلام أهل اليمن الذين كان فيهم يهود كثيرون، فإنهم أسلموا بشكل جماعي^(٢).

وكذا يهود المدينة فإن منهم من كان مهذباً ويتعامل بكامل الأدب وحتى مع رسول الله ﷺ كانوا يأتونه من حيث الصداقة وهم على يهوديتهم، فإن كاتب الرسول ﷺ كان يهودياً إلى فترة، وهناك رواية عن الإمام الباقر عليه السلام تحكي عن تفاؤل بعض اليهود بالإسلام، فكانوا يذكرون أوصاف الرسول وبشائر الكتب المقدسة للمسلمين بحسن نيّة وصدق^(٣).

والمناظرات والجدال الذي كان يدور بين اليهود والنبي ﷺ

(١) الأحقاف: ١٠.

(٢) وذلك لما ذهب إليهم أمير المؤمنين عليه السلام بأمر من رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام.

(٣) نقل الشيخ الطوسي في التبيان والطبرسي في المجمع ١: ١٤٢، عن الإمام الباقر عليه السلام أن طائفة من اليهود لم يكونوا من المعاندين والكذابين وكانوا إذا رأوا المسلمين، ذكروا لهم صفات رسول الله التي ذكرت في التوراة حتى نهاهم عظماءهم وقالوا: تخبرونهم بما جاء في التوراة من صفات محمد ﷺ يمتحنون بذلك عليكم عند الله سبحانه! وقد نزلت آية ٧٦-٧٧ من سورة البقرة في هذا الشأن.

والأسئلة الكثيرة التي يطرحها اليهود، تحكي عن وجود حالة سلمية نسبية مع النبي ﷺ، وإن كانت تلك المحاورات تنتهي إلى استكبار أكثر اليهود وتعتهم.

الفارق بين طوائف اليهود

هذا وقد ظل اليهود العرب على عهودهم ومواثيقهم في الغالب، يعيشون في المدينة مع الرسول ولكنهم كانوا قليلين، ولكن صحيفة أعمال يهود بني إسرائيل صارت تنطوي على حوادث مرّة وغير مستساغة، بحيث لا تصدق كلية الحكم بمسالمتهم وأدبهم، ويجب القول بأن مبنى روابطهم مع الرسول على أساس المنافرة والحققد وتصعيد النقاش إلى حد المحاربة وسفك الدماء.

الخيانة على البشرية

ولو أنهم مكثوا على الهدوء والسلم ولم يبرزوا كل تلك العداوة والشرّ مع الإسلام والمسلمين لأمكنهم العيش بكرامة في مواطنهم في ظل الأمن والازدهار الذي شمل الدولة الإسلامية، والأهم من ذلك سنوح الفرصة للقوى الإسلامية وجنود الرسول ﷺ أن يصرفوا همهم في مجال آخر، وأمكنهم الزحف والتقدم خارج حدود اليهود، خصوصاً أهل خيبر، وهل يعلم المسلمون أن التعرّضات اليهودية كانت قد حدثت في أهم الظروف وأكثرها حساسية، بحيث حالت

دون تجلّي الأسرار القرآنية وانتشار المعارف الدينيّة والعلميّة، وتعليم وتربية المجتمع الإسلامي، وتدوين القوانين المدنية الجزائية والسياسية العادلة، والنتيجة أنها حالت دون انتشار الإسلام الأصيل وتقدّمه. ولعل أفضل دليل هو مطالعة الأحداث والفتوحات والآثار التي أعقبت فتح خيبر، فهي تعبّر عن قدرة الرسول على الأخذ بالأمة الإسلامية إلى أعلى القمم، على رغم تواجد المنافقين اليهود في حياة المجتمع الإسلامي وحقاً على المسلمين أن يعرفوا عدوّهم الواقعي، ولقد أضرّ اليهود ليس بالمسلمين فقط، بل بجميع المجتمع البشري ضرراً لا يتيسر تلافيه.

اكتساب الذلّة الأبدية

على الرغم من أن أكثر اليهود لم يكونوا مع الرسول، ولكن البعض منهم صار يعلن عداؤه ونفرته أكثر، فصار يسبّ الرسول ويتمسخر بكل أفعال الرسول، ويمنع الآخرين من الانتماء إليه، فكانوا يقولون بصريح الكلمة إن محمّداً ليس هو النبيّ الموعود به في آخر الزمان، هذا وقد ذكر التاريخ أسماء بعض اليهود الأجلاف الذين اشتهروا بذلك^(١).

والذي كان يدعو اليهود لاستمرارهم على العدااء القائم مع الرسول ﷺ هو الوعد الإلهي بالنصرة في القرآن للرسول، والآخر

هي المعاجز التي كانت تظهر على يد الرسول المعجزة تلو الأخرى، ويليهما تنامي شوكة الإسلام وعظمته بين الناس، كل ذلك كان يثير حفيظة اليهود ويؤجج حقدهم، فاضطرب اليهود الذين صار نجمهم في أفول وشهرتهم في خمول وتراجع صيتهم وسيادتهم في الجزيرة العربية واغتاضوا من ذلك، وساهم في هذا الحال الآيات التي صارت تنزل وتخبر عن أحوالهم في الوهن المستمر، والذلّ وفقدان الاعتبار، لأن كلام الوحي يحظى بصدق اللهجة وله تأثير عجيب، فطال على أثر ذلك عداؤهم للقرآن المجيد فادّعوا أنه مجرد أسطورة وافتراء^(١)، جمع ذلك مع حسدهم الكامن في سرائرهم وسيرتهم، فولد نار الغضب في ضمائرهم التي لم تطفأ إلا بهلاك تلك القلوب السوداء، وانتهت باضمحلال الطوائف الثلاث اليهودية الكبرى في جزيرة العرب.

كيف تشدّدت مجابهة اليهود في أول الهجرة

كان اليهود في مجال مواجهة الرسول ومعارضته في حالة ترديد في أوّل الأمر، ولكن تشدّد عزمهم على مجابهة الرسول ﷺ شيئاً فشيئاً حتى حصل الجزم بذلك، وفي البداية علم اليهود بظهور النبي الموعود وليس من المناسب مواجهته بالحرب، والحال أن بعض علماءهم قد صدق به وأسلم، ومن ناحية أخرى لا يعلم ما سيؤول إليه أمره مع قومه قريش وهل يمكنه إقامة دولة أو أنه سرعان ما سيقتل بيد قومه

(١) العلاقات ص ٢٩٣. إن المؤلف المحترم قد دارس دراسة قرآنية في هذا المجال ولكن مع الأسف لم يراع ترتيب زمنية نزول الآيات وقد خلط أول الهجرة إلى آخره ولم تعتبر فيها تحول أخلاقهم من الاستسلام إلى العدى وإشعال الحرب. [وأنظر صحيح البخاري: ٣: ١٥٧].

وتنطفئ جذوته كأنبياء بني إسرائيل، فإن في تاريخ بني إسرائيل أنه لم يُمهّل بعض الأنبياء لأداء مهمّته التبليغيّة حتّى يوماً واحداً، يعلم ذلك من كلام بعض اليهود مع رسول الله ﷺ في أوّل الهجرة، قالوا: «جئناك لنطلب منك الهدنة على أن لا نكون لك ولا عليك ولا نعين عليك أحداً ولا نتعرض لأحد من أصحابك ولا نتعرض لنا ولا لأحد من أصحابنا حتّى ننظر إلى ما يصير أمرك وأمر قومك».

ثم إن الاختلاف القومي هو الآخر، عامل نفسي على صدّ اليهود عن الإقدام الجسور، لأن التعصّب القومي والقبائلي شديد بين العرب، فكان اليهود يتحرزون عن القيام بعمل صريح والإقدام على قتل الرسول ﷺ دون مساعدة قريش، وكانوا يرغبون في تحقيق القتل بيد قومه، فكانوا يتصوّرون مع الالتفات إلى عدااء قريش الشديد للنبي وموقعية أبي سفيان بين طوائف العرب أن ذلك الأمر سيتحقق بسرعة ولذلك أحجموا بعض الوقت.

ولعل هذه الحالة النفسية تتجلّى من طلبهم الهدنة وعقد المعاهدة التي تقدموا بها بصورة واضحة، بالإضافة إلى الرعب والخوف الذي ملأ قلوب اليهود المعاندين^(١)، وقد يكون ذلك قد سلبهم القدرة على اتخاذ القرار الحازم، ولذا طلبوا المهلة والهدنة لأجل التفكير بعض الوقت والتدبير ورسم خطّة عمليّة مناسبة.

(١) جاء في الأحاديث أن الرسول ﷺ كان منصوفاً بالرعب، وقد أكّد ذلك في القرآن ﴿وَقَدْ فَتَنَّا فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وذلك الرعب الذي ذكر نظيره في أصحاب الكهف في القرآن وكذا في كتب الأنبياء.

ولكن سرعان ما شملت نورانيّة القرآن وحلاوة آياته وحكمة
بيّناته كل الأرجاء واستمال حتّى بعض العلماء ورأس جواليث
اليهود، وأضاءت مناظرات الرسول العذبة والمستدلة أفكار السائلين،
واجتذبت أخلاق الرسول الحسنة ووقاره ورأفته القلوب حتّى بلغ
الحال أنه إذا توضع لم يقطر من وضوئه على الأرض قطرة بل يأخذه
الأصحاب يتبركون به.

بينما رؤساء اليهود المتغطرسون قد طلبوا العهد من جانب وقيدوا
أنفسهم بذلك، ومن جانب آخر تتأجج نار قلوبهم غيضا ولا يتمكنون
من إخفائها، وبعد تحقق الغلبة للمسلمين في غزوة بدر وذلك بالإمداد
الغيبي، نفذ صبر اليهود وظهرت أوّل بوادر نقض العهد بغلظة بني
قينقاع وحدّتهم، فبدأ فصل جديد من الروابط بين الرسول ﷺ ويهود
بني إسرائيل ستتكلّم عنه في القسم الثاني من الكتاب إن شاء الله.



الكلام الرابع

بيان القرآن عن اليهود في أوائل الهجرة

اليهود في القرآن أوائل الهجرة

قبل التعرض لغزو اليهود، من الأفضل أن نستعرض حال اليهود في أوائل الهجرة حتى نلاحظ حدود أخلاقياتهم من لسان القرآن، ونرى أن أخلاق هذا القوم تقوم وتستند على أي شيء، وما هي خلفياتهم وتاريخهم وكيفية تعاملهم مع الأنبياء السابقين والمقدسات الدينية وكذا تعاملهم مع الإسلام الحديث الظهور، وما هي ردود الفعل التي صدرت منهم، فإن حقانية القرآن وصدقه في الحديث تطمئن به القلوب الطاهرة وتصدقه.

القرآن يحدثنا عن المجتمع اليهودي في ذلك الزمان بشكل واسع ودقيق، بحيث يمكن دراسته تحت عنوان «علم الاجتماع اليهودي» وتسبر أغواره، فإنه غير الدراسة التفسيرية للآيات التي لها محدودياتها، حينما نشاهد أن الحديث عن اليهود وعملهم في إحدى سور القرآن يبلغ ثلث السورة أو نصفه، فلا يمكن قطع النظر عنها ويكون الكلام

عن «تعامل اليهود والنبي» بدون ملاحظة هذه الآيات ناقصًا.

ومن المهم جدًا أن نعلم سبب اهتمام القرآن بعقائد اليهود وسرائرهم ونواياهم وأفعالهم وسلوكهم، وما هو الهدف الذي كان وراء بيان قصص أنبياء بني إسرائيل وأممهم وفضح سوابق بني إسرائيل واليهود، وما علاقته بيهود زمان النبي ﷺ وإلى أي حدّ، هل كان أكثر يهود المدينة من بني إسرائيل كي يجيء خطاب «يا بني إسرائيل» وهل إن عمل أجدادهم له من القداسة عندهم حتى يؤاخذوا به ويلاّموا عليه، هل إن الربّ الحكيم سبحانه أراد بتوجيه ذلك اللوم الذي لا يرضونه تحذيرهم كي ينصرفوا عن الكفر والإلحاد، أو أنه أراد أن يعتبر المسلمون بحالهم ولا يتخذونهم أولياء، أو أنه أراد أن يبين حقيقة اليهود لجميع العالم. ونحن نأمل أن تكون هذه الدراسة تحذيرًا للقراء اليهود، ولا تكون مجرد تقريع وإيلام فيتركون مطالعة الكتاب فإن في هذه السورة وكما هو مشهود، تقريعًا لأجداد اليهود على أعمالهم الكافرة، ذلك الكفر الذي أخرج أعقابهم أيضًا عن جادة الحق، فإن من الواضح أن اليهود في زمان النبي لو تركوا الكفر والظلم لم نشهد اليوم كفر اليهود وإراقتهم لدماء المسلمين وغيرهم.

واليهود اليوم أيضًا مسؤولون أمام دعوة نبي آخر الزمان محمد المصطفى ﷺ عليهم التحذر من غضب الله والرسول، وعليهم أن لا يعملوا ما يستوجبون به اللعن والنبور من الأجيال اللاحقة.

اليهود في سورة البقرة

نعلم أن الرسول ﷺ حينما هاجر إلى المدينة توجه إليها بعد تمهيد وطلائع، وقد هاجر إلى المدينة ودخلها بعض المسلمين، وقد مهد لها قبل ذلك النقباء والأنصار من الأوس والخزرج، فإن هجرة النبي ﷺ وإن كانت مفاجئة بالنسبة لقريش ولكن في الحقيقة كانت مع التخطيط والتمهيد الكامل، وكان الأنصار يبشرون بمجيئه إلى المدينة، واليهود لم يكونوا عالمين بما ستأتي به الأيام ولم يكونوا يتوقعون أن يروا تمايل علمائهم إلى النبي بهذه السرعة وحضورهم في خدمته الأمر الذي يؤدي إلى تشتت الأمة اليهودية وضعفها.

نزلت سورة البقرة في أوائل الهجرة وقيل إن المائة آية الأولى نزلت في شأن يهود المدينة^(١)، والأصح أكثر من هذه، وبهذا تكون مرآة لعمل اليهود في السنة الأولى والثانية للهجرة وتكون لها أهمية كبرى في دراستنا، ونلفت الأنظار إلى أن شأن نزول الآية لا يؤدي إلى تخصيصها، بل إن بيان القرآن عام وشامل ولا يتحدد بزمان ولا مكان، ولو أنه نازل في مورد خاص، ويمكن أن نكشف النقاب من خلال هذه السورة -بالإضافة إلى ما تنطوي عليه من المعارف المتعالية الشاملة- عن مجابهة يهود المدينة للرسول ﷺ وكيفية مخالفتهم، وبصورة كلية نستنبط عمل اليهود في أوائل الهجرة، فإن هذه السورة تعكس استمرار تحدياتهم وتداولها.

(١) قال ابن إسحاق: بلغني أن صدر سورة البقرة إلى المائة منها، نزل في هؤلاء من أحبار اليهود والمنافقين من الأوس والخزرج (سيرة ابن إسحاق ١: ١٣٢)

والأمر المهم أن نزول هذه الآيات في الحقيقة يدخل في إطار حرب باردة مع اليهود في المدينة يؤدّي في النتيجة إلى انهيار قواعدهم في ديارهم على الرغم من تاريخها وسابقتها ونفوذها الاقتصادي والثقافي، ويجعلها منفورة عند المسلمين، ويفقد اليهود تلك المنزل والمكانة التي حصلوا عليها بين قريش والأميين.

وليس هذا الأدب الرفيع المدمر لقواعد اليهود الذي جاء به القرآن حكراً على سورة البقرة، بل إنه استمرّ في جميع هذا الكتاب السماوي وإلى آخر ما نزل الوحي، مما يحكي عن خطورة اليهود وخطورة تواجدهم وتحديهم في كلّ أمة وكلّ مجتمع يسير في طريق الإصلاح أو القيام بإصلاحات أساسية على أساس التعاليم الإنسانية والإسلامية، ولكن بعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي وخروج زمام الأمر من يد المربي الإلهي، صار ذلك التنفّر من اليهود وأعمالهم يحمّد، وأخذوا يدبّون للنفوذ في حكومة الخلفاء الثلاثة، وصارت تراجع تلك النهضة التي تحققت بإرشاد الوحي وتدابير الرسول لتطهير الوسط الإسلامي من أفكار الشرك وآدابه ومن بدع اليهود ومنكراتهم وأخذت تسير القهقري، فضاع بعض أتعاب الرسول ﷺ وتمهيداته، ومع أن الدين الإسلامي بحسب الظاهر صار حاكماً على جميع الجزيرة العربية والدول النائية ولكن ليس كما أراد الرسول من الضوابط والآداب بل بالخطط التي تدخلت الأصابع اليهودية في تنظيمها وإملائها.

سنجد في هذه السورة أن مزاحمات اليهود في الأمور المختلفة الثقافية والسياسية والاجتماعية والأمنية والاقتصادية كانت من السعة

بحيث شغلت أكثر وقت الرسول ﷺ ونزلت آيات كثيرة من منبع الوحي لإصلاح ما أفسدوه وإبطال مفعول وساوسهم وإلقاءاتهم وأفكارهم، وهو أكبر دليل على هذه الدعوى.

ونحن تركنا ذكر آيات القرآن اختصاراً ونحيل القارئ الكريم إلى كتابنا «الرسول المصطفى واليهود».





الفصل الأول

دورة جديدة من علاقات اليهود والرسول

حصل من اليوم الأول تضارب فكري بين المسلمين واليهود - كما هو مستفاد من القرآن الكريم - لا يسمح ببقاء روابط حميمة بينهما، فهم يختلفون في الأصول والأسس، ولكن وجود أواصر القرابة المسبقة والروابط التجارية والاجتماعية القائمة حال دون انفصام تلك الأواصر بالمرّة. ومن الطبيعي فإن هذا الحال سيجرّ إلى نزاعات ومشاجرات فردية وكلام غليظ ونقاش وجدل في الزقاق والسوق ويعود أمراً عادياً.

وفي هذه الوهلة نزلت آيات من سورة البقرة وسورة آل عمران تلمح إلى غلظة اليهود في الخطاب خصوصاً مع المسلمين: ﴿تَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١).

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

(١) آل عمران: ١٨٦.

(٢) البقرة: ٢١٢.

تحدثنا الآية الكريمة: ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ عن المعاناة والخسائر المادية والنفسية التي سرعان ما ستصيب المسلمين من قبل اليهود والمشركين. فقلوه: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الآية هم اليهود الذين لا يسلمون ولا يتركون المشاكسة^(١).

وفي هذا الصدد نجد الرسول ﷺ يأمر المسلمين بالصبر والحلم ورعاية الأخلاق الإسلامية والجدال مع اليهود بالتي هي أحسن، عسى أن يرغبوا في الإسلام، ومع الالتفات إلى حرص المسلمين الجدد على إطاعة أوامر الرسول بحذافيرها فإذا حدثت أي مشاجرة مع اليهود يجب أن يكون السبب هو إساءته الأدب من قبل اليهود وإبرازهم حقدهم لا محالة.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ١٧٨. نقل عن عطاء أن الآية نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وقينقاع كانوا يسخرون من فقراء المهاجرين.

الكلام الأول

تهبيح اليهود وبدء إشعال الحرب

معركة بدر وأثارها على سلوك اليهود

كان الدين الإسلامي ما زال فتياً والمسلمون قليلون لم يجربوا الحرب من يوم بعثة الرسول ﷺ وقد توالى الأخبار والشائعات عن تجهيز قريش جيشاً لقتال المسلمين فكان الجو الحاكم في المدينة يلفت نظر جميع ساكنيها، واليهود الذين كانوا يرون أنفسهم في خطر صاروا يرتقبون مصير النبي ﷺ مع قومه لأنهم كانوا قد وقَّعوا معاهدة سلام مع الرسول من ناحية ولا يحق لهم الإقدام بنفع قريش على أن الرسول ﷺ لم يطلب منهم أن يدافعوا عن المدينة أمام هجوم العدو.

ومن ناحية أخرى يترصدون هلاكه وزوال أمره، فإن بقاء الرسول وعدمه مرهون بنتيجة تلك المعركة، فهم ينتظرون نهاية الرسول ﷺ في تلك المعركة خصوصاً وقد أطلع الرسول المؤمنين وبعض المنافقين واليهود على نتائجها قبل ذلك بستة عشر يوماً حتى أنه أراهم مواضع مقتل المشركين بدقّة، وحان الوقت لكي يعلم مدى صدق أخبار

الرسول ﷺ وعدمه، فإذا جرت الأحداث كما أخبر الرسول فسيؤدّي إلى تجلّي حقانيّته وبالتالي تعاظم شوكة المسلمين وقدرتهم، وتتضاعف رغبة الشّيبية في الإسلام وتضيّق الحلقة على اليهود، ولا يسع كتمان ذلك مع حساسيّة الموقف ومحدوديّة المدينة.

وبالتالي تجلّى علم الرسول ﷺ وقدرته، ففي عشية المعركة دخل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة المدينة على ناقة النبي ﷺ حاملين بشارة النصر إلى أهلها، فدهش اليهود ولم يصدّقوا وقالوا: «إذا كان الأمر كذلك فبطن الأرض خير لنا من ظهرها»، ولم يسعهم سوى تفنيد ذلك الخبر وقالوا: «إذا كان محمّد حيّاً لقدم وبشر الناس بنفسه وهذه ناقته بدون صاحبها»، ولا يحكي ردّ الفعل هذا سوى عن اندهاش اليهود وتحقّق ما لا يحتمل تحقّقه في تلك المعركة، وعلموا أن هذا النصر سيعقبه انتصارات أعظم وأكبر.

ولم يبدو من اليهود إلى ذلك الحين ما يؤدّي إلى نقض العهد، ولم تبلغ مؤشرات على ضلوع اليهود في هذه المعركة ولا عمل يقوي طرف المشركين على المسلمين.

ولكن انتصار الرسول ﷺ في بدر أدّى إلى تغيير أحوال اليهود، فتبدّلت أخلاقهم بصورة كليّة، وكأنهم يرون انكسار قريش هو نهاية لهم لأنه يضمن استمرار الدين الجديد.

فإن نتيجة تلك المعركة غير المتوازنة والأخبار التي بلغتهم عنها أدّت إلى حكومة الرعب فيهم، فمن اليوم فصاعداً لا تجد أيّ طائفة

بنفسها القدرة على مواجهة المسلمين، ولم يكن من السهل تأليف اليهود وجعلهم تحت راية واحدة، ولذلك اضطربوا اضطراباً شديداً، وصار ذلك الغضب يبرز من شذرات كلامهم وبعض أفعالهم، خصوصاً بنو قينقاع الذين كانوا على مقربة من المدينة وتكثر مخالطتهم للمسلمين، فهم أول من ظهرت منهم تلك البوادر، وقد كانت ردود الفعل حينها شديدة، وصار أذى اليهود بمقدار من الشدة والغلظة، بحيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾^(١) فالآية تتكلم عن احتمال وقوع القتال مع اليهود.

ولم يكتف شعراء اليهود ذلك الغضب وصاروا يهجون المسلمين والرسول ومن جملتهم أبو عفك اليهودي الذي كان له من العمر ١٢٠ سنة ولا يقدر على أي عمل إلا الشعر، ولا يتمكن من إبراز غضبه إلا بالشعر.

فقد نقل الواقدي فيه: «ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ونصره الله، حسده وقال شعراً وهجا فيه النبي، فقال سالم بن عمير من بني النجار، عليّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، وفي شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة كانت ليلة صائفة، نام فيها أبو عفك بفناء بني عمرو بن عوف، فأقبل سالم بن عمير حتى وضع السيف على كبده وغرزه في الفراش، وصاح الرجل ومات، وثاب إليه ناس، فقبّروه في منزله»^(٢).

(١) آل عمران: ١١١.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٢.

ومن ناحية أخرى فإن كعب بن الأشرف رئيس بني النضير وشاعرهم، سافر إلى مكة المكرمة والتقى بعظماء قريش، وأخذ يرثي قتلى قريش في بدر وشوقهم للقيام بإقدام آخر، وقد هجا الرسول ﷺ والمسلمين في شعره، بحيث قلب الأجواء في مكة. فأمر رسول الله ﷺ الشاعر حسان بن ثابت أن يجيبه، فأجابه حسان وحمل عليه إلى حد أن المرأة التي كانت تستضيف كعباً وكان في بيتها، اضطرت لأن تلقي متاعه ورحله خارج الدار وطلبت منه أن يغادر، ولم يطق كعب البقاء بعدها في مكة فعاد إلى المدينة (١).

ويعلم من ذلك مدى أهمية الشعر في المجتمع يومذاك ووقعه كوقع السيف أو أكثر فلا يتصور أن إنشاء عدة أبيات شعر في الهجاء لا أهمية لها ولا يعدّ جرماً، بل الأمر بالعكس. ويعلم من سماح الرسول ﷺ أو رضاه بقتل بعض الأشخاص مثل أبي عفك اليهودي يعني أن هذه الأعمال السيئة تعدّ نقضاً للعهد ويكون دمهم هدراً، وإن كان نقض واحد منهم لا يعني نقض جميع الجالية اليهودية للعهد، نعم إذا كانت تلك التعدييات من رئيس الطائفة أو كانت بحدّ من الشيوخ بحيث تعدّ نقضاً من جميع القوم أو تصل إلى مرحلة الاستهزاء بالأمة الإسلامية، فسيعني نقض تلك الطائفة أو تلك الجالية.

غزوة بني قينقاع

يرى المفسرون أن آيات من القرآن نزلت في هذه الغزوة، ومن جملتها:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ﴾ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿وَلَا يَخْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

وكما ترى فإن الآيات عبّرت عن يهود بني قينقاع بشرّ الدواب، والسبب في ذلك يعود إلى أن الرسول ﷺ لما قبلهم وأقرهم على دينهم، وأبرم معهم عهداً ولم يأخذ منهم الجزية على الرغم من كونهم يهوداً، فإنهم في المقابل وقفوا أمام الرسول وفي ذلك المأمن أعني المدينة وصاروا بصدد التخيث ومساعدة كفار قريش وبذلك نقضوا العهد وفقدوا اعتبارهم، ولا يمكن بعد ذلك الاعتماد عليهم في مجال الوفاء بالعهد؛ وإلا فليس من المستبعد أن يعقد الرسول ﷺ معهم عهداً آخر، وبذلك السبب لم يقبل منهم طلب البقاء في المدينة، والمستفاد من

(١) الأنفال: ٥٦ تا ٦٤، سيرة ابن إسحاق: ٣٢٣ وموسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٣.

قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَرَّةٍ﴾ في الآية أن هناك عهداً متعدداً قد تمّ عقدها، وفي كل مرة ينقضون العهد، ويعقدونه مرة أخرى.

وبعد نزول قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعم فأنا أخافهم»^(١)، وهو يحكي عن عدم اعتماد النبي على تلك الطائفة اليهودية.

والآية الأخرى التي يرى المفسرون أنها نزلت في بني قينقاع هذه الآية: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِىِ التَّقَاتِ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢).

فإن هذه الآية تحذر اليهود من السعي والمحاولة عبثاً، فإنهم سيُغْلَبُونَ لا محالة وجزاؤهم جهنم، يعني أن وقوفهم أمام الرسول ﷺ ومجاوبته، ذنب لا يغتفر ويوجب غضب الله سبحانه وتعالى ولا فائدة لهم في دنياهم، والله سبحانه يؤيد بنصره من يشاء كما نصر المسلمين في معركة بدر أمام المشركين، واليهود قد شاهد ذلك من بعيد، فعليهم أن يعتبروا.

(١) مغازي الواقدي ١: ١٧٧ و ١٨٠، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٤.

(٢) آل عمران: ١٢ و ١٣، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٧، وتفسير القمي ١: ٩٧، ونقل ابن إسحاق من عكرمة عن ابن عباس أن هذه الآية قد نزلت في شأن بني قينقاع.

عوامل غزوة بني قينقاع

ومع الإلتفات إلى أخلاق الرسول الحسنة، وسعيه الدائب في تجنب الحرب وتفضيل غيرها من الوسائل، فلا يصح القول بأن الرسول ﷺ كان يترقب الفرصة لقتال اليهود، بل إن غرور اليهود واستكبارهم وأنانيّتهم وكفرانهم النعم هي التي اضطرت الرسول الاتخاذ موقف حازم، فقد كان الرسول ﷺ وبمقتضى وظيفته الرّسالية بصدّد هداية اليهود إلى سبيل السعادة عن طريق النصيحة والإرشاد، حتّى إنه جمعهم في سوق بني قينقاع ووعظهم وقال ﷺ:

«يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل. تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

وما كان منهم إلّا أن قالوا: «يا محمّد إنك ترى أنّا مثل قومك، يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبّت منه فرصة، إنا والله لن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس». (أو لتعلمنّ أنك لم تقا تل مثلنا) ^(١).

فإن جوابهم يحكي عن نوع من الغلظة والتجاوز والمشاكسة التي اعتمدوها في المدينة.

وكذا فإن هذه الإجابة تحكي عن وجود إساءة أدب في السابق، إذ لا تتصوّر المبادرة إلى مثل ذلك التجاسر في أوّل مواجهة لدعوة النبي ﷺ، أما كان من وسعهم أن يجيئوا أفضل من ذلك الجواب، ويتذرعون بالعهد

ويطلبون البقاء على دينهم؟ أليس جوابهم ذلك هو إعلان للحرب؟

ومن ذلك يعلم أن قول ولفنسون في هذا الصدد: «لو وقفت تعاليم الرسول عند محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين»^(١) غير صحيح ومرفوض جداً. لأن الرسول ﷺ إنما أنذرهم بعذاب الله وحذّرهم من الله: «احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة» وهو داخل في رأفته عليهم، واليهود الذين عاينوا صدق ما أخبر به رسول الله ﷺ من نتيجة معركة بدر، فكان المفروض تصديق كلامه في هذا المورد، ولا أقل من رعاية الأدب ولكنهم أبوا.

وبهذا فإن أحد أسباب غزوة بني قينقاع هي مشاجرات اليهود الكلامية وحذوهم في الساحة العملية حذو قريش، وإعلانهم المخالفة والتأهب للمواجهة المسلحة.

والسبب الآخر: روابطهم مع المشركين التي صارت تتحكّم بعد انتصار الرسول في معركة بدر، فهذا أوّل نقض للعهد الذي عاهدوا عليه، حيث كانوا يبعثون بأخبار المدينة وتدابير الرسول ﷺ إلى قريش، فبلغ ذلك النبي محمد ﷺ وبعد نزول هذه الآية ﴿وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، قال: «نعم أنا خائف منهم»^(٢) ومنه يعلم أن تحرّكاتهم كانت بحيث أفزعت الرسول ﷺ، فإذا لم يكن ذلك نقضاً للعهد فهو مقدّمة للنقض ويجب أن لا ننسى أنهم عاهدوا على عدم التدخل في مشاجرة النبي

(١) وقال صاحب العلاقات ٣٠٧، (تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٣٤)

(٢) الأنفال: ٥٨. موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢: ٢٠٤.

مع قومه واتخاذ موقف الحياد الكامل، وعليه يكون تجسّسهم لصالح المشركين نقضاً لما عاهدوا، هذا وقد كشف القرآن النقاب في هذه الفترة عن إفساد اليهود وانحيازهم إلى عدوّ المسلمين، وكذا فإن المحقّقين المعاصرين لا يختلفون في مساعدة اليهود للمشركين بعد معركة بدر ويسلمون ذلك ويرونه أحد أسباب نقض العهد^(١).

فقد جاء وفقاً لما نقله الواقدي عن ابن كعب القرظي أنه لما انتصر الرسول في معركة بدر، حسده يهود بني قينقاع وطمعوا عليه ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه^(٢).

والسبب الثالث: مقتل رجل في سوق بني قينقاع، والقصة أن امرأة مسلمة جاءت بخمارها إلى سوق الصاغة وأغلبهم من يهود بني قينقاع، فاستهزأ بها بعض الشبان اليهود، وقد شاهد ذلك شابّ مسلم فجاء واعترض على ذلك الشابّ اليهودي، وتعالى النزاع بينهما حتّى سقط الشابّ اليهودي صريعاً على أثر ضربة الشابّ المسلم.

فاجتمع اليهود من جميع الأطراف وقتلوا ذلك الشابّ المسلم في ذلك المكان، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء وبمجيئه عاد الهدوء إلى ذلك السوق وتقرّر دفع دية اليهودي.

وأما الذي لا بدّ أن يلفت النظر إليه أن مدّة المهادنة^(٣)، وهو ترك

(١) العلاقات: ٣٠٤.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٢.

(٣) كلمة المهادنة والهدنة تعني ترك القتال وهي تفيد أن تلك المعاهدة هي متاركة القتال بشكل مؤقت.

القتال كانت إلى زمان تعيين حال الرسول ﷺ مع قومه، وقد انتهت بانتصار الرسول على قريش، فكان على اليهود أن يحدّدوا موقفهم اتجاه قبول الإسلام ورفضه، ولكن لماذا خُصّ بني قينقاع، ولعلّ خباثتهم كان لها دور في قلب أوضاع المدينة بحيث أدّت إلى سلب أمان الرسول ﷺ من ناحيتهم، ولذا ألزموا بذلك. ونتيجة ذلك أن الرسول ﷺ بعث إليهم رجلاً ليأمرهم بالنزول على حكم الرسول ﷺ فقط وليس أكثر، فهي المرحلة الأولى، والحال أن اليهود لم يكونوا يعلمون ما هو الحكم، ولعلّه دفع الجزية، ولكن عبد الله بن أبي منافق المدينة، بعث إليهم بأن يبقوا في حصونهم ولا ينزلوا على حكم رسول الله، وأنه سرعان ما سينصرهم، وكذلك فعلوا، ولم يجيبوا دعوة الرسول، بل آذنوا بالحرب. الأمر الذي أدّى إلى أن يتعامل الرسول ﷺ معهم بشكل جاد.

تاريخ الغزوة

نقلوا عن الواقدي أن غزوة بني قينقاع كانت بعد عشرين شهراً من الهجرة، حاصرهم الرسول ﷺ فيها من منتصف شهر شوال حتّى غرة ذي القعدة^(١). وفي موسوعة العنصرية اليهودية بـ ١٥ شوال من السنة الثانية للهجرة، ١٠ نيسان أبريل سنة ٦٢٣ ميلادية، بعد شهر من معركة بدر^(٢).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٨.

(٢) العنصرية اليهودية ٢: ١٧٤.

شروع الغزوة

لما شاهد الرسول ﷺ عدم نزول بني قينقاع على حكمه سار جماعة من المسلمين إلى محاصرتهم، وأعطى عمّه حمزة^(١) لواء أبيض وهو أول لواء نشر في جيش المسلمين، فوعظهم الرسول وطلب منهم النزول على حكمه، ولكنهم أبوا ذلك وصمدوا خمس عشر يومًا في كلّ ذلك قد حاصرهم الرسول ﷺ، ولعلّ الرمي بالسهم هو أول وسيلة وأسهل ردود الفعل التي يمكن صدورها منهم، ولكن لم يحدثنا التاريخ بذلك، فهو يحكي عن شدة رعبهم وتخوفهم من عاقبة الأمر، فإن كلّ تلك المناوشات الكلامية وإثارة الفتن لم ينعكس منها في الساحة العملية وفي مقام المواجهة شيء يذكر، ولعلهم كانوا ينتظرون بادرة المنافقين.

لم يكن الرسول يرغب في قتل واحد من اليهود، وكان يسعى للحيلولة دون وقوع الحرب، ولكن المنافقين كانوا بانتظار مثل هذه الفرصة كي يثيروا الفتنة ويقلبوا أوضاع المدينة على عقب، بينما الرسول انتظر في محاصرتهم حتى ملّوا وسلموا أنفسهم ثم أمر بإخراجهم مقيدين من الحصن.

والمنافقون الذين لم يبرزوا رؤسهم في هذه المدة ولم يعلم أين كانوا، جاؤوا فجأة يرأسهم عبد الله بن أبي إلى الرسول ﷺ وتوسّط لهم

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ط-جديد)، ج ٧، ص: ٣٤: يقول المؤرخون: فتحصن بنو قينقاع في حصونهم، فاستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة، وسار إليهم، ولواؤه الأبيض (أو راية العقاب السوداء) يحمله أمير المؤمنين عليه السلام. (وقولهم: بيد حمزة ينافيه ما تقدم وسيأتي من الأدلة الكثيرة على أن عليًا عليه السلام كان صاحب لواء رسول الله ﷺ في كل مشهد).

وقال: «يا محمد أحسن في موالي»، فأبطأ عليه النبي. فقال: «يا محمد أحسن في موالي»، فأعرض عنه النبي ﷺ. فأدخل يده في جيب رسول الله، فغضب رسول الله حتى رآوا لوجهه ظللاً، وقال له: أرسلني ويحك، فقال: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر، (منعوني يوم الحدائق ويوم بعث من الأحمر والأسود) تحصدهم في غداة واحدة، إني امرأ أخشى الدوائر»، فقال النبي ﷺ: خلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم، هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها^(١).

ثم حاول ابن أبي تحفیف ذلك الحكم وإبقاءهم في المدينة وألح على ذلك حتى اجتذبه بعض الأصحاب وأبعده عن الرسول ﷺ، فدخل الرسول في بيته ومنع الأصحاب ابن أبي من الدخول، ولكنه أصرّ على ذلك وهم يمنعه حتى جرح وجه ابن أبي، فلما رأى ذلك بنو قينقاع وعلموا أن الأمر لا بد منه، وخافوا زيادة العقوبة نزلوا على حكم الرسول ﷺ وقالوا في أنفسهم لا نريد البقاء في بلدة جرح فيها مثل عبد الله ابن أبي ونحن غير قادرين على نصرته، فلا نفضل البقاء هنا، وقد انتهى الأمر بهذا النحو^(٢).

وفي هذا البين نجد أن سعد بن عبادة أحد رؤساء الخزرج ومن حلفاء بني قينقاع جاء إلى الرسول ﷺ وتبرأ من هؤلاء اليهود

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٥، وسيرة ابن هشام ٣: ٧، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٤٢.

(٢) العلاقات: ٣٠٨، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٦.

الخونة، وخالف ابن أبي في جرأته على النبي ﷺ ولامه (١).

ونقل ابن إسحاق عن الوليد بن عباد أن عباد بن الصامت جاء إلى النبي وتبرأ من اليهود وكل ما اجترموه، لأنه كان رئيس الخزرج ومن حلفائهم (٢).

ويأتي السؤال هنا عن سبب قبول النبي ﷺ وساطة ابن أبي وهبته بني قينقاع؟ والجواب في كتاب الرسول المصطفى واليهود.

ينبغي الالتفات إلى أن حال بني قينقاع يخالف حال سائر الجماعات اليهودية، فإنهم كانوا أقرب إلى المدينة من غيرهم، واشتغلهم بالصياغة وتجارة الذهب والفضة يحسن أحوالهم، ومع الالتفات إلى ثرائهم ومكانتهم الاقتصادية لا تتصور منهم هذه المجازفة والمخاطرة، فلا بد من إحساسهم بالقدرة على مواجهة الرسول لوجود الدعم والضمان من الآخرين، ولا نعلم ماذا وعد لهم المنافقون أو قريش، وما هي ضماناتهم لهم وما هي خطتهم ولماذا ألتجأوا إلى الحصون ولم يجاربوا خارجها، هل كانت القلاع تحصنهم وتنجيهم من الخطر؟ قد تكون هناك خطة قد رسمت من السابق، وهي: عندما تشرع الحرب مع اليهود وينشغل الرسول ﷺ بهم يطعنه ابن أبي والمنافقون من الخلف ويفكّ الحصار ويلتحم القتال، وهناك تعلم فراسة الرسول ﷺ وأنه ساس القضية بنحو لم ينجرّ الأمر إلى القتال ولم يتمكن المنافقون من مدد اليهود ولا شك أن صبر اليهود على الحصار ومقاومتهم الطويلة

(١) العلاقات: ٣٠٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ٨.

ينتظرون في ذلك تحقق وعد المنافقين يحكي عن وجود تصميم قاطع من قبلهم للخروج بنتيجة قطعية من تلك المواجهة، وتحقيق ما لا تتمكن قريش من تحقيقه في بدر، يعني قتل الرسول ﷺ وإنهاء أمره. ولكن إحجام ابن أبي قد أفشل خطتهم، فكان إصرار ابن أبي وتصلبه في المطالبة بالتخفيف دليل على أنه كان قد غدر بنبي قينقاع وأضر بهم ضرراً كبيراً وهو يريد تلافي ذلك الغدر وجبر ذلك الضرر بنحو من الأنحاء.

والذي يؤسف له أن بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام يذهب إلى أن الرسول ﷺ إنما هاجم بني قينقاع طمعاً في ثرواتهم، فإنهم كانوا يشتغلون بالذهب ولهم أموال طائلة والمسلمون كانوا في شدة وضيق واليهود تحت أيديهم، فلذلك أمر المسلمين بذلك^(١).

وهذا الكلام يبعث على السخرية وهناك أدلة على بطلانه، أولها: أن الرسول ﷺ يعمل بوحي من الله، ويمثل ما يأمره به، وثانياً: لم يكن مصير الحرب معلوماً من السابق، فقد تكون الغلبة لليهود من أجل شجاعتهم المعروفة وقلة عدد المسلمين فلو كان اليهود يعلمون بالانكسار لم يقدموا على ذلك، وثالثاً: لم يكن حكم الرسول معيناً من السابق، فلو كان بنو قينقاع قد نزلوا على حكم الرسول ﷺ قبل المحاصرة أو صالحوا بعد المحاصرة كان بإمكانهم البقاء في المدينة، فإن الآية اللاحقة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢)

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٤٠.

(٢) الأنفال: ٦٤.

كانت تسمح للرسول ﷺ بذلك. ورابعاً: أن إعلان الحرب كان من قبل اليهود، فهم الذين تحصنوا في قلاعهم وكانوا مطمئنين بالتغلب على الرسول ﷺ، وخامساً: فإن بني قينقاع لم يُمنعوا سوى عن أخذ السلاح معهم وقد أخذوا أموالهم معهم حينما غادروا المدينة وهو مسموح لهم، وإنما تركوا السلاح وما لا ينقل من الأموال، أي: الشيء القليل الذي لا يكفي المسلمين ولا يرفع احتياجاتهم، وسادساً، كانت غنائم بدر كافية للمسلمين في ذلك الوقت.

ولو لم يكن شيء من ذلك، فإن الرسول الذي كان في معتقده ومما أوحى إليه أن: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ * ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ * ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ * ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ﴾ لم يكن يفكر في طرق تقوية المسلمين، لأنه أقدم بيد خالية وبالا اعتماد على الله سبحانه على حرب قريش وما راعه ذلك، وقد نصره الله سبحانه، في تقوية المسلمين، فإذا افترى على الرسول مثل ولفنسون أو فكّر فيه، فلاجل أنه لا يعتقد بالمعنويات والإيمان بالله القادر المتعال، مالك الأرض والسماء والمهيمن عليهما، ولا يرى سوى الأسباب المادية.

وغنم المسلمون ما تبقى من أموال اليهود مما لم يمكنهم حمله، فعزلوا خمسة وقسموا الباقي بين المجاهدين وهي أول غنيمة يدفعون خمسها، واصطفى الرسول ﷺ لنفسه منها ثلاثة أقواس ودرعين وثلاثة سيوف وثلاثة رماح^(١).

وكان في هذه الحصون أسلحة كثيرة، وبعض أدوات الصياغة والصباغة التي لم يأخذوها معهم، هذا وقد تصدّى محمد بن مسلمة لجمع تلك الغنائم ^(١).

والسؤال الذي ظل بغير إجابة، هو عدم تدخل مخريق اليهودي رئيس بني قينقاع والموقع عنهم في عهد المواعدة مع النبي ﷺ في هذا الأمر، وأنه قد كان يحب النبي ﷺ فكيف ترك قومه يعملون هذه الجرأة وينقضون العهد، فليس في الأخبار الموجودة منه ذكر ولا خبر، هل كان قد تبرأ من اليهود واليهودية في تلك الفترة وأسلم؟ وحينما كان يشوق يهود بني النضير للمشاركة في معركة أحد قيل له: اليوم يوم السبت ولا يُعمل في السبت شيء، فقال: ليس بعدها سبت، يستفاد من ذلك أنه أسلم وأنه لما اشترك في معركة أحد واستشهد فيها قال رسول الله ﷺ فيه: «مخريق خير يهود» ^(٢)، يستفاد من هذا الخبر أنه كان على اليهودية حتى معركة أحد.

ولو كان قد أسلم قبل ذلك لتبرأ من اليهود كما فعل سعد بن عباد، ولكن لم يبلغنا ذلك، ولكن تواجهه في المدينة إلى زمان غزوة بني

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٤٤ وقال ابن هشام ٣: ٤١ في سنة ثلاث قد وقع غزوة أحد وفي هذه الغزوة خرج مخريق اليهودي في السبت وقال: يا معشر اليهود والله لقد علمتم أن نصر محمد لحق عليكم ثم أخذ عدته وسيفه فقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى النبي ﷺ فأسلم وكان معه حتى قتل، فقال رسول الله فيه: مخريق خير يهود فكانت صدقات النبي منها. موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٧٣. قال: إن مخريق من يهود بني ثعلبة بن فطيون، وعلى رأي أنه كان من بني النضير. ولعله استفاد من خبر أنه وعظ بني النضير في غزوة أحد..

النضير مع أن قبيلته كانت قد رحلت قبل ذلك بمدة يعدّ قرينة على إسلامه، ولكن لا يعلم متى أسلم بالدقة.

آثار الغزوة

كانت هذه الغزوة مهمّة من عدّة جهات أولها: أنها كانت بعد شهر من معركة بدر، وقد ضاعف الانتصار فيها عزّة الإسلام والمسلمين، كما زادت من قوة الرسول ﷺ وشوكته في عيون قريش واليهود وسائر الناس، وقد أسلم على أثرها جماعة من اليهود، فراجع عزم المناوئين.

وثانيًا: كان تواجد اليهود بما ينطوون عليه من الخيانة، لا يجتمع مع أمن المدينة، ومع ترحيلهم صار الداخل أكثر أمانًا.

وثالثًا: كانت علاقة اليهود والمنافقين الحميمة وارتباطهم السري مع بعضهم، سببًا للمشاكل ومع ذهاب اليهود غلّت يد المنافقين بعض الشيء وتحدّدت مساعيهم، فصاروا في اضطراب وأخذوا يحسون بالوحدة لأن أكثر المنافقين هم من يهود بني قينقاع الذين أسلموا في الظاهر، واضطر عبد الله بن أبي للتعاطف مع بني النضير مع أنه كان من حلفاء بني قينقاع.

رابعًا: انتقال بني قينقاع حدى بالجماعات المسلمة للاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي وتبدّلت مظاهر التجارة في المدينة، لأن اليهود كانوا قد بنوها على التجارة الربويّة لسنين متتالية.

خامسًا: جرّب المسلمون محاصرة قلعة العدو وهذا النحو من الحرب لأول مرّة، وقد استفادوا من هذه التجربة في محاصرة بني النضير وخيبر.

ردود فعل اليهود بعد جلاء بني قينقاع

إن انتصار الرسول ﷺ على بني قينقاع شوّش أفكار سائر اليهود وجعلهم يفكّرون في طريق الخلاص، غير أنهم لم يروا الصلاح في نقض العهد بالهين، خصوصًا مع عدم وجود توافق بينهم من هذه الناحية، بل ظلّ قول الله سبحانه [قُلُوبُهُمْ شَتَّى] مشهودًا طوال تلك المدة.

ومن ناحية أخرى فإن تواطؤهم مع قريش للإطاحة بالنبي ﷺ وقلب أوضاع المدينة وغيرها من أعمالهم الغادرة لم ينته بانتهاء غزوة بني قينقاع، بل زاد من حدّتها وصار يبرز ويشتدّ بمرور الأيام.

ومن تلك الموارد ما فعلته العصماء بنت مروان من بني أمية وهي من النساء الشاعرات وكانت يهوديّة، حيث تألّت كثيرًا لترحيل بني قينقاع وقالت شعرًا هجّت فيه الرسول ﷺ والمسلمين، وفي المقابل فإن المسلمين الذين وجدوا آثار الجهاد المعنوية لم يتردّدوا في التضحية في طريق الحق، وكانوا على استعداد للقضاء على كل معاند حتّى لو كان من قبيلتهم وقومهم.

وكذا بالنسبة للعصماء فقد تصدّى لها رجل باسم عمير بن عدي

من بني خطمة وكان زوج العصماء من بني خطمة أيضا فقتلها^(١).

و يرى البعض أن قتل أبي عفك (ص: ١٤٧) كان في هذا الظرف، أعني بعد غزوة بني قينقاع، فإذا كان ذلك حقاً فإن من الواجب أن يُجعل هجاؤه وسبابه كردّ فعلٍ على غزوة بني قينقاع.

ومن الأعمال العدائية لليهود هي خصومة كعب بن الأشرف اليهودي رئيس بني النضير مع النبي ﷺ، لأنها تضاعفت بعد هذه الغزوة، ومن الأفضل أن نترك التعرض لها في هذا الموضع ونتعرض لها بعد معركة أحد.

محاولات المشركين بين بدر وأحد

كانت هناك محاولات وخطط تستهدف الرسول والمسلمين، لا تخلو من تورّط اليهود فيها. خصوصاً مع ما حدث في بدر وانكسار قريش فإن من الواضح أن مثل أبي سفيان وكبار قريش الآخرين لا يمكنهم مكتوفي الأيدي، فقد دعا صفوان عمير بن وهب الجمحي إلى بيته في مكّة، وطلب منه اغتيال الرسول وعرض عليه خطته، وتعهّد عمير بالمشاركة وسافر فاتخذ ذلك ذريعة للسفر إلى المدينة، فدخلها بتلك الحجة وطلب ملاقة الرسول ﷺ كي ينفذ خطّته، فلما دخل على رسول الله، سأله النبي ﷺ: ماذا جاء بك إلى المدينة؟ فقال: جئت لرؤية ولدي وهو أسير عندكم، فقال له: كذبت، جئت لقتلي،

والدليل هو الخنجر الذي خبأته في كمّك، فقال عمير: صدقت، وأنا الآن علمت أنك رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وبذلك أسلم، فأمر الرسول ﷺ بفك ولده، وأوصى البعض بأن يعلمه آيات من القرآن ويعلمه الأحكام الشرعيّة، ثم لبث عمير فترة في المدينة ثم استأذن الرسول ﷺ في العودة إلى مكة حتّى يدعو الآخرين إلى الإسلام^(١).

لاحظ أن هذا العدو اللدود للنبيّ ﷺ الذي جاء لقتله وقطع مسافة بعيدة من أجل ذلك، بمجرد إخباره بخبر واحد غيبي ينقلب إلى ناصر ومحِب للنبيّ ويصبح من المبلغين والناشرين للإسلام، فما هو هذا التحوّل.

وقد تكرّر مثل ذلك طول حياة الرسول ﷺ مرّات ومرّات، والعجيب أن المستشرقين مع نقلهم مثل هذه الوقائع والحوادث الخارقة للعادة، لم يكثرثوا بها ولم يعتبروا بها ويصرّون على تفسير أكثر الوقائع بمنظار ماديّ.

والمحاولة الأخرى هي قدوم أبي سفيان مع جماعة للغارة على المدينة ليلاً، فلما صاروا على مقربة من المدينة، قال أبو سفيان لأصحابه: امكثوا هنا حتّى أذهب إلى المدينة وأرجع، فدخل المدينة مساءً وذهب إلى دار حيي بن أخطب رئيس اليهود، فلم يستقبله ابن أخطب لأيّ علة ولعلّه يخالف مفاد الميثاق مع النبيّ، فالتجأ إلى سلام بن مشكم

(١) البحار: ١٩: ٣٢٦، سيرة ابن هشام: ٢: ٢٣٧، موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢: ٢٠٨، العلاقات: ٣١١.

من بني النضير، فاستقبله سلام وتكلّمًا طويلاً، ولعلّ أبا سفيان أراد الإطّلاع على أوضاع المدينة وأن يعرض موضوع الغارة على اليهود وينسق معهم، ومهما يكن من ذلك، فقد رجع أبو سفيان بعد ساعات إلى أصحابه، وقيل: إنه لما رجع بعث جماعة من قريش للإفساد، فقاموا بقتل واحد من الأنصار وحليفه خارج المدينة وحرّقوا داره^(١).

وقد تابع النبي ﷺ هذا الأمر في تلك الليلة وبعث جماعة وراء جيش قريش فلم يجدوا سوى سويقاً على الأرض، وبذلك عرفت بغزوة السويق^(٢).

ويبقى استقبال سلام لأبي سفيان في تلك الليلة هل يُعدّ من نقض العهد أو لا؟ فلم ينقل عن الرسول ﷺ أنه وبّخ سلام على ذلك العمل، خصوصاً وأننا سنجد أن سلام نهى حيي بن أخطب عن نقض العهد في غزوة بني النضير كما سيأتي. ولكن يعلم من عدم استقبال حيي بن أخطب لأبي سفيان، وعدم إدخاله في داره والحال أن قريشاً في حرب مع الرسول ﷺ فلاجل أن استقباله يقتضي نقض العهد، ولذا يرى بعض المحقّقين أن ملاقة سلام مع أبي سفيان تعدّ خيانة ونقضاً للعهد^(٣).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢١٩.

(٢) العلاقات: ٣١١.

(٣) العلاقات: ٣١٧، وجاء في هامش موسوعة التاريخ أن خيانة اليهود هذه كانت للمرة الثانية.

اليهود في القرآن أواسط الهجرة

نزلت آيات كثيرة في سور متعدّدة في أواسط الهجرة حول أهل الكتاب واليهود، والكلام فيها جميعها غير ممكن لأنه يؤدي إلى الخروج عن موضوع الكتاب، لذا نكتفي بآيات من سورة الأنفال وسورة آل عمران.

كان نزول هاتين السورتين بعد حسم نتيجة الحرب في بدر ومقارناً لمعركة أحد وغزوة بني قينقاع وبعض السرايا الأخرى، فالقرآن يتكلّم في هاتين السورتين عن تواجد المنافقين وارتباطهم بالمشرّكين وباليهود، ويفصح عن تداوم عدااء اليهود وعنادهم ومجاہبتهم تبعاً لما جاء في سورة البقرة، ويؤكد أيضاً على صفاتهم الرذيلة وأخلاقهم المذمومة التي جاء ذكرها أو ذكر ما يشابهها في سورة البقرة ونحن تركنا ذكره في هذا المختصر مما يدلّ على استمرار أفعالهم غير المرضيّة وتداومها.

وقد كانت تلك الأعمال مثل الإعلام المعادي القرشي واليهودي والكيد للمسلمين واستعمال المكر وتشجيع قريش لإرسال الجيش من مكة وتحريك أعراب البادية وغيرها تترك أثراً على أجواء المدينة وتقلق المسلمين، من طرف آخر كان سطوع آيات القرآن وبشائره يصقل قلوب المسلمين ويقويها، ويبعث على السكينة والهدوء.

وكذا فإن إقامة الصلاة مع الرسول ودور المسجد واجتماع المؤمنين الحافل، كل ذلك يقوي الروح الجهادية وروح التضحية لدى المسلمين، كما عكست هاتان السورتان انتفاع المسلمين بما يغنمونه من الغنائم بشكل موجز.

وما زال المجتمع الديني مشمولاً للألطف الإلهية ببركة النبي ﷺ ولا يزال يحظى بالعناية الإلهية الشاملة، فتزداد عزتهم وارتفاعهم، وبالعكس فإن عدوهم كان يتقهقر ويصيبه الخزي. وبحق فإن ذلك المجتمع كان حياً ومرتقياً، ولم تشهد البشرية في تاريخها الطويل مجتمعا بهذا الحد من الحيوية والنشاط وسرعة الرقي، ولكن وللأسف ما أن ارتحل الرسول ﷺ وانقطع الوحي توقف ذلك الرشد وانحرف مسيره عن الطريق الإلهي المرسوم.

فلا بد من دراسة سورتي الأنفال وآل عمران بدقّة متميّزة وسليقة مفعمة، فإن آيات هاتين السورتين تمثل منشورا يتكفل تطور مجتمع المدينة يومذاك والمجتمع الإسلامي الناهض من جهات مختلفة اقتصادية وأمنية وفي مجال تنظيم الروابط الاجتماعية والأهم من جميع ذلك تركيز الأسس الاعتقادية وفضائل الأخلاق والسلوك الروحي ولم تنحصر وظيفة هذه الآيات في الجانب التعليمي والإرشادي خصوصاً مع ملاحظة تواجد النبي ﷺ ومسارحته إلى تأدية الوظائف الفردية والاجتماعية بحيث صارت تضمّن جانب التطبيق العملي وتتحكم في أعمال المسلمين وسلوكهم، ونحن سنتابع في المباحث اللاحقة علاقة هذه الآيات باليهود وآثار تواجدهم في مجتمع ذلك اليوم ونشير إلى تطبيقاتها على مجتمع اليوم وكيفية إجرائها.

ورعاية للاختصار تركنا ذكرها ومن يرغب يراجع إلى كتابنا الرسول المصطفى واليهود.

الكلام الثاني

غزوة بني النضير وعواملها

طائفة بني النضير وموقعهم عند اليهود

كان بنو النضير من القبائل اليهودية يسكنون شمال المدينة قرب وادي بطحان، وكان فيها ماء وفير وبساتين مكتضة بالأشجار وعلى جبالها بنى اليهود قلاعهم، وهي على ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة. وتعداد هذه القبيلة أكثر من سائر القبائل اليهودية ولهم موقعية مرموقة بين اليهود، وكان من المتفق عليه بين اليهود رجوع نسبهم إلى النبي هارون، فكان يقال لأحدهم الكاهن، ومنهم الزعماء الدينيون لعامة المنطقة وكلامهم نافذ ومسموع عند الجميع.

والمستفاد من أوضاع الطوائف الثلاث اليهودية أنهم كانوا يعلمون صدق الرسول ﷺ ويخافون العقوبة من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الحسد واللعاجة كانت قد نمت في قلوبهم بالنسبة للنبي الخاتم من قديم الأيام، كل ذلك أوجد عندهم ترديداً واضطراباً شديداً سلبهم التصميم القاطع والجرأة الكافية، وهو المراد بالرعب المذكور في القرآن،

فإن رؤساء اليهود مثل سلام بن مُشكم وزبير بن باطا و... كانوا على علم قاطع بأنه النبي الموعود، وكان فيهم بعض الميل للالتحاق به ليواكبوا الموج الشعبي الموجود ولكن لم يتمكنوا من إقناع قومهم بأن يسلموا، وكان من الصعب عليهم المخاطرة بمناصبهم ورئاستهم بمخالفة قومهم، فهم يرون أنهم في مواجهة مع قدرة الله من ناحية ولا يسعهم الرضوخ لذلك من ناحية أخرى ولا يتمكنون من الثبات ولذا تراهم يعملون كل عمل بدون رويّة.

وبعض الآيات من سورة الأنفال وآل عمران المارة تحكي أذى اليهود وتحرشاتهم بالنسبة للمسلمين بحيث كاد أن تحتّم بالجدال، ففي واحدة من هذه الآيات (على قول آخر) يقول: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ وهذا يعني قرب وقوع المناوشات والقتال، ويقول القرآن: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ نزلت هذه الآية ابتداءً في مقام المقابلة مع اليهود، ومنها يعلم أن مقارعتهم بحاجة إلى استعداد المسلمين، كما تفهمنا استمرار شرارات هذه الطائفة.

ومع كل ذلك الوصف وكل تفريط هذه الطائفة كان الرسول ﷺ يُلطف بهم، ولعلّه لأجل انتسابهم إلى هارون، غير أن احتمال الرسول لم يزد هم سوى جرأة حتى أنهم نقضوا العهد ثلاث مرّات وآذوا الرسول ﷺ بذلك.

مقتل كعب بن الأشرف

كان كعب يهوديًا طامعًا في الرئاسة، ومحبًا للمال وله أموال طائلة، وهو سيّد بني النضير. وينقل البعض: أن أباه كان من طي، ويراه البعض أنه من بني إسرائيل، ولكن لا اختلاف في كون أمه من بني النضير.

كان كعب في أوّل الهجرة من الموقعين للعهد مع الرسول ﷺ من قبل بني النضير، ومع ذلك كان لعدائه مع الرسول والمسلمين يتحَيّن كلّ فرصة، ويعدّ من أعدى أعداء الإسلام والمسلمين، وهو ممن هجاهم بشعره، فقد كان له ذوق رفيع في إنشاد الشعر، وكان يستفيد من هذه الحربة للاستهزاء بالرسول ﷺ وأذية المسلمين، وقيل إنه ذهب إلى مكّة بعد معركة بدر وصار يحرك قريش بشعره ويرثي قتلى المشركين في بدر، ولما رجع إلى المدينة صار يؤذي نساء المسلمين فكان يذكر محاسنهن وخصائصهن بالشعر بطريق الاستهزاء، ويفضحهن بذلك، والرسول المصطفى ﷺ الذي طالما ماشاه وغلّص عنه، أحلّ دمه هذه المرّة، وليتنا نعلم أيّ أعمال كعب أثارت غضب الرسول، فإن الرسول ﷺ لم يهدر دمه قبل أن يتعرّض لنساء المسلمين، وجاء في الحديث أن جبرئيل الأمين جاء بالحكم من الله سبحانه بهدر دمه وهو المستفاد من شعر أمير المؤمنين علي عليه السلام، ثم إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لِي بِابْنِ الْأَشْرَفِ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١).

(١) سيرة ابن إسحاق: ٣٢٦. الرسول واليهود ٢: ٧٣١.

قال محمد بن مسلمة: هل تحب أن أقتله؟ فقال: نعم، فقال! إذن لي أن أقول كلما جرى على لساني، فأذن له، فذهب محمد بن مسلمة ومن معه لملاقاة كعب، منهم سلكان بن سلامة أبو نائلة أخو كعب بالرضاعة، فتقدموا أبو نائلة (محمد بن مسلمة على قول) إليه فجاءه فقال له: إن هذا الرجل (محمدًا) يريد منّا الصدقة وقد ألحف علينا، وجئتك لا ستسلف منك مالا، قال كعب: أنتِ ملّتِ إليه؟ قلت: أما أنا فصاحبه حتّى نعلم إلى ما يكون أمره، وأريد أن أقترض منك الآن وسقًا أو وسقين من الطعام، فقال: يجب أن تجعل عندي رهنا، قلت: ما ذلك؟ قال: إحدى نسائك! قلت: أنت رجل جميل كيف يمكن أن أدع زوجتي عندك، قال: فأحد أولادك، قلت: عار علينا أن نرهن أولادنا لأجل وسق من الطعام، قال: فسلحك، قلت: نعم، هذا مقبول، فتواعدا إلى المساء.

تلك الليلة كانت ليلة الرابع عشر من ربيع الأول، وبعد صلاة العشاء ودّع رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة وأصحابه وقال: اذهبوا على بركة الله، فذهبوا إلى قصر كعب، فلما التقوا به دعوه للمشي بعض الوقت في الصحراء إلى شعب العجوز، فشغله محمد بن مسلمة بالكلام حتّى ابتعدوا عن القصر، فحمل عليه أبو نائلة ومحمد بن مسلمة وقتلاه ورجعا إلى المدينة في تلك الليلة وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر^(١).

ويرى المستشرقون اليهود على أساس الأخبار الواصلة عن

(١) العلاقات: ٣١٣، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٣٧. مجمع البيان ١٠: ٢٥٧.

كيفية قتل كعب بن أشرف أنه قُتل غدرًا وحيلة وشنعوا بذلك على المسلمين^(١)، وقال المحققون المسلمون في مقام الجواب على ذلك: أنه تعهّد بعدم الإقدام على ما يضرّ بالمسلمين، ولكنه ذهب إلى المشركين من عبدة الأصنام وحرّضهم على رسول الله ﷺ وهجاه بشعره ثم هجاء نساء المسلمين، إلى حدّ أن الرسول ﷺ وصف عمله بأنه يؤذي الله ورسوله، مع أن كعبًا يعلم جيدًا أن هجو الرسول أو حتّى واحد من المسلمين يعدّ إقدامًا جدّيًا يثير العداوة، وإذا كان كعب يرى أن عمله هذا لا أثر له في مجتمع ذلك العصر لم يكن له داعٍ آخر يدفعه لإظهار عداوته ونفث سمّه بهذا النحو، فكان إقدامه على هذا العمل يُعدّ نقضًا للعهد ويحل إراقة دمه.

وبعد قتل كعب جاء اليهود إلى الرسول ﷺ وأظهروا تخوّفهم وطلبوا الأمان، وكأنّ نقض واحد للعهد خصوصًا إذا كان رئيسهم يسري إلى جميع الطائفة، فقال لهم الرسول ﷺ: «لو أنه سكت كما سكت غيره لم يقتل، فقد هجاني بشعره وأذى الله ورسوله، وكل من يعمل عمله فجزاؤه السيف»^(٢).

ويعلم من هذا الكلام أن النبي ﷺ قد بيّن جرم كعب كي لا يفكر البعض أنه قُتل ظلمًا وغدرًا ومكرًا^(٣).

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٤٥.

(٢) العلاقات: ٣١٤ عن كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول مخطوط رقم ٢٥٠/٤٠.

خزانة القرويين فاس المغرب، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٤٠.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٤١ في الهامش عن المغازي ١: ١٩٢.

ولما كان العهد قد انعقد ووقع بواسطة كعب، فقد فقد اعتباره بقتله، ولم يكن كعب موجوداً حتى ينفذ عهده، الأمر الذي حدى برسول الله ﷺ إلى أن يدعو يهود بني النضير لتجديد العهد، فقبلوا ذلك، فجلسوا في بيت رملة بنت الحارث وكتبوا عهداً آخر تحت ظل شجرة^(١)، ومنه يعلم أهميّة قرارات الرؤساء وتصميماهم بالنسبة إلى مصير الطائفة، وكان هذا العهد في هذه الظروف لازماً، لأن يهود بني النضير كان قد أصابهم الهلع والخوف بما يحتمل معه تركهم العهد وذلك لمكان كعب بينهم.

ويجب الالتفات إلى عدم وجود أخبار عن اليهود العرب «المتهودّة» ولعلهم كانوا معروفين برعاية العهد ولهم الأمان.

غزوة بني النضير

نسلط الضوء في البداية على الآيات النازلة بشأنها

اتفق المفسرون والمحدثون على أن سورة الحشر نزلت في إجلاء بني النضير، حتى أطلق عليها «سورة النضير»، ولم تنزل سورة في شأن أي غزوة أخرى مما يحكي عن أهميتها وأهميّة نتائجها، فإن هذه السورة شرحت ظروف الحرب وكيفيتها ومصيرها ونتائجها بإيجاز واختصار تام.

(١) قيل إن هذا العهد كان محفوظاً عند أمير المؤمنين، وتحدث في كتاب المغازي عن هذا العهد، ولم ينقل نصّه، على أن هذا العهد هو العهد الثالث، وبه تمت الحجة الأكيدة على يهود بني النضير، إذا نقضوه مرة أخرى لا يبقى مجال للطف، والمستشرقون يقطعون النظر عن كل ذلك اللطف والإرفاق ويعترضون على عمل النبي ﷺ.

و يستفاد من آيات هذه السورة أن أهل الكتاب صنفان، صنف منهم مسالمون ومستقرون، وهم على عهدهم، والصنف الآخر أشرار ومشاكسون ينقضون العهد، ولهم مضادة ومنافرة مع الرسول ﷺ دائماً، وبذلك استحقوا عنوان الكفر، وقد قيده في الآية بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾.

وكذا يعلم من الآيات أن هؤلاء اليهود لم يكن بوسعهم الخروج من حصونهم بشكل جماعي والاصطفاف للقتال سواء لغلبة الخوف عليهم أو لعلّة أخرى، فكانوا إذا قاتلوا قاتلوا من داخل القلاع فقط، أو كانوا يغيرون من وراء الدور، ولذا من دون وجود جيش وقوات نظاميّة.

وكذا يمكن الاستفادة تشويق المنافقين لهم بالبقاء في حصونهم حتى يواسوهم وينصروهم، وادّعوا أنهم إخوانهم، والله سبحانه يفضح كذبهم وخداعهم ويكشف الستار عن أسرارهم، فأبان بجزم أنهم لا ينصرونهم ولا يواسونهم، وأضاف بأن الطوائف اليهودية الأخرى لا تأتي لنصرتهم، ثم عبّر عنهم «بالذين كفروا» مرّة أخرى.

فقد صرّح بأن الذي أخرجهم من ديارهم هو الله. ثم يعطف القرآن على عملهم حين خروجهم وتخريبهم بيوتهم وسلط الضوء على الناحية الأخلاقية لهذا العمل فجعله عبرة للآخرين، تلك البيوت التي كانت مأواهم وكانوا يأنسون بها صاروا يخربونها بأيديهم وأيدي المسلمين.

وقد صرّح أيضاً أن قطع الأشجار العديدة في هذه الغزوة بإذن الله، نحن نعلم أن الرسول ﷺ طالما أوصى بعدم قطع الأشجار وعدم قتل الحيوانات في الحروب مهما أمكن، ومن أجل أن لا يكون هناك تناقض بين قول الرسول وفعله ولا يلقي المنافقون الشك والريب في قلوب المؤمنين، ويكون عند المؤمنين جواب ذلك للأجيال الآتية، فقد بيّن القرآن ذلك وبيّن أنه بأمر الله سبحانه.

ثم يذكر القرآن تشابه مصير بني النضير في عقوبة الكفر والتمرد مع بني قينقاع، وأن الطائفتين تشابهتا في نقض العهد، وكان إجلاء بني النضير جزءاً من عقابهم وقد تحقق في آخر الغزوة، ولكن القرآن أشار إليه في أوّل السورة، كي تتوجّه الأذهان إلى عاقبة كفران النعم الإلهية، ويعتبر ذلك أوّل جلاء جماعي لليهود، ولكن يتصوّر إخراج بني قينقاع كان هو الأوّل فكيف اعتبروا نفر بني النضير أوّل خروج جماعي؟ فالله العالم.

و من أجل ألا يتحدّث البعض بمظلوميّة هذه الطائفة، صرّح القرآن بأنها ظالمة وكافرة وفاسقة وأنهم مع المنافقين في جهنم خالدون فيها أبداً.

والنتيجة أن كفران اليهود بنعمة الرسالة والرعب الذي ألقياه الله سبحانه وتعالى في قلوب هؤلاء، مع غدر المنافقين ومواعيدهم الكاذبة، واضمحلال الأواصر بين طوائف اليهود، هي الأسباب التي أدّت إلى حرمانهم الحياة في ظل الحكومة الإسلامية، وجلاهم من دورهم وديارهم وقد أخبرنا بذلك القرآن.

أسباب الغزوة

ذكرنا مسبقاً أن بني النضير بالإضافة إلى بني قينقاع وبني قريظة جاؤوا إلى الرسول ﷺ وعقدوا معه موادة وعهداً يمكنهم من البقاء على دينهم حتى يتضح أمر الرسول مع قومه، وبعد إخراج بني قينقاع جاؤوا وجدّدوا ذلك العهد وتعهّدوا بعدم التعرض للرسول ﷺ وبعدم إعانة عدوّه عليه، و جاؤوا للمرّة الثالثة وعقدوا عهداً بعد مقتل كعب، للتبرّي من عمله والبقاء في حماية النبي ﷺ، لكي يأمنوا خطر المسلمين وتعرّضاتهم، ولكنهم لم يصبروا على ذلك وصاروا بصدّ قتل الرسول ﷺ بال المكر والحيلة، وبنقضهم العهد فقدوا استقرارهم وألقوا أنفسهم في المهلكة، وبالتالي ومن أجل التخلّص من الموت، اضطروا لترك ديارهم بحكم الرسول ﷺ وابتعدوا عن أطراف المدينة وانتقلوا إلى الشام.

والذي يدعو إلى دراسة هذه الواقعة هو ملاحظة قول المستشرقين وكتاب اليهود بأن الرسول ﷺ أجحف باليهود وغير من رويته معهم وبتعبير بعضهم أن المسلمين من الأوس والخزرج لما قوت شوكتهم ضيقوا الخناق على اليهود وأباحوا عليهم الظلم^(١)، هل هذا بصحيح وموافقاً للواقع، أو أن اليهود هم الذين داسوا عهودهم بأرجلهم واغترروا بقدرتهم وغرّهم وعود المنافقين الغادرة، واستطالوا على الله ورسوله فاشتروا بذلك الخذلان وقاربوا الهلاك، والرسول هو الذي

(١) العلاقات: ٣٢١ عن كتاب مونقمري وات: ١٥١.

أعطاهم الفرصة للمرّة الثانية فنجوا بأنفسهم؟ نعم فإن شرح ذلك مهمّ جدًّا لأجل استعراض أسباب هذه الغزوة وكيفية استطالتهم على الرسول ﷺ.

يجب الإذعان بأنه ليس لهذه الغزوة سبب واحد معين، بل هي مجموعة عوامل وأسباب دفعت ببني النضير للوقوف بوجه المسلمين؛ فهم وإن كانوا قد التزموا بالعهد عند غزوة بني قينقاع ولم يأتوا إلى نصرتهم وشاهدوا عاقبة تجرّيبهم، ولكن بعد مرور عام على نهاية بني قينقاع المرّة، تجرّؤوا ونقضوا عهدهم.

ومن الأسباب التي توجّه الغزوة، هي المؤامرة لقتل الرسول ﷺ على يد أفراد هذه الطائفة، وتفصيل ذلك كما جاء في الخبر، هو أن اليهود اقترحوا على الرسول ﷺ أن يجتمع ثلاثون نفرًا من كل طرف (اليهود والمسلمين) لأجل المناظرة والكلام، فإذا اقتنع اليهود أسلموا، فقبل الرسول ﷺ منهم ذلك الاقتراح وحضر العدد في الموعد المقرر، ولما اجتمعوا اقترح اليهود اقتراحًا آخر وقالوا: لا تبلغ أصواتنا جميع الحاضرين، فالأفضل أن نتخب ثلاثة أشخاص من كل طرف للمناظرة والكلام، فقبل الرسول ﷺ ذلك، وكان لليهود خطة شريرة، فقد كان مع كل واحد من هؤلاء الثلاثة خنجرًا، يتحينون الفرصة لاغتيال الرسول ﷺ والأشخاص الثلاثة الذين معه، ولكن امرأة يهودية كان قد أسلم أخوها فأخبرت أخاها بذلك، فأسرع ذلك الشاب إلى الرسول ﷺ وهمس في أذنه، فنهض الرسول وترك المجلس ورجع إلى المدينة^(١).

ولا يعلم تاريخ هذه المؤامرة، ولكنه يتماشى في كل الأحوال مع أخلاق اليهود الغادرة^(١).

والنقض الأساسي لهذه الطائفة، هو المؤامرة لقتل الرسول ﷺ بعد قصة بئر مؤنة^(٢)، ونقلوا: إن الرسول ﷺ أراد دفع دية العامريين اللذين قتلوا على يد مسلم خطأ وكان يرى نفسه ملزماً بدفعها، فمن أجل طلب العون المالي صمم بالذهاب إلى بني النضير حتى يعينه على هذا الأمر، فخرج ﷺ بصحبة أمير المؤمنين وجماعة من الأصحاب من المدينة وذهبوا إليهم، فاستقبله اليهود أولاً، وأعلنوا موافقتهم في الظاهر، وتركوه ينتظر حتى يهيئوا ما أرادوه، وفي تلك الأثناء فكروا في قتل الرسول وتشاوروا، فقال حيي بن أخطب؛ لا نجد فرصة كهذه، فإن محمداً جاءكم بنفسه، فصمموا على قتله، فقرروا أن يعلو أحدهم السطح ويلقي عليه ﷺ صخرة فيقتله، فانتدبوا شخصاً باسم عمرو بن جحاش، فقبل ذلك، ولكن الله سبحانه أخبر الرسول بتصميمهم، فغادر رسول الله ﷺ الموضع بالفور ورجع إلى المدينة ولم يخبر بذلك سوى أمير المؤمنين ﷺ.

(١) العلاقات: ٣٢١.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٣٩٩، والمغازي ١: ٣٤٧، وسيرة ابن هشام ٣: ١١٩.

إعلان الحكم الابتدائي وردود فعل اليهود

بعدما شاهده النبي ﷺ من عداء بني النضير للإسلام لم ير الصلاح في بقائهم في أطراف المدينة، فاستغل النقض الذي صدر منهم للعهد وعاقبهم بأقل عقوبة أي النفي بعدما كان استحقاقهم بمقتضى بنود المعاهدة هو القتل، فحكم بخروجهم وأبلغهم ذلك على لسان محمد بن مسلمة قاتل كعب بن أشرف، فالتقى ابن مسلمة بـيحيى بن أخطب وغيره ليقرأ عليهم بيان الرسول ويبلغهم حكمه.

وفي رواية أن محمد بن مسلمة قال لهم، إن رسول الله أرسلني إليكم برسالة ولست أذكرها لكم حتى أعرفكم شيئاً تعرفونه: أنشدكم بالتوراة التي أنزل الله على موسى هل تعلمون أني جئتكم قبل أن يبعث محمد وبينكم التوراة فقلتكم لي في مجلسكم هذا: يا بن مسلمة إن شئت أن نغديك، غديناك وإن شئت أن نهودك هودناك؟ فقلت لكم: غدوني ولا تهودوني فإني والله لا أتهود أبداً، فقلتكم لي: ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود كأنك تريد دين الحنيفية التي سمعت بها: «...أناكم صاحبها الضحوك القتال، في عينيه حمرة، يأتي من قبل اليمن، يركب البعير ويلبس الشملة ويحتزي بالكسرة، سيفه على عاتقه، وليس معه آية سوى ينطق بالحكمة والله ليكوننّ بقريتك هذه قتل ومثل وسلب؟ فقال اليهود: بلى نحن قلنا لك ذلك، ولكن ليس محمد هو ذلك الشخص الموعود، ثم قرأ عليهم حكم رسول الله وأبلغهم إياه:

«فبما همتم به من الغدر ونقضكم العهد فأخرجوا من أرضي إلى

عشرة أيام، فمن يشاهد بعدها يقتل»^(١).

فقال اليهود: ما كنا نظن أن يبلغنا ذلك رجل من حلفائنا من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب.

وأما حُيي بن أخطب الذي كان يخاطبه ابن مسلمة رضي بذلك وسلّم من دون أي اعتراض، لأنه علم أنه لا حيلة لبني النضير ولا يسعهم سوى الخروج من دارهم وديارهم والانتقال إلى محل آخر.

خداع شيطان المدينة وظهور شقاء آخر

بعد خضوع اليهود لحكم الرسول ﷺ، صاروا بصدد جمع أثاثهم وأموالهم واستأجروا دواباً لحمل متاعهم^(٢).

ولما علم عبد الله بن أبي بتصميم بني النضير على الرحيل بعث إليهم من يقول لهم امكثوا في دوركم ولا تتركوا مساكنكم، سآتي لمددكم مع ألفي فارس، وأرغب بني قريظة لنصرتكم، واليهود استناداً إلى وعد ابن أبي تشجّعوا، وأظهروا المخالفة مع حكم الرسول، وأرسلوا إليه: بأننا سنبقى في دورنا، فافعل ما شئت^(٣).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤١٣، في الهامش تفسير القمي ٢: ٣٥٩، إعلام الوري: ٩٨ و ٩٩.

(٢) العلاقات: ٣٢١.

(٣) العلاقات: ٣٢٢ وموسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤١٤ و ٤١٥ في الهامش.

تاريخ الغزوة

يرى البعض كالزهري أن الغزوة كانت بعد ستة أشهر من معركة بدر وقبل معركة أحد، ويرى ابن إسحاق أنها كانت في السنة الرابعة للهجرة وبعد معركة أحد، والمنقول عن الواقدي ٣٧ شهراً بعد الهجرة، في السنة الرابعة شهر ربيع الأول.

وتردد صاحب كتاب موسوعة التاريخ بتقارن مقتل كعب مع غزوة بني النضير وفي كتاب يهود حجاز ذهب إلى تقارنهما وجعله الموافق لرأي اليعقوبي والشيخ المفيد ولكنه يختلف مع قول المغازي وابن هشام بسنة، وقيل: إن هناك قرائن أخرى تؤيد هذا الرأي^(١).

كيفية الغزوة والحصار

لما أرسل اليهود وأبلغوا النبي ﷺ بأنهم سيقون في دورهم فيفعل ما شاء، أعطى رسول الله ﷺ بعد انتهاء المهلة عشرة أيام لواء الحرب بيد أمير المؤمنين عليه السلام وأرسله مع جماعة من الأصحاب إلى قلاع بني النضير، ثم خرج وراءهم، فلما وصلوا قرب القلعة نصبوا خيمة رسول الله ﷺ على قلة بني خطمة حتى يشرف على تحركات العدو، ولكن لما جاء سهم من ناحية اليهود وأصاب الخيمة وعلموا أنهم

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٠٦ في الهامش، عن الواقدي ١: ٣٦٤، ويرى صاحب العلاقات أن شروع الغزوة كان في السنة الرابعة بعد معركة أحد، العلاقات: ٣١٦، وفي كتاب العنصرية اليهودية ٢: ٤٢٤-٤٢٨ يرى أن الغزوة في السنة الرابعة. يهود حجاز: ١٢٥ - ٢٤٧؛ بحار الأنوار ١٦٤: ٢٠.

يريدون قتل الرسول ﷺ أصّر الأصحاب على نصب الخيمة في موضع آخر بعيداً عن مرمى اليهود، فكانت مدة الحصار ستة أيام إلى عشرين يوماً على اختلاف الأقوال، ولم يكن من اليهود في أيام الحصار سوى الرمي بالنبل من داخل القلاع أو بالحجارة، ولم يكن منهم ما يستحق الذكر، لأنهم كانوا خائفين جداً، وكان أمير المؤمنين ﷺ يراقب غارات اليهود لأنه علم أنهم يطلبون الفرصة، فشاهد في بعض الليالي جماعة يزحفون نحو جيش المسلمين ويريدون الغارة عليهم، فرصدتهم وابتعد من الجيش ولم تكن من عادته ترك الرسول ﷺ، ففقدته أصحاب الرسول لمدة، ولما انصرم شيء من الليل رأوه يقترب من خيمة الرسول، فدخل عليه وأخبره بغارة عشرة من اليهود، وكان قد تمكّن من قتل رئيسهم، وأتى برأسه ليدلّ على قصدهم وجنايتهم، وبعد ما أخبر الرسول ﷺ بذلك استعان به الرسول للقبض على التسعة الباقين وأرسل معه ثلاثة أو عشرة مقاتلين فأدركوهم قبل أن يصلوا القلعة وقتلوهم.

وقيل: إن رئيسهم كان رجلاً شجاعاً اسمه عزور أو غزور^(١).

لاحظوا أن مراقبة علي ﷺ الشديدة أنقذت الرسول والمسلمين من خطر عظيم، وقد أُشير إلى جميع ذلك في القرآن: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ فقد كان منهم القتال

(١) في تفسير القمي ٢: ٣٥٩ والارشاد ٩٢: ٢ - قيل أن اسم رئيسهم هو عزوك أو عزور وهو رجل شجاع، ونقل الدكتور الشوقي أن اسمه غزول. (غزوة الخندق ص ٤٠) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٥٥

بنوعيه المذكورين في الآية في هذه الغزوة، فقاتلوا من داخل القلاع برمي السهام، وغاروا من وراء الجدران.

ولعل السبب الأساسي لتسليم اليهود هو قتل رئيس تلك المجموعة ومن معه، ولم يبلغنا خبر مفصل عن ذلك، وقيل إن عزورا أو غزوك هو الذي رمى خيمة رسول الله بالسهم، فرد عليه أمير المؤمنين بما سمعت^(١) والمثير للدهشة إعراض أكثر محققي العامة عن ذكر هذا الموقف الشجاع، مع أنه كان قائد هذه الغزوة في كل مراحلها.

ومهما يكن من ذلك، فقد كان الرسول ﷺ يرغب بعدم إراقة دم مهما أمكن وكان يعطف على أهل الكتاب بشكل مذهل، فإن مدة محاصرتهم عشرين يوماً لكثير، وكان بوسعهم أن يسلموا أنفسهم لتلك المدة، وما صبر الرسول ﷺ إلا لمرعاتهم، وإتماماً للحجة، وإلا فكان بإمكانه أن يهجم عليهم بعد مرور ثلاثة أيام كما حدث في خيبر، ولكنه لم يفعل ذلك لأن هذه الغزوة هي الغزوة الثانية لليهود، عسى أن يفيق رؤساءهم من نومتهم ويتركوا الاستكبار والغرور، ويكون مجالاً لأفراد الطائفة كي يتخذوا قراراً صحيحاً ويختاروا طريق الحق، ولكن من المؤسف أنهم أطبقوا أعينهم وسدوا آذانهم وأسدلوا الستائر على قلوبهم.

وإنما صبر بنو النضير ولم يسلموا طوال هذه المدة ينتظرون المدد والعون من عبد الله بن أبي ويتأملون دفاعه عنهم، لأنه هو الذي

تسبب في مخالفتهم مع حكم الرسول، ولكن لم ينصرهم ولم يفك عنهم الحصار. لا شك أنه غير قادر على مثل ذلك، وكان قد خدع بني قينقاع من قبل، ولكن هؤلاء اليهود خدعوا بكلامه مرة ثانية.

يأتي سؤال عن وعد ابن أبي بني النضير بالدفاع عنهم وحمايتهم وهو غير قادر على ذلك؟.

والغريب أن ابن أخطب مع ما شاهده من خيانة هذا المنافق ببني قينقاع، أصرَّ على الاعتماد على مواعيده فألقى قومه في المهلكة، والحال أن حُيي كان يعرف ابن أبي أكثر من أي شخص آخر، ولكن عداوة الرسول أعمت بصره وسلبت لبّه، حتّى اعتمد في هذا الأمر الخطير على منافق مثله، وقد يقول البعض: إن الأمر عنده لا يخرج عن حالين إما أن يتغلّب على الرسول فهو المرغوب فيه، أو يُغلب فيكون مصير اليهود هو ما حكم عليهم في أوّل الأمر، ومعه لا يفرق الحال، ولكن الأمر ليس كذلك فانظر إلى بقيّة الواقعة.

ولما شاهد الرسول صمودهم، أمر فقطعت أشجار النخيل المحيطة بالقلعة، فاعترض على ذلك رجال اليهود وأخذت نساؤهم تصيح وتبكي، ولم يقطع شيئاً معتدّاً به من النخل إلا وسلّم اليهود أنفسهم، وقيل إنه لم يقطع سوى ست نخلات، وقيل: إنهم كانوا يحبون النخل حبّاً شديداً ولذلك استسلموا وأخلوا القلعة، ولكن مثل ذلك لا يكفي لتوجيه تسليمهم، لأنهم على وشك ترك الأرض بما فيها وأخذوا بتخريب دورهم بأيديهم كيف يأسفون على قطع نخيلات كلّ

ذلك الأسف ويتركون كل شيء من أجلها ويسلمون أنفسهم؟.

فلا بدّ من وجود سرٍّ آخر وراء قطع النخل لم يبلغنا خبره، وقد يعتبر ذلك رفعا للموانع والتهيئة لهجوم كاسح، أو كانوا يخافون ما هو سائد من قطع النخل ثم إحراقها عليهم فتحرق دورهم، وبذلك كان سلام بن مشكم ينصح حُيي بن أخطب باستمرار ويصرّ على قبول حكم النبي ﷺ كي لا يبلغ الأمر إلى أسوأ من ذلك.

وما صبر الرسول ﷺ لمدة عشرين يوماً لم يخلع عنه الدرعة ووقوف الجيش على أهبة الاستعداد إلا لأجل أن لا يجرّ إلى القتال وإراقة الدماء، فيجبرهم على الرحيل، نعم هو نبيّ الرحمة ولم يزل يترك باباً للشفقة، والقرآن يقول: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهم فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ يعني أن الأمر قد صدر على الرحيل، ولكن اليهود يستحقّون أن يتجرّعوا مرارة الموت في بيوتهم، ولكن لم يحنّ الوقت لمثل تلك العقوبة، ولا بدّ من أن تتمّ الحجّة على اليهود أكثر، وقد ترك هذا العقاب والمصير لبني قريظة ثم أهل خيبر، حيث قُتل جماعة منهم في المعركة.

وبالطبع فإن هؤلاء اليهود لو لم يخالفوا حكم الرسول ولم ينخدعوا بالمنافقين كان بإمكانهم أن يصحبوا جميع أموالهم بكل احترام ويخرجوا من منازلهم، ولكنهم عصوا، فلما رأى الرسول روح الكبر وكفران النعم فيهم، علم أن ذلك الحكم الأول لا يكفيهم، ومن ناحية أخرى إذا تقرّر خروجهم بجميع أموالهم وأثاثهم إلى خيبر وأذرعات فإنهم سرعان ما

سيشعلون نار الفتنة من جديد، ولذلك شدّد عليهم وقال: الآن وقد خالفتكم حكمي الأول لا يحقّ لأحدكم أن يأخذ معه سوى حمل بعير ويرتحل، فاضطرب حيي بن أخطب وامتنع من قبول ذلك، فنصحه سلام بن مشكم الذي كان يعلم أنه إذا لم يقبل الحكم الجديد فالحكم اللاحق أشدّ وأصعب، ولكنه تكبّر واستعلى أمام الرسول ﷺ مما حدى بالرسول إلى تشديد الأمر عليهم أكثر من ذلك، فقرّر في المرّة الثالثة أن يصحب كل ثلاث عوائل حمل بعير يرتحلون ويخرجون من تلك المنطقة بسرعة، فانطلق اليهود الذين سلّموا أمرهم بيد شخص جاهل وأحمق مثل حُيي بن أخطب، فطلبوا من الرسول أن يمهلهم ثلاثة أيام يجمعوا متاعهم كل ثلاث عوائل حمل بعير، فحملوا الذهب والمجوهرات والأقمشة واتجهوا نحو الشام، وفي كل ذلك منعوا من حمل السلاح وكان جزاء من يحمل سلاحاً القتل، فأمر الرسول بخروج جميع الطائفة وكل من شوهد من بني النضير بعدها فسيقتل بالسيف^(١).

ولكن اليهود مع كل ذلك الذلّ والهوان الذي أصابهم لم يقلعوا عن عاداتهم السيئة وبادروا إلى عمل يعكس خصلتهم اليهودية، ودوام ملاحاتهم للنبي ﷺ، فقد قيل إن يهود بني النضير لما ارتحلوا لبس رجالهم أفرع ملابسهم، ونساءهم حليهن وأصلحن وجوههن وخرجوا من المدينة ونساءهم تهلّهل، فتودّع البعض منهم مع المنافقين وهم ذرفوا عليهم دموع الحسرة فانكشف بذلك أمر بعض المنافقين^(٢).

(١) البحار ٢٠: ١٦٥، تفسير القمي ٢: ٣٥٩، يهود حجاز: ١٤٥.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ١٢٥، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٥١، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤١٨.

ومع الالتفات إلى أن قطار الجمال الحامل لمتاعهم بلغ ستمائة جمل، والمقاتلين منهم يبلغ عددهم ألف مقاتل وبذلك يناهز عددهم الألفين شخصاً، كانوا قد استغلوا مساحات واسعة، ولا يعلم كيف كان شكل المدينة حين ارتحالهم، والحال أنه لم يمض على زمان دخول الرسول المدينة إلا ثلاث سنوات وأشهرًا، مما يحكي عن اقتدار الرسول ﷺ وشوخته بحيث استطاع أن يرغم أنوف المنافقين المدافعين عنهم^(١).

كما قام يهود بني النضير حين ترك ديارهم بسفاهة أخرى حيث قاموا بتخريب منازلهم بأيديهم حتى لا يستفيد منها المسلمون، ولا يعلم مقدار ذلك التخريب، ولكن ولفنسون من أجل التغطية على هذا العمل الحاكي عن حسرتهم يقول: إن اليهود كانوا يخفون على أبواب دورهم لوحات كتب عليها وصايا موسى لبني إسرائيل وخرب هؤلاء اليهود أبواب دورهم ليأخذوا تلك اللوحات وتكون معهم فما هو مذكور في القرآن من تخريب الدور يراد به تخريب أبواب الدور فقط^(٢)، هل إن كلام ولفنسون صحيح برأيك؟ فإذا كان تخريب الدور بهذا الحد فقط، وقابلة للسكنى، لا حاجة لذكره في القرآن وجعله عبرة للآخرين، كما أن القرآن تحدّث عن تخريب منازلهم بيد المسلمين أيضًا، فلو كانت قابلة للسكنى^(٣)، لم يسمح الرسول بتهديمها، فلابد أن تخريب اليهود لمنازلهم كان بحيث صارت غير قابلة للسكنى، ويعتقد البعض أن اليهود ثقبوا جدران منازلهم لأجل الفرار، والتسلل إلى

(١) العنصرية اليهودية ٢: ٤٣٩، والموجود في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين أن جلاءهم كان ليلاً.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٥٠.

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٥٠، العلاقات: ٣١٩، ويذهب البعض إلى رأي آخر فراجع.

الأطراف والجواب بأن الفرار للنجاة من الهلكة الاحتمالية ومع هذا الخوف لا مجال للزينة والتحلي كما سمعت، فليس رد فعلهم إلا الشقاء والعداوة والسفاهة.

والمستفاد من أخبار الباب أن حكم الجلاء لم يترك لهم اختيار الجهة والمقصد، بل عين لهم الرحيل إلى الشام، إلا أُسرتين أُذن لهما بالذهاب إلى خيبر والسكنى هناك، ولكن نقل بعض المؤرخين الخبر وكأن اختيار الجهة والمقصد كان بيد اليهود، وأنهم اختاروا الذهاب إلى الشام أو إلى خيبر أو إلى الحيرة^(١).

والأسرتان اللتان ذهبتا إلى خيبر هم آل أبي الحقيق وآل حُيي بن أخطب وقد لعب كل منهما دورًا أساسيًا في فتنة بني قريظة.

وانتخاب أذرع (موضع باتجاه الشام) كان دقيقًا، فإن الفاصلة بين المدينة والشام كبيرة. كما ويوجد في الطريق الفاصل بينهما قرى متعددة، ولكن لماذا كان على اليهود أن يخرجوا من المنطقة العربية والجزيرة العربية، ويرحلون إلى أذرع؟

لم يسلم من اليهود إلا ثلاثة أشخاص: منهم أبو سعد بن وهب ويامين بن عمير، قالوا لحيي بن أخطب: والله إنك تعلم أنه رسول الله، فماذا جلوسك، تعال لنُسلم ونأمن على أنفسنا وأموالنا، فنزلاً ليلًا من القلعة وسلّمًا أنفسهما وأسلما.

فالسؤال هنا عن سبب عدم تبرّي اليهود من أعمال رؤسائهم؟

وما منع سَلام بن مشكم الذي كان يعارض حيي بن أخطب ولا يرضى بنقض العهد، من أن يتبرأ من عمله ويعتزله؟ يجب القول إن العصبيّة والتمييز العنصري واللّجاجة والغرور قد رسّخ في نفوسهم بحيث لم يعتنق الإسلام من بين كل تلك الجماهير سوى العدد القليل الذين يعدون بالأصابع، فإن هذا الانقياد الأعمى الحاكم بين عامّة الناس هو الذي سبّب صدور الأحكام التي يستحقها رؤساؤهم على جميع أفراد الطائفة، لأن هؤلاء العامّة تعهّدوا بالوفاء لرؤسائهم.

فعلى كل من يريد الدفاع عن عوائل بني النضير من الكتاب والمتكلمين ويتأسف عليهم، فالواجب عليه أن يلقي اللائمة أوّلاً على رؤساء اليهود مثل حيي بن أخطب، وأنهم لماذا اختاروا الطريق الوعر الخاطئ، ثم على عامة اليهود الذين يتبعونهم جهلاً، ثم إلقاء اللائمة على عبد الله بن أبي المنافق، فقد منعهم من الرحيل ودعاهم إلى المخالفة، ولم يقدم على إعانتهم، فماذا يكون جواب ابن أبي إذا كان الرسول ﷺ قد أصدر حكم القتل في حقّهم، هل كان بوسعه أن يستخفف ذلك الحكم لمرة ثانية بعد بني قينقاع.

غنائم بني النضير

يرى القرآن أن أموال بني النضير من الفبيء المختص بالرسول ﷺ، لأنها ما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وكان المسلمون يعلمون أنها أموال النبيّ، وفي المقابل فإن الرسول ﷺ أراد أن يجبر قلوب

المهاجرين الذين مكثوا في منازل الأنصار إلى ذلك الحين، فمنحهم منازل بني النضير بعد ما شاور الأنصار في ذلك لكي يكون قد شكر مواساتهم، ولم يحظ من أموال بني النضير من الأنصار أحد سوى أسرتين فقيرتين، وقد شكر الله سبحانه في سورة الحشر لهم إثثارهم:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقيل: إن الرسول ﷺ خصص بعض تلك الأموال لشراء السلاح، بالإضافة إلى أنه غنم أسلحة كثيرة تركها اليهود في قلاعهم وصارت إلى بيت مال المسلمين^(١).

آثار هذه الغزوة

كان لهذه الغزوة آثار عديدة ومن جهات مختلفة:

أ - أنها ضاعفت من قدرة المسلمين وشوكتهم.

ب - خلّو المدينة وأطرافها من العدو الداخلي، فصارت أكثر أماناً،

ج - فقدان منافقي المدينة للمحامي والناصر.

د - ازدياد رغبة اليهود العرب وغيرهم من سكان المدينة وأطرافها والقبائل العربية للدخول في الإسلام بعد ما شاهدوا انتصارات الرسول

(١) العلاقات: ٣٢٥، عن الواقدي ١: ٣٧٩.

وَحَزَمَهُ وَعَلَّمُوا أَنْ أَمْرَهُ خَرَجَ مِنَ الْحَالَةِ الْاِعْتِيَادِيَّةِ وَصَارَ مُؤَيَّدًا مِنَ السَّمَاءِ.

هـ - إن الهوان والذلّ الذي أصاب اليهود كان شديداً، لأن أصل بني النضير وانتسابهم إلى بني إسرائيل كان أكد وأعمق، وكان يُرجع إليهم في الأمور الدينيّة ويقال لأحدهم الكاهن.

و - فقدت بذلك قريش موطأ القدم الذي كان لها في المدينة وتحجّم نفوذها وصارت تحسّ بأنها الهدف اللاحق، ونحن نعلم أن أحد عوامل نقض بني النضير العهد هو الضغط الذي أوجدته قريش عليهم لمجابهة الرسول ﷺ وهي تجد اليوم أن أيديها في المدينة قد قطعت.

معجزة الرسول بمحضر يهودي

وكما تعلمون أنه لم يمرّ يوم في زمان الرسول ﷺ إلا وقد يكون فيه معجزة أو أكثر من الرسول ﷺ، ومن تلك المعاجز معجزة وقعت في السنة الرابعة للهجرة أيام غزوة بني النضير، ترتبط بأداء دين جابر الأنصاري لأبي شحم اليهودي.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال لي: إذا جفّ التمر فلا تحدث فيه حتّى تعلمني، واجعل كل صنف من التمر على حدة، ففعلت ذلك وأخبرته ﷺ، فصار معي إلى التمر وأخذ من كل صنف قبضة بيده وردّها فيه، ثم قال: هات اليهودي، فدعوته،

فقال له رسول الله ﷺ: اختر من هذا التمر أي صنف شئت، فخذ دينك منه.

فقال اليهودي: وأي مقدار لهذا التمر كله حتى آخذ صنفاً منه ولعل كله لا يفي بديني.

فقال النبي ﷺ: اختر أي صنف شئت فابتدئ به، فأوماً إلى صنف الصيحاني فقال: أبتدئ به، فقال: بسم الله، فلم يزل يكيل منه حتى استوفى منه دينه كله، والصنف على حاله ما نقص منه شيء، ثم قال: يا جابر هل بقي لأحد عليك شيء من دينه؟ قلت: لا، قال: فاحمل تمرك بارك الله لك فيه، فحملته إلى منزلي وكفانا السنة كلها، فكنا نبيع منه لنفقتنا ومؤونتنا ونأكل منه ونهب منه ونهدي إلى وقت التمر الجديد، والتمر على حاله إلى أن جاءنا الجديد^(١).



(١) الخرائج ١: ١٥٤، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٢٦، في الهامش.

الفصل الثاني

أوج عنف اليهود

قام اليهود في مجال الوقوف بوجه الرسول ﷺ بدعوة قريش وتجهيز جيش جرّار للقضاء على الرسول وعامة أهل المدينة بزعمهم ولم يتوقعوا معه انتصار الرسول ﷺ على كل الاحتمالات، فدخلت تعديّاتهم وتحديّاتهم بذلك التمهيد والإصرار في مرحلة جديدة، إذا أردنا معه رسم خطوط ذلك الحقد والتحركات خلال خط بياني فإنه سيتشكّل قوسٌ في رأسه غزوة بني قريظة.

الكلام الأول

غزوة الخندق

نزول آيات من سورة الأحزاب

نحن نعلم أن نزول آيات القرآن كان تدريجيًا ومتناسبًا في الغالب مع الوقائع التي كانت تقع في زمان الرسول ﷺ، وفي نفس الوقت لها شمولية واسعة بحيث تكون خطة عمل لتلك الفترة كما ترسم الطريق للأجيال القادمة، وهذه هي معجزة القرآن، بحيث يظل حيًا فاعلاً في كل عصر وزمان، ولا يخلق ولا يبيد.

فسورة الأحزاب تحكي الحوادث والعلل والدواعي والأسباب والنتائج التي حدثت في فترة معينة من تاريخ الإسلام.

و نحن نشير إلى هذه الآيات لأنها تفصح عن دور اليهود آنذاك، ففي الآية: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ فسر باليهود وعلى قول: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾^(١). مع أن قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاصِيهِمْ﴾ باتفاق المفسرين يتكلم عن بني قريظة.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٨٢ عن مجمع البيان ٨: ٣٣٩، ويهود حجاز: ١٩٨.

دراسة الآيات:

نزلت الآيتان ٨ و ٩ - بمقتضى السياق وملاحظة الآيات اللاحقة لها- وهي تبين أن الميثاق الإلهي يدور حول محور الدين والتدين، وأن ذلك كان من زمان آدم ونوح وإبراهيم الخليل، ليستمر إلى زمان خاتم الأنبياء، وله أهمية بالغة بحيث إن نقضه يساوق الكفر ويؤدي إلى الارتداد وما جزاء ذلك إلا جهنم وعذاب النار، كما ويعدّ الوفاء به علامة على الصدق والتصديق، وثوابه جنات النعيم والفردوس. وكلما كان الجهاد والإخلاص أكثر كانت المنزلة التي تحصل له أعظم وأكثر صدقاً، هذا وقد تجلّى في هذه الحرب دور سيّد الصادقين وإمام المتقين، وقد شرع الله سبحانه فيها بيان صفات أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبالتالي فإن صدر هذه الآيات يتكلّم عن صدق المؤمنين: ﴿لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ وتحتّم في بيان ثوابهم وجزائهم: ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.

وكذلك أجرى الله فيها العلاقة بين الكفر والنفاق فتكلّم أولاً عن عذاب الكافرين وختمه بعذاب المنافقين، وبذلك يكون هناك ثلاثة عناصر مهمّة في هذه المعركة.

أحدها: أن إيمان الصادقين له مراتب يتجلّى أعلى تلك المراتب من قوله تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنٌ

قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ^(١)، وبذلك يكون قد مدح أشخاصاً بأعيانهم، وقد فُسر قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾** بأمر المؤمنين علي عليه السلام، والعنصر الثاني: الكفر والشرك وتزعمه قريش التي جاءت بجيش جرّار بعنوان الأحزاب، والعنصر الثالث: النفاق الذي كان في داخل المدينة والمنافقين الذين نفذوا بين صفوف الجيش الإسلامي لإثارة الفتنة وزرع الفرقة وبثّ الدعايات الموهنة: **﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾**.

والعرض الآخر للآيات هو تصوير معركة الأحزاب وحضور المشركين المكثف في أطراف المدينة، والخوف الذي أصاب أهل المدينة وحتى جنود الإسلام ويخبرنا القرآن عن نفث روح الإيمان في قلوب المؤمنين الواقعيين، وأنه كلما صارت جبهة العدو أقوى، تزايدت الروح الإيمانية في قلوب أولئك الرجال الربانيين، ومن الطبيعي أن تلك المعادلة تجري لجميع العصور، كي يعلم المؤمنون أن عليهم عند وقوع الحوادث والزلازل، الالتجاء إلى الله، لاحظوا بيان الرسول ﷺ لأحاد المضاعب والمشاكل التي واجهتهم وتوقعه النصر من الله سبحانه في نفس الوقت، فقد كان رسول الله ﷺ قد أخبر أصحابه فقال: «إن العرب ستتحزب عليّ ويحيئون من فوق، وتغدر اليهود ونخافهم من أسفل، وأنه يصيبهم جهد شديد ولكن تكون العاقبة لي عليهم» ^(٢).

(١) في تفسير القمي ٢: ١٨٨ رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ أَلَا يَفِرُوا أَبَدًا فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾** أي أجله وهو حمزة وجعفر بن أبي طالب عليه السلام وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ أجله يعني علياً عليه السلام.

(٢) البحار ٢٠: ٢٣٠؛ تفسير القمي ٢: ١٨٦.

ثم إن بعض من خاض معركة بدر وأُحد وصمد أمام العواصف والحوادث وثبت واستقام فيهما، نجده كاد قد تراجع في هذه المعركة وصار يظهر العجز، فكانت الظروف على المسلمين حرجة للغاية وكانت كثافة الجيوش المحاصرة للمدينة بحدٍّ لا يتصور معه النصر، واضطربت قلوب البعض ودبت في أذهان بعض المسلمين الظنون والأفكار السيئة^(١)، وكأنهم لم يتوقعوا من الله مثل ذلك، وقد غفلوا عن أن الامتحان الإلهي صعب؛ لتمييز المؤمن من المنافق، لتعقبها المرحلة اللاحقة التي تكون انتخابية بعد ما كانت المرحلة الأولى تعليمية ومرحلة بناء:

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

فمن هذا المنخل سقط المنافقون وافتضحوا حتى أنهم تمنّوا أن لم يكونوا من أهل المدينة ولم يشهدوا هذا البلاء، قالوا: يا ليتنا كنا من عرب البادية نتجسس أخبار المدينة من الآخرين، فصار كلّ واحد يفكر في الارتداد والالتحاق بالعدو:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾، والفتنة هي الكفر، فهم نفس أولئك الذين تركوا معركة أُحد، ثم جاؤوا لإبرام العهد ليغسلوا ذلك العار وأنهم لن يولّوا العدو الأدبار، واليوم يتركون المعركة بأعذار مختلفة واهية، فاتخذوا بيوتهم ذريعة،

يقولون هي خالية بلا مدافع: ﴿إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ فكشف الله النقاب عن نواياهم السيئة وقال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

ويصوّر القرآن سيرتهم وسلوكهم في هذه السورة لكي لا يفكر الأجيال القادمة بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا جميعهم مؤمنين والواجب احترامهم ويقال اعتباطاً: «بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فهو يصفهم بأن هؤلاء مرتدّون عن الدين: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفي نفس الوقت يُعدّون من المسلمين الذين أدركوا رسول الله ﷺ وتلبّسوا بعنوان الصحابة، فلا بدّ من التمييز بينهم: ﴿لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾، ويجعلون في بوتقة الاختبار: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ولكن المؤمنين لما شاهدوا الظروف الصعبة لمعركة الأحزاب وذاقوا صعابها قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وفي النهاية يخبرنا الله سبحانه عن تعاون اليهود حتّى يبين واحداً من أسباب هذه المعركة ويشرّهم بالعقاب الذي اختاره لهم: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وكما سنجد فإن نار هذه الحرب (حرب الخندق) سرعان ما أطفئت ببركة ضربة علي أمير المؤمنين عليه السلام فأغمد سيف علي السيف،

وأما اليهود فلا بدّ من قتلهم في معركة أخرى أو يؤسرون حتّى يتحقق الوعد الإلهي في حقّهم، ويلقى هؤلاء اليهود المنحطون عاقبة نقضهم للعهد وخيانتهم بالمسلمين في أخرج الظروف وقد تحقق ذلك في غزوة بني قريظة التي قتل فيها فريق من مقاتليهم وأسّر فريق منهم.

هذا وقد قرن الله هذه الغزوة بغزوة الخندق لبيان دور اليهود في تلك المعركة الخطيرة، فهي خيانة عظيمة ارتكبتها اليهود وصاروا هم السبب في تحمّلهم ذلك العقاب المخزي، ولكن هناك بعض الكتاب يرى أن قتلهم جاء مخالفاً للرأفة الإسلامية، ولعلمهم لم يتأمّلوا في الآيات الإلهية والحقائق القرآنية بشكل كافٍ، وباقي الآيات تحدثنا عن فتح خيبر في القريب العاجل والذي سيأتي في الفصل اللاحق.

ملاحظة الأخبار التاريخية لمعركة الأحزاب

سكن رؤساء بني النضير حصون خيبر بعد إجلائهم من أطراف المدينة، واجتمعوا هناك وصاروا يدبّرون للنبي ﷺ، ويخططون له ولم يكفهم أنهم رأوا تجارب مرّة من إخوانهم وما اعتبروا، وصاروا في هذا الوقت بصدد الخوض في تجربة أخرى، فساfer حُيي بن أخطب بصحبة كنانة بن أبي الحقيق وسلام بن أبي الحقيق من كبار بني النضير وجماعة من بني وائلة إلى مكة^(١).

رحّب القرشيون بضيوفهم اليهود، فلما رأوا فيهم التصميم على

(١) سيرة ابن إسحاق: ٣٩٢.

الإطاحة بالرسول ولا حظوا عزمهم الراسخ، ازداد فيهم حس الانتقام، ولما لم يمكنهم البقاء إلا بإنهاء حكومة الرسول مع عدم حصول نتيجة من الغزوتين السابقتين، قبلوا اقتراح اليهود في محاصرة المدينة، والهجوم على المسلمين هجمة واحدة، ورأوا أنَّ المفتاح الوحيد هو اتحاد القبائل العربية واليهودية وتحريكهم لأجل هجوم واحد منسق.

وقيل إن هذا الحلف أبرم في المسجد الحرام تحت أستار الكعبة، وبعد أن ألصقوا أكبادهم بجدارها إمعاناً في توثيق الحلف، وحلفوا بالله أن لا يخذل بعضهم بعضاً ما بقي منهم رجل حتى يستأصلوا الرسول^(١).

ويحدثنا ابن هشام عن لقاء هؤلاء الجماعة اليهودية مع قريش للتواطؤ على الإسلام والمسلمين ويقول: إنه قيل إن الآية الشريفة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ ﴿١﴾ أولئك الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، نزلت في هذا المقطع^(٢).

فاليهود الذين يدعون الديانة التوحيدية ويرون أنهم أول الموحدين، صاروا يعتقدون أن المشركين وعبدة الأصنام على طريق الهدى، والمسلمين هم أهل الضلال والضياع، وبذلك سحق رؤساء اليهود بهذه السهولة كل معتقداتهم ومصادقيتهم وصاروا يرجحون الشرك

(١) مجمع البيان ٣: ٥٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ النساء: ٥١.

(٢) النساء: ٥١ - ٥٥، سيرة ابن إسحاق: ٣٩٣ وسيرة ابن هشام ٣: ١٤٤.

وأهله على الإسلام وأهله، أليس هذا علامة على الكفر المحض، وكان هذا العمل الشنيع بحيث لم يتمكن المستشرقون والمحققون اليهود من التغطية عليه أو توجيهه بنحو من الأنحاء، واضطروا للاعتراف بأنها نقطة ضعف ووصمة عار لليهود المدينة^(١).

وفي معركة أحد كان الأساس هم قريش حيث جاؤوا إلى اليهود وحرصوهم، واختلف الحال في هذه المعركة فإن اليهود هم الذين قطعوا الطريق إلى مكة وحرصوا قريش على الحرب، ولعل ما يثير الدهشة أن أصحاب الدين السماوي يتحدثون مع عبدة الأصنام المشركين ويتعاونون معهم على قتل المبعوث من قبل الله على علم منهم واطلاع، ولذا فإن هذه الحرب تُعد حرب اليهود على الإسلام، وليست حرب قريش^(٢)، ولذلك لما انتهى رسول الله ﷺ من هذه الحرب وأراد أن يستريح، جاءه جبرئيل وقال: نحن لم نخلع لامة الحرب بعد، صلّ العصر في بني قريظة، وهو يعني عدم تأخير عقوبة اليهود حتّى بمقدار أداء صلاة واحدة، وكما سنرى فإن قريش قد خرجت من هذه المعركة بسلام ورجعوا مع أصحابهم إلى مكة، ووقع اليهود في قبضة المسلمين وتعرضوا للهلاك، فغزوة الخندق هي غزوة اليهود وهلاكهم.

وكانت مهمّة الرسول ﷺ هي تجهيز الجيش والتشاور معهم،

(١) العلاقات: ٣٢٨-٣٣٠ وسيرة ابن هشام ٣: ١٤٤، عن المغازي للواقدي ٢: ٤٤٢ تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٤٢ و ١٥٨.

(٢) البحار ٢٠: ١٩٧ (أخبره بذلك خزاعة لأنها كانت متحالفة مع الرسول).

فصار رأي الأكثر على البقاء في المدينة وعدم الخروج منها حتى تقترب قريش منها وتكون الحرب داخل المدينة، وقد أبدى البعض هذا الرأي في معركة أحد ولكن لم يطبق عندها، بينما في معركة الخندق اتفق رأي الجميع على ذلك، ولم تكن هناك مخالفة معتد بها لهذا الرأي. وهنالك اقترح سلمان أحد أصحاب النبي المقربين بناء على تجاربه ومعلوماته اقتراحاً وافق عليه الرسول ﷺ وحظي بتأييد من الله سبحانه، وهو حفر الخندق في إحدى جهات المدينة على طريق قريش يمنعهم من الوصول إلى المدينة^(١).

هذا وقد أنفق أبو سفيان والقائمون بهذه الحرب مبالغ طائلة تمكنوا معها من تجهيز جيش يبلغ عدد جنوده عشرة آلاف مقاتل، وقيل أربعة عشر ألف مقاتل وسيره نحو المدينة؟ وعسكر جيش الإسلام وراء الخندق، فلما وصل جيش قريش قرب المدينة واجهوا ما لم يكونوا يتوقعونه، لأن حفر الخندق لم يكن من عادة العرب، فلما رأوا ذلك دهشوا لأنهم رأوا أمراً مستحدثاً، فقالوا هذه حيلة لا يعرفها العرب، فاضطروا إلى التوقف أمامه، لأنه الطريق السهلي الوحيد المؤدي إلى المدينة، والباقي كلها جبلية وعرة، وقد كمن فيها المسلمون.

(١) العلاقات: ٣٣٠ وفي كتاب كتب إليه الرسول بأنه كان إلهاماً إلهياً، (الوثائق: ١٠)، ويستفاد ذلك من كلام أمير المؤمنين ليهودي (البحار ٢٠: ٢٤٤).

دور اليهود

لم يتحرّك الجيش إلى المدينة حتّى أخذت قريش عهداً من حُيي بن أخطب باشتراك بني قريظة، ومعه لا بدّ من تحري نقض اليهود للعهد مع الرسول قبل المعركة.

يقول محمّد بن كعب القرظي^(١): «ذهب حُيي بن أخطب إلى كعب بن أسد القرظي الذي أمضى عهداً مع الرسول ليكلّمه، ولكن كعباً أبى أن يستقبله، فصمد لذلك ابن أخطب، فلم يفتح له باب الدار وقال له: أنت رجل مشؤوم، فقال: ويلك افتح الباب، فقال: إنّ لي مع محمد عهداً ولا أريد نقضه، ولم أر منه غير الوفاء، فقال له: ويلك افتح الباب حتّى أكلمك، أتحاف أن آكل من طعام مائدتك، فلما سمع كعب ذلك الكلام وكأنه مسّ بشرفه، ففتح له الباب فدخل الدار وقال: جئتك بالشرف والعزة، فقال كعب: لا بل بالذلّ والهوان.

قال: جئت مع عامّة قريش وغطفان ورومة إلى مقربة من أحد (وادي العقيق) وقد استقروا هناك، وقد أقسموا أن لا يقرّ لهم قرار حتّى يقتلوا محمّداً.

قال كعب: ويل لك أنا ما رأيت من محمّد إلا الوفاء والرحمة دعني، قال ابن أخطب: إنّ محمّداً لا ينجو من هذه المعركة بسلام، وستخلّي المدينة من المسلمين، وأخذ ابن أخطب يصف جيش قريش وعظّمته وأعطى كعباً موثقاً بأن قريش ستنتصر، فرضي كعب بأن

ينقض عهده مع الرسول ويتبرأ منه»^(١).

ثم اجتمع إليه كل من كان في الحصن من رؤسائهم مثل غزال بن سموأل وباشي بن قيس ورفاعة بن زيد والزبير بن باطا، فقال كعب: ما ترون؟ قالوا: أنت سيدنا والمطاع فينا وأنت صاحب عهدنا، فإن نقضت نقضنا وإن أقمت أقمنا معك وإن خرجت خرجنا معك، والتقوا بحيي فكلّمهم، وبعد سماع كلامه أظهروا ميلهم لإتباع رأيه، ولكن زبير بن باطا كان رجلاً مجرباً وقد قضى عمراً، قال: إن تسمعوا كلامي فلا تنقضوا عهدكم مع محمد أبداً فهو الرسول الذي يصفه الكتاب، لو ناوته هذه الجبال الرواسي لغلبتها»^(٢).

فرد عليه حيي بن أخطب وقال: إن محمدًا هذا ليس هو النبي الموعود، فهذا من العرب ومن نسل إسماعيل، ولا يتبع بنو إسرائيل بني إسماعيل أبداً، لأن الله فضّل بني إسرائيل على جميع البشر، وجعل فيهم الملك والنبوة، وأن موسى عليه السلام أوصى أن تؤمن بنبيّ يرينا هذه الآية: «نار تأتي من السماء وتأخذ القربان»، وليس مع محمد هذه العلامة، بل إنه جمع جماعة وسحرهم ويريد أن يتغلب عليهم ويرأسهم.

وظلّ حيي بن أخطب يكلمهم حتّى رضوا بنقض العهد، ثم

(١) سيرة ابن هشام ٣: ١٤٨. العلاقات: ٣٣٣، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٨٤.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٨٤، «قد قرأت التوراة التي أنزلها الله في سفرنا، بأنه يبعث نبياً في آخر الزمان، يكون مخرجه بمكة ومهاجره بمدينة إلى البحيرة، يركب الحمار العاري، ويلبس الشملة ويجتري بالكسيرة والتميرات، وهو الضحوك القتال، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالى من لاقاه، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر، فإن كان هذا هو، فلا يهولنه هؤلاء ولا جمعهم، ولو ناوته هذه الجبال الرواسي لغلبتها».

قال لهم: أأتوني بالعهد الذي كتبه لكم محمد، فجاؤوا بذلك الكتاب، فأخذه حيي بن أخطب ومزقه وقال: قضي الأمر، اذهبوا واستعدوا للحرب.

ثم رجع حيي بن أخطب إلى قريش التي عسكرت على مقربة من أحد وأخبرهم بنقض بني قريظة ففرح الجميع بذلك^(١).

وذلك أن بني قريظة خلف المدينة في الجنوب الشرقي وقد عسكروا هناك، ولا يصدهم شيء عن الهجوم على المدينة، وقد كان جيش المسلمين تحت وطأة جيش قريش المتألف من عشرة آلاف مقاتل، ومن الصعب جداً تأمين أمنية الجبهة الجنوبية في هذه الظروف الحالكة، ولا شك أن إذاعة خبر بني قريظة سيربك الوضع في المدينة إلى أبعد الحدود، لأن ذلك يعني محاصرة المدينة من جميع الأطراف وقيل: أن العدو قرب منها وقد أشرف عليها بحيث لا يتمكن أحد من الخروج للتخلي، لا احتمال إصابته بسهام العدو^(٢).

هذا وقد أصاب المدينة القحط لفترة قصيرة^(٣)، والمنافقون الذي أصابهم الذعر في هذا الحال صاروا يتفلتون من المعركة خفية ويتعدون عن ساحة القتال.

(١) سيرة ابن إسحاق: ٣٩٨، سيرة ابن هشام ٣: ١٤٨، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٨٥.

(٢) بحار الأنوار ٢٠: ١٩١.

(٣) بحار الأنوار ٢٠: ٢٤٨، الخرائج والجرائح ١: ١٢٣. روي أن عام الخندق أصاب أصحاب النبي جماعة لما حاصروهم المشركون فدعا بكف من تمر وأمر بثوب فبسط وألقى ذلك التمر عليه، وأمر منادياً ينادي في الناس: هلموا إلى الغداء فاجتمع أهل المدينة فأكلوا وصدروا والتمر تبض من أطراف الثوب. بض الماء سال قليلاً قليلاً. (سيرة ابن هشام ٣: ١٤٦)

رأفة رسول الله

وفي هذه الظروف أراد الله سبحانه أن يستجيب طلب رسوله ويكسر شوكة ذلك الجيش، وذلك بإسلام نعيم بن مسعود الغطفاني، فلما كان في جوف الليل جاء نعيم إلى رسول الله ﷺ وكان قد أسلم قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، فقال له: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمروني بأمرك، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإنما الحرب خدعة، فانطلق نعيم فاستطاع أن يخذل بين اليهود وقريش ويسلب الاعتماد المتقابل بينهم إلى حد أن بني قريظة طلبوا من قريش رهناً من أشرفهم، وظلت غطفان مترددة إلى آخر المعركة لم تبد تحركاً^(١).

وظل العسكران يتطاولان لمدة أسبوعين من دون قتال إلا تبادل الشباب بشكل متناوب، ولم يكن من السهل عبور الخندق إلى أن استطاع عمرو بن عبد ودّ ونفريات من أصحابه أن يعبروه وتقدموا بعض الشيء نحو المدينة حتى كادوا أن يصلوا إلى خيمة رسول الله ﷺ وجعل عمرو بن عبدودّ يدعو إلى البراز والمسلمون وقوف لا يقدم واحد منهم عليه فصار يعرض بالمسلمين ويقول: ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟ والمسلمون كأن على رؤسهم الطير، وقد حبست أنفاسهم، ثم إن رسول الله ﷺ ضمّن لكل من يخرج إلى براز عمرو اللجنة ثلاث مرّات، ولكن لم يتحرّك من المسلمين أحد

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٠٥، سيرة ابن هشام ٣: ١٥٥، العلاقات: ٣٣٦، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٠٣. الرسول واليهود ٣: ٩٦٣.

سوى أمير المؤمنين علي عليه السلام في كل ذلك، يقوم من بينهم ليبارزه فيأمره الرسول بالجلوس انتظاراً منه أن يتحرك غيره، فلما طال نداء عمرو، قال رسول الله علي عليه السلام: امض لشأنك، فأجاب عمرو بشعره المعروف: لا تعجلنّ وقد أتاك مجيب...، فاقتتلا وثارَت بينهما فترة، واضطربت قلوب المسلمين وهم ينتظرون وينظرون ماذا سيحدث، إلى أن سُمع تكبير علي عليه السلام، فعلموا أن علياً قد غلبه وانتصر عليه، ثم إن علياً قتله واحتزّ رأسه على عادة أهل ذلك الزمان وأقبل به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(١).

ونقل خبران آخران في ذيل تلك الواقعة العظمى، أحدهما براز زبير بن العوام مع هبيرة أحد أصحاب عمرو وواحد من شجعان جيش الكفر، واستطاع الزبير أن يتغلب عليه ويقتله.

والأخرى خروج عمر بن الخطاب لمبارزة ضرار بن الخطاب صاحب عمرو الآخر، فلما برز إليه ضرار انتزع له عمر سهماً، فقال ضرار: ويحك يا بن صهاك، أترميني في مبارزة؟! والله لئن رميتني لا تركت عدوياً بمكة إلا قتلتَه، فانهزم عنه عمر، ومرّ نحوه ضرار وضرب على رأسه بالقناة ثم قال: احفظها يا عمر، فإني آليت أن لا أقتل قرشياً ما قدرت عليه، فكان عمر يحفظ له ذلك بعد ما ولي، وولاه ^(٢).

ثم إن أصحاب عمرو الذين عبروا معه الخندق لاذوا بالفرار،

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٠١ وموسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٩٥. الإرشاد ١: ٩٧.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٩٧، عن تفسير القمي ٢: ١٨٥ وأضاف: فكان عمر يحفظ له بعد ما ولي فولاه.

وفقد جيش قريش توازنه وتزعزت إرادته وصار ينهزم، وأصبح أفرادهم يفضلون الفرار على القرار^(١)، وإن كان هناك أخبار ببقاء الجيشين لمدة أسبوعين بعد ذلك في قبال البعض يتراشقون بالسهام، حتى أقلعت قريش وعادت خائبة.

وقيل إنه لما أخبروا الرسول بنقض بني قريظة العهد قال: «الله أكبر ابشروا يا معشر المسلمين»، ولعله كناية عن انكسار اليهود في القريب العاجل وهلاكهم، ولكن مع ذلك فقد خافهم المسلمون وأصابهم الرعب والذعر بحيث لم يسكنهم كلام الرسول ﷺ^(٢).

وبالتالي فإن هذا الحال استمر أسبوعين، إلى أن قتل عمرو بن عبدود وبعض أصحابه وفرّ الباقي، ولم يتمكن اليهود من عمل شيء حتى ئست قريش من اشتراكهم في الحرب، وصار نسيم النصر يهب وجاءت جنود من الغيب بحيث أخذ فرسان قريش يصرعون الواحد بعد الآخر، وبلغ الحال إلى حدّ أن قريش تصوّرت أن الجن قد اشتركوا في هذه المعركة، وهبّت الرياح العاصفة التي أخذت تعصف بهم والبرد الشديد القارص سلبهم القدرة على المبادرة وأصابهم الضعف من جراء الجوع وشحّة علف المراكب وصاروا مهتدين، والأهم من كل ذلك الخوف والذعر ملأ قلوبهم كما أخبر به القرآن، ولذا لم يجد أبو سفيان بداً من العودة، فنادى بالقوم

(١) المغازي ٢: ٤٧١، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٩٧.

(٢) البحار ٢٠: ٢٠١، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٨٦.

العودة فإني عائد^(١).

والحق أن ذلك كان خطراً قد تهدد الإسلام الناهض، وكانت قريش مطمئنة بالغلبة والنصر، ولكنها رجعت إلى مكة خائبة، وبذلك أعطى يهود قريظة الفرصة للرسول ليعاقبهم، فجفلوا في قلاعهم وآطامهم ينتظرون تنفيذ العقوبة في حقهم.

فكان انهزام جيش قريش البالغ عشرة آلاف مقاتل بمثابة من الأهمية والمصيرية وله دوره الفاعل في بقاء الإسلام بحيث عدّه الله سبحانه من نعمه على المسلمين وامتن به على العباد الموجودين ومن سيوجد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٢).

وترك جيش المسلمين الساحة ظافراً لم يقتل منهم سوى ستة أشخاص وكفى الله المسلمين عادية تلك الحرب بذلك المقدار من الخسائر، ولذا فإن قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ كان بشارة كبرى وحياتية تحمل عواقب طيبة ومعاني عظيمة.

(١) العلاقات: ٣٣٨.

(٢) الأحزاب: ٩.

سر الانتصار: شجاعة الإمام علي

نعم، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بقتل عليّ عمرو بن عبدود^(١).

وذلك لما عبر عمرو الخندق وصار يطلب البراز بكامل الغرور والأنفة، ولم يجرأ أحد على إجابته إلى ذلك، ولم يبرز له سوى أمير المؤمنين عليه السلام، عندها قال رسول الله ﷺ: يا علي إنه عمرو بن عبد ودّ فارس ليليل، فقال عليّ عليه السلام: وإن (أو قال: وأنا عليّ بن أبي طالب).

عندها دعاه الرسول ﷺ ولاطفه وعمّمه بعمامته وأعطاه سيفه ذو الفقار، ثم أرسله للمبارزة، ودعا له، كلّ ذلك يحكي عن عظمة هذا الإمام الهمام وأهميّة تلك المبارزة المصيريّة، فإن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك مع أحد في واحدة من المعارك^(٢).

وقيل: إنه لما برز عليّ إلى الميدان جثى الرسول ﷺ على ركبته ورفع يديه إلى السماء وسأل الله سلامة أخيه ووصيّه وخليفته^(٣).

(١) الأحزاب: ٢٥، البحار: ٢٠: ١٩٧ و ٢٣٣، في البحار: ٢٠: ٢٥٩ روى ذلك الشيخ سليمان الحنفي البلخي في كتاب ينابيع المودة. وفي البحار ٢٠: ٢٥٩، روي أن عبد الله ابن مسعود كان يقرأ هكذا «وكفى الله المؤمنين القتال بعلي وكان الله قويا عزيزا، الآية».

(٢) البحار: ٢٠: ٢١٦؛ موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٩١.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٩١ وقد ذكر الكراجكي: ١٣٧، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إن النبي قال ثلاث مرات: أيكم يبرز إلى عمرو وضمن له على الله الجنة؟ وفي كل مرة يقوم علي عليه السلام والقوم ناكسو رؤسهم. فاستدناه وعممه بيده، فلما برز قال: برز الإيمان كله إلى الشرك كله. وعن الباقر عليه السلام: إن النبي قال يومئذ: اللهم انك أخذت مني عبيدة يوم بدر وحمزة يوم أخذ وهذا أخي علي ابن أبي طالب "رب لا تذرنني فردا وانت خير الوارثين" وقال ابن شهر آشوب في المناقب ١: ١٩٧: "ودعا النبي وهو جاث على ركبته باسط يديه باكية عيناه ينادي بأشجى صوت: يا صريخ المكروبين يا مجيب دعوة المضطرين اكشف همي وكربي فقد ترى حالي".!

وكان كلام النبي ﷺ عندما التقى عمرو والإمام علي عليه السلام أن قال: «برز الإيمان كله إلى الكفر كله»^(١)، فهو يحمل معنى أن غلبة علي وقتل عمرو يعد تجلياً لعامة الإيمان وغلبته على عامة الكفر، ومن الواضح أن أحد مظاهر الكفر هم اليهود الذين تعرّضوا للهلاك بعد ذلك على أن الكلام في هذا العامل الأساسي والكتابة فيه لا تفي بها مائة صفحة، لأنها العملية التي تركت آثارها المباركة وثمراتها الطيبة في جميع أرجاء الدولة الإسلامية وحدودها، بمعنى أن ضربة علي عليه السلام يوم الخندق مفتاح كل الانتصارات اللاحقة، وفي الحديث أنه لما قتل علي عليه السلام عمرًا سمع نداء من السماء: «قتل عليٌّ عمرًا، صاد عليٌّ صقرًا، قصم عليٌّ ظهرًا، أبرم عليٌّ أمرًا» وهو أوجز كلام وأخصبه معنى، فهل إن هذا العمل الجبار لا يستحق الإشادة به ولا يستحق أن يتناول بالتحليل حتى تتضح الحقائق الكامنة وراء ستار التعصب الجاهلي؟^(٢).

فإذا فرضنا أن عليًا عليه السلام لم يكف المسلمين شرّ عمرو وانتصرت قريش على المسلمين فمن سيكون الرابع الأول؟ أليس هم اليهود، وبقتل عمرو يكون اليهود قد نكبوا أيضًا، ولا يذهب عن الأذهان دور علي عليه السلام في نكبة اليهود.

(١) بحار الأنوار ٣٩: ١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦١: ١٩ موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٩٢: ٢.

(٢) بحار الأنوار ٢: ٢١٦، و٢٦١، وردت هذه الرواية في كتب أهل السنة كثيرًا، وذكر مبارزة علي مع عمرو وفي سيرة ابن إسحاق: ٤٠١ وابن هشام ٣: ١٥١، وفي مسندي مسلم ومالك وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصري قال إن عليا عليه السلام لما قتل عمرو بن عبد ود حمل رأسه فألقاه بين يدي رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر فقبلا رأس علي عليه السلام وروى عن أبي بكر بن عياش أنه قال ضرب علي ضربة ما كان في الإسلام أعزّ منها يعني ضربة عمرو بن عبد ود وضرب علي ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها يعني ضربة ابن ملجم عليه لعائن الله.

والذي يؤسف له أن المصادر التي يعتمد عليها المستشرقون وعلماء الغرب حول الإسلام وتاريخه هي مصادر العامّة فقط وكتبهم، خصوصاً ما ترجم منها إلى لغاتهم، ولا شك أن ترك التعرّض لذلك الحدث العظيم واختيار الصمت أمامه يُعدّ ظلماً عظيماً في حق أمير المؤمنين عليه السلام ورسول الله ﷺ، فيبقى على المحققين المنصفين أن يعيدوا نظرة شاملة في هذا المجال، فإن مثل هذا الإجحاف. قد تكرر في موارد من تاريخ الإسلام واليهود^(١).

ولم تكن راية رسول الله ﷺ في يد علي في هذه الحرب فقط، بل كانت بيده في غزوة بني النضير وغزوة بني قريظة وغزوة خيبر أيضاً، ويبدو أن هذا الفارس المغوار ظل منسياً، بينما مال محققو العامّة إلى تضعيف دوره مما أدّى إلى عدم تسليط الضوء بشكل كافٍ على بيان عملية استئصال اليهود وقمعهم، لتوقفه على إظهار مواقف الإمام علي عليه السلام وشجاعته، بيد أنه يد رسول الله ﷺ، وهو يعني وقوف البشرية على عظمة هذه الشخصية الأمر الذي لا يرتضيه العامّة ولا يناسب أهدافهم ومعتقداتهم، فعلينا أن نصرّح بأعلى صوت ونقولها للعامّة إنكم بكتمانكم تلك الحقائق أصبحتم كاليهود في كتمانهم الحقائق المرتبطة بالرسول ﷺ، ووصيّيه. ألم تعلموا أن يد عليّ هي سيف الله المسلول في يد الرسول، بحيث أنه لولا عليّ لما تحقّق القضاء الإلهي المحتوم، ولما تحقّقت انتصارات الرسول وجهاده ولا مقارعته للكفر.

فمن اللازم استعراض أخبار معركة الأحزاب الموحشة ولم نكن

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٠١، البحار ٢٠: ٢٠٦.

نقصد الخوض فيها قبل هذا، ففي تلك الظروف الحرجة التي كانت قريش واليهود قد صمّموا فيها تصميمًا قاطعًا على دخول المعركة الحاسمة بعدما أعدوا كامل قواهم وصاروا يعدّون الساعات لإنزال الضربة القاصمة بالمسلمين وقتل عامتهم، وسبي نسائهم، وبتعبير أبي سفيان: «نبقر بطون نسائكم...»، عندها تجلّت قدرة الله سبحانه السرمدية من كُمّ علي بن أبي طالب لتكون هي تمام الإيمان وقد برز إلى عامة الكفر وتقلب الموازين على عقب، ليتجاوز المسلمون تلك العقبة التي هي أخطر ما واجهوه وحتى أخطر من معركة أحد خلال ساعة واحدة؛ لتبقى راية الإسلام عالية وخفاقة، وتمهد الأرضية لذلك النصر المؤزر الذي وعد رسول الله ﷺ به المسلمين أثناء حفر الخندق^(١)، فكان ذلك آخر موقع للعدو وآخر مترس يتمكنون من تعزيزه وآخر فرصة يتمكنون من توحيد القوى فيها وجمعها وجعلها كيد رجل واحد. ولذلك قال رسول الله ﷺ بعدها: الآن نغزوهم ولا يغزونا^(٢).

ونقل عن أبي وجرة: أن قريش لما صمّموا على الرجوع ورجعوا، كتب أبو سفيان كتابًا هذا نصّه: باسمك اللهم فإني أحلف باللات والعزى، لقد سرت إليك في جمعنا وإنا نريد أن لا نعود إليك أبدًا حتى نستأصلك، فرأيتك قد كرهت لقائنا وجعلت مضائق وخنادق فليت شعري من علّمك هذا، فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد تبقر فيه النساء.

(١) البحار ٢٠: ١٩١، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٤٩٩.

(٢) الرسول واليهود ٣: ٩٦٦، عن المغازي: ٤١٩، وفتح الباري ٧: ٤٠٥.

فأجابه رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب، أما بعد فقد يئس غرك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذاك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى، وأما قولك: من علمك الذي صنعنا من الخندق؟ فإن الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يوم تدافعني فيه بالراح، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك^(١).

وأخيراً رجع رسول الله ﷺ في يوم الأربعاء ٢٣ ذي القعدة إلى المدينة ظافراً.

نقض بني قريظة العهد

بينما دأب المنافقون على إلقاء المخاوف وتشيت أفكار المسلمين والسعي وراء زعزعة عزائمهم وتفتيت إرادتهم. وفي هذه الظروف العصيبة وصل خبر نقض بني قريظة العهد وخروجهم من حصنهم، فأرسل رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد وآخرين ليتحققوا من صدق الخبر، ويُعلموا الرسول ﷺ بالكناية، فرجع سعد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بالكناية بنقض اليهود العهد.

إذا قال قائل من أين ثبت نقض بني قريظة العهد ولا دليل على

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥١٣، عن المغازي ٢: ٤٩١ - ٤٩٣.

ذلك، ولم يسمع الرسول ﷺ بنفسه منهم شيئاً، ولم ير منهم ما ينقض العهد، ومن ناحية أخرى فإن لهم روابط حسنة تربطهم مع الأوس نسبية وغيرها، فكيف يمكن اتهامهم بالنقض بسهولة، والحكم عليهم بالكفر والمحاربة والإقدام بقتلهم، فإذا صح الخبر بنقضهم العهد، فلا بد من أن يعلمه الأوس، ويتّضح لهم الأمر، فأراد رسول الله ﷺ أن يكون هناك دليل على النقض ويكون لديه حجة تامة يحتج بها، إذا ما تصدى لبني قريظة بعد الفراغ من منازل قريش فصار يأمر بالتحقق من صحة الخبر، واطلع الأنصار على ذلك بهذه الطريقة، ليشهدوا عن قرب عمل حلفائهم، ولكنه كان قد بعث إليهم زبير بن العوام المعروف بالشجاعة والرأي الصائب، في المساء ليأتيه بأخبارهم، قال عبد الله بن الزبير: كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثة فلما رجعت قلت يا أبت رأيتك تختلف قال: وهل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله قال من يأت بني قريظة فيأتيهم بخبرهم، فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله أبويه وقال فداك أبي وأمي^(١).

ويعلم من هذه الرواية أن هذا الاستخبار كان سراً من دون أن يعلم به أحد، ثم بعث رسول الله ﷺ على أثر ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد مع ابن رواحة وخوات بن جبير الأنصاري الأوسي، -وبرواية الواقدي أسيد بن حضير- إلى بني قريظة للالتقاء بهم ونصيحتهم،

(١) الرسول واليهود: ٩٣٥، ٩٣٦، وعن البخاري: ٦٢، وفي فضائل الصحابة حديث ٣٧٢٠، والترمذي حديث ١٣٧٤٣ وغزوة الخندق للدكتور شوقي: ١٠٨ وردت هذه الرواية في مصادر العامة.

فذهب سعد بن معاذ الذي تربطه معهم روابط حميمة قريباً من الحصن ليسمعهم كلامه، ولكن اليهود لم يمهلهوه وأخذوا بسب الرسول وأعلنوا نقضهم العهد مع النبي، فاضطرب سعد لذلك وسكت ولم يقل شيئاً، ولكن سعد بن عبادة رئيس الخزرج أخذ ينصحهم ويكلّمهم عسى أن يصرفهم عن تصميمهم، ولكن لم يثمر ذلك سوى العناد والتمرد. وقد قالها اليهود بصراحة بأنهم نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ فكان سماع ذلك ومشاهدته من رئيسي الأوس والخزرج أكبر بينة للرسول ﷺ ضدّ بني قريظة، ومع تقديم النصح لهم فقد تمت الحجة عليهم ويسّرت السبيل للمستقبل، فإذا أراد سعد أن يحكم فيهم يكون قد سمع بنفسه جرأتهم وسبابهم، وشاهد تمردهم ونقضهم العهد.

وكانت مهمّة هذين مما عدا الاستطلاع هي النصيحة والوعظ، لأنّ الغالب عدم تخطي الأصحاب عما أمروا به، ونقلوا أن سعد بن عبادة قدّم لهم النصيحة، فإذا كان ذلك حقاً، فهو يعني أن الرسول ﷺ برحمته وشفقته أتاح لليهود الفرصة للنجاة وأراد أن يبعدهم عن حافة الخطر، وأن يتمّ عليهم حجة الله سبحانه، ولكن اليهود الجحدة لم يستثمروا هذه الفرصة المتاحة، وأصرّوا على العناد والاستكبار وكان الرسول ﷺ يعلم مصيرهم، ولذلك لما سمع بنقضهم العهد كبر وبشّر المؤمنين، ليدلّ على اقتراب نهاية العدو، وسرعان ما وصلت النوبة لمؤاخذه بني قريظة.

الكلام الثاني

غزوة بني قريظة

الآيات التي تتحدث عن غزوة بني قريظة

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وقد فسّر آخرها يعني ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ بتحركات يهود بني قريظة، والآية الأخرى هي جزء من آية ٢٦ من هذه السورة ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، فهي تتحدث عن جماعة مشركي قريش في حربهم مع الرسول وقد فسّر هذا القسم من الآية بقريظة قوله: ﴿وَأَنْزَلَ﴾ وقوله: ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ بيهود بني قريظة. لأن لهم قلاع وقد كمنوا في قلاعهم، وهناك أحاديث كثيرة في هذا المجال^(١).

هذا وقد عبّرت هذه الآية عن بني قريظة بـ: المظاهر وناصر قريش، بينما تخبرنا عن مقتل جماعة منهم وأسر آخرين.

وأما تاريخ الغزوة فالمعروف أنه بعد معركة الأحزاب مباشرة،

ولكن الاختلاف في تاريخ معركة الأحزاب سرى إلى غزوة بني قريظة، وقال في كتاب العنصرية اليهودية: المرجح أن الغزوة كانت في ٢٣ ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، شهر نيسان، أبريل ٦٢٦ ميلادية^(١).

أسباب الغزوة

أهم عوامل هذه الغزوة هو نقض العهد، الأمر الذي اعترف به بنو قريظة، واستشهد عليهم الرسول بما لا يمكن إنكاره.

كيفية الغزوة

لما رجع الرسول ﷺ من معركة الخندق إلى المدينة وصار ينزع لباس الحرب ويغسله، نزل عليه جبرئيل الأمين وقال له: أراك قد وضعت السلاح ولم نفرغ من الحرب، فقام رسول الله ﷺ مسرعاً وجمع الناس وقال: لا يصلي أحد صلاة العصر إلا في بني قريظة، فأعطى علياً رضي الله عنه الراية وتوجه نحوهم^(٢).

ولم يلتفت بعض المتظاهرين بالقداسة إلى ذلك الخطاب وصلّى صلاة العصر في المدينة ثم توجه إلى بني قريظة، وصلى البعض في

(١) العنصرية اليهودية ٢: ٤٤١، وكان عدد اليهود في أقل تقدير أربعائة وقد نزل على شأنهم ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ...﴾ (الأحزاب ٢٦). وجاء في ص ٤٥٨ من الكتاب: هذا البلاء على طبق ما حكم في كتابهم: (في التثنية الإصحاح ٢٠ فقرة ١٠ و١٢ و١٤).

(٢) البحار ٢٠: ٢١١، سيرة ابن إسحاق: ٤٠٨ وسيرة ابن هشام ٣: ١٥٨ وموسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥١٥.

وسط الطريق، ولكن الرسول ﷺ والمؤمنين من أصحابه صلّوا في بني قريظة بعد ذهاب شطر من الليل، فكان ذلك مشهد آخر للانتخاب والاجتهاد في مقابل النص، شرع به المنافقون وصار منشأً لنظائره فيما بعد^(١).

وكان علي عليه السلام أول طليعة للجيش وصل إلى بني قريظة فلما رآهم ورأوه خافوه وقالوا: جاء قاتل عمرو، وأخذوا بسبه وسب الرسول ﷺ فرجع علي عليه السلام والتقى برسول الله وحذّره من الاقتراب، فقال ﷺ: لعلك سمعت منهم ما يغيض. ثم أمر بمحاصرة القلعة من كل جانب، عسى أن ينزلوا على حكم الله^(٢).

ونقلوا في مدة الحصار أخباراً تتراوح من ١٥ إلى ٢٥ يوماً، تعب فيها اليهود من الحصار وصاروا في ضيق وألقى الله سبحانه في قلوبهم الرعب والرهبة، ولم يرضوا بالنزول على حكم رسول الله ﷺ، وأصرّوا على عنادهم، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يعاملهم مثل ما عامل به بني النضير، يعني الإجلاء، ولكن الرسول أراد منهم: إما أن يسلموا أو يسلموا أنفسهم من دون قيد أو شرط.

وبقي حيي بن أخطب الرئيس النضري مسبب الفتنة في الحصن ولم يخرج، كما وعد بني قريظة حينما نقضوا العهد، فلما رأى أن رسول الله ﷺ لا يتركهم جلس مع رؤساء اليهود الموجودين في القلعة للتشاور، فقال كعب بن أسد إني أقترح عليكم ثلاثة اختاروا أحدها،

(١) إعلام الوری: ١٠٢.

(٢) إعلام الوری: ١٠٢، مجمع البيان ٨: ٣٥٢.

إما البيعة مع الرسول وتصديقه لأننا نعلم إنه نبي آخر الزمان الذي نجده في كتبنا، ونحفظ بذلك أنفسنا وأموالنا وأعراضنا، فقالوا: لا نرضى بذلك، ولا نترك التوراة، فقال: إذن تعالوا نقتل نساءنا وأبناءنا حتّى لا نتخوف على ما يؤول أمرهم إليه، ثم نجرّد السيوف للدفاع عن أنفسنا، فقالوا: ليس إلى ذلك سبيل، إذ لا معنى للعيش بعد فقد الأحبة والأولاد، فقال: هذه الليلة ليلة السبت نحاربه غدًا لعلنا نظفر منه بفرصة أو نكمن له، فقالوا: لا نترك سبتنا، فقال: إني لا أراكم تجتمعون على رأي حازم^(١).

فطلب اليهود ملاقة أبي لبابة، فلما ذهب إليهم أبو لبابة فتشاوروا معه على النزول على حكم رسول الله ﷺ فأشار أبو لبابة إلى عنقه، بمعنى أن رسول الله ﷺ حكم بقتلهم، ولكنه ندم بعد ذلك على ما فعل وتاب وتوبته معروفة^(٢)، ولما صار بنو قريظة يتعلّلون في اتخاذ التصميم، نفذ صبر أمير المؤمنين ﷺ ونادى بالجيش: «بادروا يا جنود الإسلام»، وذهب هو والزبير بن العوام مسرعًا نحو القلعة ليستحلها وقال: «لأذقن ما ذاق حمزة أو أقتحم حصنهم»، وكان بنو قريظة يعلمون شجاعة عليّ فاستولى عليهم الخوف وسرعان ما سلّموا أنفسهم وطلبوا من النبي ﷺ أن ينزلهم على حكم سعد، فقبل ذلك^(٣).

وفي رواية أن الأوس كانوا يرغبون في أن يرحمهم الرسول ﷺ

(١) بحار الأنوار: ٢٠: ٢١١، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٢١.

(٢) سيرة ابن إسحاق: ٤١١، سيرة ابن هشام ٣: ١٦١، العلاقات: ٣٤١، العنصرية اليهودية: ٤٥٠.

(٣) غزوة الخندق، الشوقي: ١٤٥، عن السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٢٣٤.

ويخفف الحكم، فرد عليهم رسول الله وقال: متروك لليهود أن يختاروا حَكَمًا من بين الصحابة إذا شأؤوا، فرضي بنو قريظة بذلك واختاروا سعد بن معاذ.

ورضي رسول الله ﷺ بذلك، واختار الرسول تلك الطريقة لكي يرضي الأنصار، ففرحوا بذلك، ثم أمر رسول الله ﷺ اليهود أن يضعوا أسلحتهم، ثم أمر بتقييدهم وإخراجهم من القلعة مقيدين، ثم بعث من يأتي بسعد، ولما جاؤا بسعد وصار أمام اليهود، قال رسول الله ﷺ لليهود: قوموا إلى سيّدكم، فقام اليهود على أرجلهم، ثم إن سعد كلّمهم في أول الأمر ونادى فيهم: يا معشر اليهود هل تقبلون حكمي؟ قالوا: نعم نحن نخضع لحكمك. فأراد سعد بن معاذ بذلك أن يأخذ إقرارهم قبل أن يحكم فيهم، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول وآله وقال: يُقتل الرجال ويسبى النساء والأطفال وقسمة الأموال وأن مساكنهم للمهاجرين، يسكنون فيها، فكبر رسول الله وكبر الحاضرون وقال رسول الله ﷺ: يا سعد حكمت بما حكم به الله سبحانه من فوق سبع سموات.

وأخرج الأسرى مكتوفي الأيدي من القلعة، الرجال في جانب والنساء في جانب آخر، وجاؤوا بهم إلى المدينة، وكانت مهمّة جمعهم على عاتق محمّد بن مسلمة، ثم أودعوا في دار بني النجار، أو دار أسامة، أو رملة بنت أبي الجهم العدوي، فأخذ كل من أنبت وضربت عنقه واحدًا بعد واحد، وقد باشر قتلهم بعض المهاجرين ومن الأنصار الخزرج وكان هذا المنظر يؤلم رجال الأوس الذين كان بينهم

علاقة الحلف، فلما رأى الرسول ﷺ اضطرابهم وتأسفهم، أوكل إليهم قتل بعض الأسرى حتى يتم إجراء الأمر الإلهي على أيديهم وقد بقي منهم الثماني عشر، وبذلك تزول تلك النفرة التي اعترت أنفسهم واستولت عليها، إذ ليس من المستحسن أن يكره المسلم إقامة الحد الإلهي في نفسه، والمطلوب منهم محبة الله أكثر من حبهم أنفسهم وحبهم للآخرين، وقيل: إن إجراء الحد دام ثلاثة أيام، وقد قيل إنه تم عند منتصف الليلة الأولى^(١).

روي إنه: لما جيء بحبي بن أخطب لإجراء الحد عليه، مرّوا به على رسول الله ﷺ، فقال لرسول الله مخاطباً إياه: والله لا ألومن نفسي في عداوتك ولكن ماذا أفعل فمن يرد الله ذلّه يذل، ثم التفت إلى سائر اليهود وقال: لما كان هذا قضاء الله وتقديره فما علينا بأس، هذه الملحمة قد كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس ومدّ عنقه كي تضرب^(٢).

ثم أنظر إلى هذه الرواية حول كعب الرئيس الآخر لليهود، عن ابن عباس، أنه قال: لما دعا رسول الله ﷺ بكعب بن أسد ليضرب عنقه فأخرج وذلك في غزوة بني قريظة، نظر إليه رسول الله ﷺ فقال له: يا كعب أما نفعلك وصية (دواس) ابن حواش، الخبر المقبل من الشام، فقال: «ترك الخمر والخمير (الخمور) وجئت إلى البؤس والتمور، لنبيّ يبعث، هذا أوان خروجه، يكون مخرجه بمكة وهذه دار هجرته، وهو الضحوك القتال، يجزئ بالكسرة والتميرات ويركب الحمار العاري، في

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤١٥، سيرة ابن هشام ٣: ١٦٤، العلاقات: ٣٤٥.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٢٧، عن مغازي الواقدي ٢: ٥١٦.

عينه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالي بمن لاقى، يبلغ سلطانه، منقطع الخف والحافر»

قال كعب: قد كان ذلك يا محمد ولو لا أن اليهود تعيروني أني جنت عند القتل لآمنت بك وصدقتك ولكني على دين اليهودية، عليه أحيى وعليه أموت، فقال رسول الله ﷺ: قدّموه فاضربوا عنقه، فقدّم وضربت عنقه^(١).

وتشتمل هذه الرواية على الجواب على تساؤل المستشرقين وكل المستشكلين على ما صنعه الرسول ﷺ في هذه الغزوة، فمن الواضح جداً أن كعب بن أسد ألقى نفسه في التهلكة وعذاب النار من أجل أن لا تعيره النساء، «والعار خير من دخول النار»، فماذا يجب العمل مع هؤلاء اليهود والحال هذه؟ أولئك الذين لم يسمعوا نصيحة علمائهم وأخبارهم، وإذا سمعوها لم يتمسكوا بها، وماذا يستحق أولئك الجاحدون حتى يدافع عنهم كتاب اليهود.

وفي هذه الرواية عبرة ودرس لليهود اليوم، فليسمعوا إلى ما قاله ابن حواش (خراش) وصدّقه كعب بن أسد وليدخلوا في الإسلام.

وكما قلنا فإن دأب الرسول ﷺ في الحرب هو الابتداء بالنصيحة والإنذار كي تتم الحجة بكامل معناها، ولذا فإن أمير المؤمنين ظل يدعوهم عشرين يوماً - أي فترة المحاصرة - إلى الإسلام، ويرغبهم في التوبة، وهي فرصة مناسبة للتخلص من الموت، لم يغتتمها اليهود.

(١) البحار ٢٠: ٢٣٧، عن إكمال الدين ١: ١٩٨.

حكمة سعد

لماذا لم يرتض اليهود حكمية رسول الله ﷺ؟ هل كان حكمه بقتلهم واضحا لديهم بحيث يحتمله كل يهودي وغير يهودي، وكان أبو لبابة عالما به، لما أشار إلى عنقه وأعلم اليهود بذلك لما قدم عليهم؟ لماذا كانت هذه الطائفة تعتمد على سعد أكثر من غيره، ألم يخطئ اليهود في هذا الانتخاب؟ ألم يعلموا أن رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، والأنبياء أحق بالرحمة من غيرهم، ماذا يستحق من يقطع أمله من رحمة النبي ﷺ ويؤمل غيره؟ أليست هذه مرتبة من الكفر بالله؟ يجب تحرري الجواب عن ذلك في سلوك سعد وتعاطفه مع بني قريظة قبل تلك الواقعة.

والسؤال الآخر عن قبول النبي ﷺ حكمية سعد، ولعل الجواب هو أن النبي فوّض لليهود اختيار الحكم وقال لهم اختاروا واحداً من الأصحاب فإني ارتضي من تختارون، ورضي الرسول ﷺ بحكمية سعد كي تُفصل القضية بين الأوس أنفسهم، فطلبوا من سعد بإصرار أن يعاملهم بالرفق والمداراة، ولكنه كان صلباً لا تأخذه في الله لومة لائم، وحكم بالحق فكان من نصيبه تحسين الله ورسوله^(١).

قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله، هذا سعد بن معاذ من خيار عباد الله، أثر رضا الله على سخط قراباته وصهاره من اليهود، وأمر

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤١٤، سيرة ابن هشام: ٣: ١٦٣، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٢٥ في الهامش.

بالمعروف ونهى عن المنكر، وغضب لمحمد رسول الله ﷺ ولعلي ولي الله ووصي رسول الله ﷺ.

وهناك روايات كثيرة تحكي فضائل سعد وتعدّه من المدافعين عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولذلك تقصى الحق وحكم به^(١).

وقيل: إن سعدًا نقل إلى المسجد بعدما جاؤوا به إلى بني قريظة بصعوبة، ففتح جرح رجله وانبعث منه الدم، وفارق الحياة في اليوم الثاني، وقيل إنه ظلّ حيًّا إلى أسبوعين^(٢).

ولما توفي سعد متأثرًا بجرحه، قال رسول الله ﷺ في عزائه: يرحمك الله يا سعد فلقد كنت شجًّا في حلق الكافرين لو بقيت لكففت العجل الذي يراد نصبه في بيضة الإسلام^(٣).

فما ذلك العجل؟ هل ستركّر قصّة بني إسرائيل في هذه الأمة؟ هل إن الأمة الإسلامية ستخالف الرسول ﷺ وتسلّك السبيل الذي نهاهم عن سلوكه مثل ما خالف قوم موسى، وهل يتركون ما وصّى به

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٣٦ - ٥٣٧، وهوامشها، الرسول واليهود: ١٠٧٩، ابن إسحاق: ٤٢٢، وفي بحار الأنوار ٢٠: ٢١٣، عن مجمع البيان ٨: ٣٥١ وعن جابر قال جاء جبرئيل إلى رسول الله ﷺ فقال من هذا العبد الصالح الذي مات فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش، فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ قد قبض. وفي بحار الأنوار: ٢٠: ٢٣٥ وج: ٣٧: ٥٨ ثم قال رسول الله لسعد: أنت من الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، فلما فرغ من آخرهم انفجر كلمه ومات، فقال رسول الله ﷺ هذا ولي من أولياء الله حقًا، اهتز عرش الرحمن لموته، ولمنذيله في الجنة أفضل من الدنيا وما فيها، إلى سائر ما يكرم به فيها حياته الله ما حياه.

(٢) غزوه الخندق للدكتور شوقي: ١٥١.

(٣) تفسير الإمام العسكري ٧: ٤٨١.

رسول الله ﷺ؟ هل سينحون هارون الأمة ويعكفون على العجل، ألم يكن بين الأصحاب مثل سعد بن معاذ يُري المهاجرين والأنصار الحق مرة أخرى؟

نعم، كم في هذا الكلام من المرارة والكدر وكم هو مؤسف ومحزن، بل يكمن فيه عالم من الغم والحسرة، فمع كل تلك الرأفة وتحمل تلك الصعاب يتمنى الرسول ﷺ أن يبقى سعد حتى يقود المهاجرين والأنصار في سبيل عبادة الله سبحانه لا عبادة العجل! (١).

عدد رجال بني قريظة

طبقاً للروايات الواصلة والمنقولة بعدّة طرق وبعض أخبار المؤرخين أن عدد مقاتلي بني قريظة يبلغ سبعمائة مقاتل، إلى سبعمائة وخمسين، وغايته تسعمائة مقاتل، وفي رواية البحار أنهم تسعمائة وخمسون مقاتل (٢).

وفي بعض أخبار المؤرخين أنهم أربعمائة مقاتل، ومع التشكيك في صحة هذه الروايات والأخبار فيجب الجزم بأن عددهم لا يقل عن أربعمائة رجل،

(١) إن مراد النبي ﷺ من العجل هو أبو عامر الراهب الذي أراد المنافقون أن يرثسوه، وبنوا مسجداً يعرف بمسجد ضرار. أقول: ولكن هذا في الحقيقة مصداق ما قاله الرسول ﷺ ستبعون سنة بني إسرائيل، ولذا فإن عبادة العجل تبقى في كل زمان بما يناسب ذلك الزمان، ولا شك أن الذين استولوا على مقعد الرسول ﷺ ظلما بمنزلة العجل في بني إسرائيل، وأتباعهم هم بمثابة عبدة العجل. (المستفاد من تفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٤٨٠ - ٤٨٣).

(٢) سيرة ابن إسحاق: ٤٢٢، بحار الأنوار ٢٠: ٢١٣.

ونحن نعلم أن هذه الطائفة سكنوا مئات السنين قريباً من يثرب، وقد توالدوا وتناسلوا في ذلك الموضع فكيف يكون عددهم أقل من ذلك^(١)، فلا يصح المروي في كتاب البحار من أنهم مائة رجل على الأقوى.

وإذا سلمنا أن المقتولين من بني قريظة هم بعض رجالهم وبقي الباقي في الأسر والنتيجة أن القتلى قليلون، فإن إشكال القسوة والخشونة لا يرتفع عن الإسلام؛ لأن الأسر لا يقلّ عن القتل. ومن ناحية أخرى كيف تم الاختيار وعلى أيّ أساس وأيّ ميزان؟ ولماذا لم ينقل إلينا؟ وهل يعرف الرجال الذين أسروا أو عفي عنهم غير الإثنين أو الثلاثة الذين عفي عنهم، وأن الآية الشريفة: ﴿وَفَرِيقًا تَأْسُرُونَ﴾، لعل تشير إلى أسر النساء والأطفال، ثم سبيهم وإن ورد في الحديث: قتل منهم أربعمئة وخمسين رجلاً وسبي منهم سبعمئة وخمسين^(٢)، وإن كان ظاهر العبارة الرجال ولكن لا بدّ أن يكون أكثرهم الصبيان غير البالغين، واستظهر السيد العاملي «بأن المستفاد من النصوص أن بني قريظة لم يقتلوا كلّهم، بل قتل منهم خصوص من حزّب على النبيّ والمسلمين». وهذا لا ينافي ما قلنا والنتيجة أن أقلّ عددٍ يمكن قبوله للمقتولين هو: أربعمئة رجل^(٣).

هذا وقد عفي عن بعض رجال اليهود، أحدهم شابّ باسم رفاعة بن سموأل كان قد التجأ إلى امرأة مسلمة باسم أم المنذر سلمى بنت قيس، فطلبت من الرسول أن يعفو عنه، فوهبها رسول الله إياه، وهو

(١) يهود حجاز: ١٨٦، وفي بحار الأنوار ٢٠: ٢٣٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٠: ٢٥٩.

(٣) الصحيح من السيرة ١١: ١٢.

مما يعكس مقام المرأة عند الرسول، وعلى جميع المسلمين أن يقتدوا بهذا الرسول الأعظم ﷺ.

وهناك بعض اليهود الذين أسلموا قبل الأسر ونجوا بذلك من القتل ومنهم ثعلبة بن سعد، وأسيد بن سعية وعمهما أسد بن عبيد. وقيل: إن رجلاً من اليهود اسمه عمرو بن سعدي نصح قومه وقال: إن محمداً رسولُ الله حقاً ولا تضادونه، إما أن تدفعوا له الجزية أو تسلموا، ولكن أقرانه لم يسمعوا إلى كلامه، فخرج من القلعة بمفرده والتجأ إلى المسجد وأسلم، ثم لم يعلم أين حلَّ به الدهر، ولعله هرب ولاذ بالفرار، وقد قال الرسول ﷺ في حقّه: «إنه كان يأمر بالوفاء وينهى عن الغدر فلذلك نجا» ويمكن التحدّس من كلمة «نجا» أنه اتخذ إسلامه مطيّة للخلاص من المخمصة والفرار من المعركة^(١).

ثم أمر الرسول ﷺ بالرفق بالإماء، والاجتناب عنهن لمدة شهر، ومن الحوامل إلى زمان وضع الحمل، وهو يحكي عن أهميّة الأمور الأخلاقية والعائلية عند النبي ﷺ.

ثم أمر الرسول ﷺ بتقسيم النساء والأطفال بين المسلمين ونهى عن فصل الأولاد عن أمهاتهم، وأرسل مجموعة منهم إلى نجد ليستعين بأثمانهم على شراء السلاح والخيول.

وسمح الرسول ﷺ لبعض المسلمين ويهود المدينة بشراء بعض تلك الجواري يحتفظون بهن في المدينة ومن جهلتهم أبي شحم اليهودي فإنه

دفع مائة وخمسين ديناراً واشترى جاريتين مع كل واحدة ثلاثة أولاد. واختار الرسول ﷺ لنفسه من بين الأسرى رجلاً، وهي بنت زيد بن عمرو بن خنافة بن شمعون بن زيد من طائفة بني النضير، اختارها عند ما كانت على اليهودية كدليل على المعاشة السلمية بين اليهود والمسلمين، وبذلك عكس النبي أن البشر باستطاعته أن يتآلف إذا لم يقطعوا روابطهم العاطفية والفكرية ولا يحصل الابتعاد والوحشة فليس هناك توجيه آخر للتنافر، هذا وقد كانت قبل الأسر في ذمة رجل قرظي ويهودي باسم «الحكم» وقد قتل في هذه الغزوة، ولما صارت في يد رسول الله ﷺ أسلمت وأراد الرسول أن يعتقها ثم يعقد عليها، ولكنها فضلت البقاء في يده^(١). وما عمل الرسول ﷺ هذا إلا علامة على حسن ظنه بتلك المرأة التي كانت من بني إسرائيل ومن أحفاد النبي هارون، وأنها تستحق الاحترام والكرامة.

غنائم بني قريظة

أمر رسول الله ﷺ بأن يتولى عبد الله بن سلام ديار بني قريظة وأموالهم، حتى يجمع الغنائم ويشرف عليها، فنقذ ذلك وجمع الغنائم ثم أخرج منها الخمس وهي أول غنيمة تخمس^(٢)، ثم قسم الباقي بين الجنود، وقيل إن عدد الجنود في هذه الغزوة كان ثلاثة آلاف مقاتل، عدد

(١) البحار ٢٠: ٢٨٧.

(٢) وقد تقدم الكلام عن أول غنيمة دفع خمسها.

من شارك في معركة الأحزاب^(١)، وفي خبر أنهم كانوا ألف وأربعمائة مقاتل وفي حديث أنهم سبعمائة مقاتل عدد من شارك في حفر الخندق، وهي المروية عن الأئمة وفي قصّة جابر، ولعل خبر اليعقوبي مأخوذ من هذه الرواية. وأعطيت مساكن بني قريظة لفقراء المهاجرين يسكنونها.

واشترك في هذه المعركة أربعة نسوة منهن صفية بنت عبد المطلب، وليس للنساء من غنائم الحرب سهم، ولكن النبي ﷺ لا يدع أن يعطينهن شيئاً منها.

و يجب أن نذكر هنا أن المسلمين كانوا قد قاموا بإنذار بني قريظة طول مدة الحصار وكانوا يدعونهم إلى الإسلام، ولكنه لم يثمر ذلك سوى الإعراض والتعنّت واللجاج، مع أن مدة الحصار كانت عشرين يوماً، وكان بإمكانهم أن يسلموا ويخلصوا أنفسهم، ولكنهم أبوا.

وفي بعض الأخبار أنه كان يؤتى بكل أسير إلى الخندق ويعرض عليه الإسلام أولاً فإذا أسلم تركوه، ولكن المؤسف أنه لم ينقل إسلام واحد منهم في تلك الحال.

حقيقة الحرب في الإسلام

جاء في الحديث: أن أربعة أنبياء قاموا بالسيف، إبراهيم، وموسى، ومحمد: من أولي العزم، وداود النبي رابعهم، ونجد في القرآن الآية الشريفة: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ بَنِي قَاتِلٍ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(١). لعل أشار إلى أنبياء بني إسرائيل وغزواتهم، فليس من الغريب دخول الرسول في حرب، بل كان ذلك جارياً في كثير من الشرايع السماوية^(٢)، ولا يخرج الحال عن أحد أمرين، فتارة تتغلب جبهة الدين وأخرى جبهة الكفر، وقد يقتل من المؤمنين وقد يقتل من الكافرين، فالحرب هي كذلك، كانت وما زالت.

ونحن بعد دراسة حرب النبي مع يهود بني قريظة ونتائجها غير المطلوبة بحسب الظاهر بالنسبة لليهود، يمكن ملاحظة النقاط التالية:

- بعد ما عقد اليهود أنفسهم العهد.

- بعد ثلاث وقائع متتالية وقعت لليهود هي في الحقيقة ثلاث عبر.

- بعد مخالفة المبعوث من قبل الله سبحانه والوقوف بوجهه لإطفاء نور الله.

- بعد التآمر والتعاون مع عبدة الأوثان في مجال محاربة الموحدين.

(١) آل عمران: ١٤٦.

(٢) لاحظ كتاب «التاريخ العسكري لبني إسرائيل من خلال كتاباتهم»، لياسين سويد.

- بعد التحالف مع عبدة الأصنام على استئصال رسول الإسلام ودينه.
- بعد مشاهدة المعاجز الكثيرة الدالة على حقانية الرسول ﷺ.
- بعد رعاية الرسول ﷺ العهد وعنايته باليهود.
- بعد نقض العهد وتمزيق كتاب الرسول ﷺ من طرف اليهود.
- بعد اقتراح الرسول عليهم الإسلام أو رعاية العهد.
- بعد نصيحة أصحاب الرسول اليهود وتوصيتهم برعاية العهد.
- بعد نصحتهم بواسطة الأبحار اليهود من بني قريظة في رعاية العهد^(١).

مع الإنذارات المتكررة أثناء الحصار.

بالإضافة إلى أن اليهود كانوا هم البادئين بالحرب.

فلا وجه للتعجب إذا لاحظنا أن الرسول ﷺ الذي هو رحمة للعالمين ومظهر للعناية الإلهية على الأرض يفعل كل ذلك مع هؤلاء اليهود، فلا يعدّ ذلك من العنف ولا هو مناف لحقوق الإنسان، ولا يصدق كل ما نسبته الكتاب اليهود والمستشرقون إليه^(٢)، ويدخل في معالجة المجتمع العالمي، وحالها حال الغدة السرطانية التي لا محيص عن استئصالها من المجتمع حتى لا يتأثر بها باقي الأعضاء وتأمين سلامتها.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٥٢٠:٢ و٥٢٣.

(٢) انظر غزوة خيبر للدكتور شوقي أبو خليل: ١٠.

يجب أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين وفي نفس الوقت هو شديد العقاب، وأخلاق رسول الله ﷺ تستمد من أخلاق الله وهو الذي أدّبه، وليس في ذاته قسوة أو شقاء، ولا حس الانتقام وسفك الدماء، وهو كما مدحه الله سبحانه طاهر ومطهر وكما جاء وصفه في التوراة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

فإذا لم يرحم اليهود أنفسهم ولم يبدو استعداداً للدخول في الإسلام وتخليص أنفسهم فكيف بإمكان الأوس الذين دخلوا في الإسلام رغبة أن يدافعوا عن اليهود أكثر من ذلك. والمستشرقون الذين يرون أن تعامل المسلمين معهم كان دليل القسوة، لم يلحظوا العهد الموقع من جميع جوانبه الاجتماعية والدينية وعامة ضوابطه، ولم يأخذوا لاجابة اليهود وتكبرهم بنظر الاعتبار، ولما كان ولفنسون وعامة اليهود يرون لأنفسهم الفضل على سائر البشر والكل مدين لهم صاروا يحكمون بتلك الأحكام ولا يمكن إقناعهم في وجه من الوجوه إلا أن نختار دينهم وعقائدهم.

ولا شك أن تاريخ البشرية في السابق والحاضر قد شهد وقائع

دموية مؤلمة من قبل اليهود وقساوتهم ولعل الطائفة الوحيدة التي لا يحق لها أن تدعي الرحمة والرأفة بالآخرين هم اليهود، وإذا رأيناهم قد عاشوا في برهة من الزمان بهدوء واستقرار فالسبب في ذلك يعود إلى كونهم أقلية أو تحت وطأة الأسر، أي لا بد من عدم اقتدارهم، ومتى ما اقتدروا وحكموا استعبدوا الآخرين وعاملوهم معاملة الغلمان، أو يهريقون دماءهم لأجل التشفي وإطفاء الغليل^(١).

وأكبر دليل على ذلك هو ما يحدث في هذا الزمان اعني القرن الواحد والعشرين في فلسطين^(٢).

درس في التوبة والإخلاص

نزلت آية تذكّر تعاون المسلمين مع الأعداء ولو بالمقدار الذي أشار به أبو لبابة لليهود من أن مصيرهم القتل، وعدّت مثل هذا العمل خيانة يجب التحذّر منها، واشتعال كلام رسول الله ﷺ على إمكان قبول توبته يدل على أنه ارتكب ذنبًا، فكيف حال المسلمين هذه الأيام وهم يتعاونون مع اليهود المعاندين أعداء الإسلام بأنحاء مختلفة، ومن جملتهم إسرائيل. والدرس الآخر هو انفتاح طريق التوبة والإنابة وطريق إصلاح النفس وتلافي ما مرّ في كل الأحوال، وما لم ينزل البلاء وتحلّ العقوبة، فإن باب التوبة مفتوحة.

(١) العلاقات: ٣٤٩.

(٢) في هذه الظروف التي طرأت على المسلمين قال رسول الله ﷺ: الآن نغزوهم ولا يغزونا ونحن نسير إليهم، وجاء هذا القول ملاكًا لما تبع من الأحداث.

ولا زال الالتجاء إلى المسجد وتقييد النفس بعمود المسجد لأجل
التضرّع إلى الله مع عدم إنكار الرسول ﷺ ذلك العمل ولم ينه عنه،
يمكن أن يكون درسًا للمسلمين لكي يذهبوا إلى المواضع المقدّسة أو
عند المقربين من الله سبحانه ويلتجئون إلى الله بتلك الكيفية، ولا يعدّ
ذلك من الشرك^(١).



(١) إذا كان أبو لبابة حيًّا في هذا الزمان ويلتجئ إلى اسطوانة المسجد للتوبة ويربط نفسه بها،
كنت ترى سدنة المسجد والقوى النظامية فيه سيققلونه أو يجرّحونه، لأنهم يعدون ذلك
من الشرك، ولكن الرسول ﷺ لم يستنكر عمله ولم يرفهه بأسًا ولم يعاقبه على هذا العمل،
نعم إن البعض ينكر هذه القصة من أساسها ويراهم من الموضوعات كما جاء في كتاب
«ليال يهودية».

الكلام الثالث

إقدامات الرسول قبل غزوة خيبر

كان يهود خيبر أقوى من غيرهم من يهود الحجاز واتحادهم أقوى من اتحاد الآخرين ولم يسبق بينهم وبين عرب المنطقة منازعة أو حرب، ولم يعقدوا حلفاً مع قبيلتي الأوس والخزرج^(١)، وقيل إن جنودهم من أشجع الجنود وعدتهم أكثر من عدد سائر طوائف اليهود وعددهم أكثر من غيرهم ويقرب من خمسة آلاف نفر، وكانت مساكنهم في موضع أفضل من غيرهم والماء عندهم وفير، فكانت بساكنهم ومزارعهم ونخيلاتهم أكثر، وبعد ترحيل بني قيقناع وبني النضير فإن أفضل ملجأ يلتجئ إليه المجليون والمهاجرون هو خيبر، فاجتمع رؤساء الطوائف اليهودية المختلفة فيها وخصوصاً بنو النضير فإنهم اجتمعوا هناك^(٢).

وبعد معركة بني قريظة وقد اجتمع سلام بن مشكم عظيم اليهود

(١) الرسول واليهود: ١١٠٠.

(٢) وهذا يدل على توافق حُيي وكعب في الطريقة والرأي، وهو ذنب يكفي في الحكم بكفرهم، ويجب الإمعان في سبب إذن الرسول ﷺ لأبي الحقيق ورؤساء النضريين أن يسكنوا خيبر، هل هو امتحان آخر لهم أو توفير وسيلة لإلقاءهم في التهلكة.

مع سائر العظماء من بني النضير والأحبار اليهود في خيبر يتبادلون الآراء حول مواجهة الإسلام والنبِيِّ ﷺ مع ما أصابهم من الدهشة والاضطراب مما حلّ ببني قريظة والنضير وهم يلقون اللائمة على حيي بن أخطب المقتول، وأخذوا بالتفكير في التآمر على الرسول ويتحرون الطرق المناسبة لذلك^(١).

قال سلام بن مشكم: يجب أن نستمرّ في المواجهة ولا ننزل عند مطالب الرسول، ولكن لم يوافقهم جميع رؤساء خيبر بالرأي، وكان بينهم رجال دين يعلمون صدق النبيّ، وأنه لا جدوى في مناهضته، فكانوا يخالفون كلّ نوع من المبارزة، ولكن كما سيأتي لم يواكبهم عامة اليهود واضطر باقي الرؤساء من أجل حفظ رئاستهم من مواكبة العامة وتركوا ما علموا به واطلعوا عليه^(٢).

فصار أهالي خيبر يفصلون خوض المعركة في هذه المرحلة بصحبة سائر اليهود من دون مشاركة العرب، لأن قريش غدروا بهم في معركة الخندق واعطوا امتحانهم، مع أنهم يعلمون بعدم تحقيقهم بمفردهم شيئاً، فاضطروا لأن يطلبوا العون من طوائف العرب الأخرى^(٣).

وفي مقابل ذلك صار رسول الله ﷺ يبعث السرايا إلى المناطق التي يسكنها العرب ليحيل دون تعاونهم مع اليهود يستميلهم إلى جانبه، أو يحذّرهم من العواقب السيئة التي تترتب على تعاونهم مع

(١) مغازي الوافدي ٢: ٥٣٠، العلاقات: ٣٥٣.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٧٥.

(٣) يهود الحجاز: ٢٥٨.

أعداء الإسلام، كما قام بإرسال سرايا أخرى إلى المناطق التي يسكنها اليهود لمراقبة تحركاتهم.

وهذا القسم الثاني يرتبط بموضوع بحثنا فيجب تسليط الضوء عليه أكثر، ولذا نتعرض له أولاً ثم نلقي نظرة على السرايا المبعوثة إلى الطوائف العربية بشكل سريع عابر.

سرية أبي رافع

أصبح المسلمون بعد غزوات اليهود الثلاث في حالة من الاقتدار بحيث صار بإمكانهم التعرف على الرؤوس اليهودية المحركة وقمعها، فبعنوان المثال صار الخزرج يودّون القيام بعمل عظيم كما فعل الأوس مع كعب بن أشرف الذي اغتالوه، فكان هناك تاجر يهودي وهو رئيس خيبر ومن الأشخاص الذين ذهبوا مع حيي بن أخطب إلى مكة وحرّضوا قريش والأحزاب، وكان بعدها يحرض قريش وغطفان بعد معركة الأحزاب مرّة أخرى ويرغبهم في الحرب مع الرسول^(١). وكان آخر تحرّكاته في خيبر حيث كان يسعى لتجميع القوى من أجل مواجهة الرسول^ﷺ عسكرياً، ولما تمادى في هذا السبيل واتسعت رقعة تحرّكاته وإفساده تسأم منه النبيّ^ﷺ وأبدى انزجاره من أفعاله، فاغتنم جماعة من الخزرج الفرصة وصاروا في صدد قتله.

(١) العلاقات: ٣٥٤، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٤٠ عن المغازي ١: ٣٩١، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٧٥.

فأعدّوا لذلك سرّية تتألف من عبد الله بن عتيك مع أربعة أشخاص من الخزرج، وينقل أصحاب السير أن الرسول ﷺ أذن لهم ووصّاهم بشكل مؤكد بعدم التعرّض للنساء والأطفال وعدم إيصال الأذى إليهم^(١).

وقيل إن مرضعة أم عبد الله كانت امرأة يهودية فكان لها اتصال واسع باليهود، فاستطاع عبد الله وبإرشاد هذه المرأة من دخول حصن أبي رافع وتمكن من قتل أبي رافع في سريره من دون أن يوصل أذى إلى من كان إلى جنبه من امرأته وأولاده^(٢)، وبهذا الحدث غلب على أهل خيبر الرعب والوحشة بشكل عجيب.

ثم صارت رئاسة خيبر إلى أسير بن رازم، فتابع أسير سيرة أبي رافع وأخذ يستشير القبائل المحيطة، وكان ابن رازم قد سار قبلها إلى غطفان وكان له مذكرات معهم، من أجل أن يعدّوا العدة لحرب المسلمين^(٣).

ثم إن رسول الله ﷺ أرسل عبد الله بن رواحة إلى خيبر للاستطلاع، والتعرّف على عددهم وقواهم، فتمكّن من استطلاع ثلاث قلاع من قلاعهم^(٤).

وعلى أثر ذلك التدارك بعث رسول الله ﷺ سرية أخرى بقيادة عبد الله هذا مع ثلاثين شخصاً لدعوة أسير بن رازم إلى المدينة، فذهب

(١) سيرة ابن هشام ٣: ١٩٢.

(٢) المغازي للواقدي ١: ٣٩١؛ سيرة ابن إسحاق: ٤٣٠؛ سيرة ابن هشام: ٣: ١٩١.

(٣) المغازي للواقدي ١: ٣٩١.

(٤) يهود الحجاز: ٢١٣.

ابن رواحة إلى خيبر ليلتقي مع أسير ويقرأ عليه رسالة رسول الله ﷺ، وكان الرسول يريد أن يجعله على شطر من خيبر ويشترط عليه شروطاً، فاستطاع عبد الله أن يلاقي رازم ويبلغه كلام الرسول ﷺ، فقبل رازم الدعوة وجاء مع ثلاثين من جنوده إلى ملاقة الرسول، ولكنه ندم في الطريق، فحاول قتل مبعوث الرسول وأصحابه، ولكن ابن رواحة لم يمهله وقتله مع جميع أصحابه إلا واحداً تمكّن من الفرار وإخبار أهل خيبر بالخبر^(١).

وقيل: إن هذه السرايا لمجرد إيجاد الرعب في قلوب اليهود حتى لا يجروا على التدبير للمسلمين، ولكنني لا أظن أن الرسول ﷺ كان يريد ذلك، أو كان يريد إزاحة العناصر الرئيسة عن طريقه بالغدر والحيلة، بل إن وظيفته هي إبلاغ رسالات الله ودينه القيم، وما لم يلقِ على الناس الحجة ويبلغهم ما أرسل به لا يأتي دور المراحل اللاحقة، وما لم يتيقن الرسول ﷺ باستحقاق الشخص للقتل لا يقدم على قتله، فان من الطبيعي أن يقع الرعب في قلوب الأتباع إذا قتل رئيسهم، ولكن أعمال السياسيين لا طريق لها إلى عمل الأنبياء وديّانهم، وكل ما كان منهم فهو حقيقة وصدق وحكمة.

فإذا كان أسير قد جاء إلى المدينة ورضي باقتراح النبي ﷺ لاستقرت جميع المناطق الشمالية إلى حدود الشام، لأنها ستكون تحت رعاية الرسول ﷺ وكان أسير هو أول مندوب من قبل النبي ﷺ من بني إسرائيل، يكون قد جعل حاكماً على خيبر، ولزاده ذلك شرفاً واقتداراً

إضافة إلى رئاسته السابقة، وهل هناك رفق ورحمة أكثر من هذه، مع كل الخيانات السابقة والفساد الذي صدر من اليهود، بينما نجد الرسول ﷺ يريد أن ينصب الرجل الذي كان يستعد ويجمع القوى لمحاربة الدولة الإسلامية، ويوليه على منطقة مهمّة وحساسة، ولكن اليهود كفروا.

ونجد أن أسير يندم عندما كان في طريقه إلى المدينة ويغافل ابن رواحة فيقبض على قبضة سيفه ليجرده من السلاح، ولما كرّر ذلك مرتين مريداً قتل مبعوثي النبي ﷺ تصدّى له عبد الله وأصحابه وقتله هو وأصحابه فليس ذلك من الغدر وليس هناك خطّة لقتله لا من ناحية الرسول ﷺ ولا من ناحية ابن رواحة^(١).

ولا تزال أخبار المستشرقين عن أعمال الرسول مصحوبة بافتراء الغدر وإيجاد الرهبة من أجل التمكن من تشويه سيرة الرسول ﷺ وطرح السؤال عن تناقض قوله مع فعله، لأنه نهى عن الغدر.

نعم فإن الإسلام قد نهى عن الغدر، ولم يغدر الرسول ﷺ في الساحة العملية أبداً، والمعروف أن الحال في الحرب يختلف لأن أكثر الحرب خدعة، فالغدر هو عمل بني النضير لما جاءهم النبي ﷺ فرحبوا به في الظاهر وهم يفكّرون في قتله في الباطن ثم دبّروا لذلك على رغم أنهم وقّعوا معه عهداً وميثاقاً والنبي ﷺ قد اعتمد عليهم ودخل دورهم وديارهم، وحلّ ضيفاً عليهم.

(١) موسوعة التاريخ ٥٩٦:٢ عن الواقدي ٥٦٦:٢.

وأما أهل خيبر فقد كانوا في حرب مع الرسول ﷺ ولم يكن بينهم عهد ولا هدنة، والأوضاع تنذر بالخطر ولا يستبعد شروع الحرب في أي لحظة، فالحال فيها يختلف، ولذلك فإن قتل أبي الحقيق في عقر داره يعد جزءاً من الحرب، لأنه لم يدخل في أمان الدولة الإسلامية وكان عداؤه ثابتاً من السابق، وقد أثبت محاربته بسفره إلى مكة وتحالفه مع قريش في معركة الأحزاب، فاستحق بذلك القتل.

وقد لاحظنا في السابق أن حُيي بن أخطب كان رجلاً واحداً ولكنه ألقى قبيلة بني النضير وقبيلة بني قريظة في المهلكة، ولو كان حُيي قد قتل قبل ذلك كما قتل كعب بن الأشرف لكان مصير آلاف اليهود غير ما صاروا إليه، والحال أن ابن أبي الحقيق مثل كعب، فإنه كان يريد أن يجهّز جيشاً ويعملها مثل معركة الأحزاب فيسوق اليهود إلى المجزرة كما أنه صار سبباً لهلاك بني قريظة في معركة الأحزاب.

وأما قصة أسير بن رازم فلم يكن فيها أي غدر كما بينا. فإن هذين الرئيسين اللذين تواليا على خيبر لفترة قليلة قد تحرّكاً تحرّكاً مؤثراً ضدّ الإسلام والمسلمين وكانا في صدد تأزيم الموقف، فاستحقوا بذلك القتل، وكان قتلها قد أتاح الفرصة في الواقع بالنسبة إلى أهل خيبر وحتى يهود فدك ووادي القرى لاستئناف الحياة والعيش^(١).

بيعة الرضوان وصلح الحديبية

من سنن الأنبياء المعروفة أنهم إذا شاهدوا من قومهم جهالة أو تولدت عندهم فكرة جاهلية من جديد تؤدّي إلى تزلزل عقائدهم، ومن أجل الحيلولة دون ارتدادهم وعدم وفائهم يقدمون على تجديد البيعة.

فبينما يخرج النبي ﷺ وأصحابه مجرّدين من السلاح لأداء مناسك العمرة وجاؤوا إلى قريب مكّة المعظمة، كان مشركو قريش مثل خالد بن الوليد و... على رأس جيش في كمينهم مثل الذئاب الضارية، ومعهم أعداد كبيرة من الخيل والسلاح، فأخذوا يقععون ويخيفون المسلمين، فخالج أفكارهم أنواع الفروض والاحتمالات، والمسلمون وإن كانوا قد ندبوا لأداء العمرة ولكنهم لا يعلمون عاقبة الحال مع قريش.

وفي المقابل لم تعلم قريش بالذي جاء بالنبي ﷺ كل تلك المسافة، عندها نجد النبي ﷺ ومن أجل حفظ معنوياتهم واستقبالهم لكل ما يضمنه لهم الوقت، يدعو المسلمين إلى تجديد البيعة، ويعلن أن هذه البيعة هي البيعة مع الله، وصرّح بأن الموفي بها يضمن رضا الله، ويبلغ إلى رضوانه، ولذلك سمّيت هذه البيعة ببيعة الرضوان، كما أوعد الرسول الموفين بالجنة^(١).

وفي هذا الوقت سأل الأصحاب الرسول عمن سيخلفه على المسلمين بعده، فقال ﷺ: خاصف النعل، وكان عليّ عليه السلام في بعض

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٦٠، سيرة ابن هشام ٣: ٢٢٠.

الأطراف يصلح نعل النبي ﷺ، وبذلك يكون النبي قد عرّف وصيّته وخليفته.

وفي هذا السفر ظهرت معاجز عديدة على يد النبي ﷺ وحدثت أمور كشفت نفاق عدد كبير من الأصحاب نترك التعرّض لها^(١).

صلح الحديبية

لما سار الرسول والمسلمون نحو مكة لأداء العمرة، جاءت قريش لصدّهم، وأرادت أن تكتشف هدف النبي ﷺ من سفره ذلك، فأرسلت من يأتيهم بالأخبار، فجاء ورجع أكثر من ثلاثة رسل، وهم يرون أن هذا العمل نوع من التهوّر بحيث لا يمكن استيعابه، كيف يفعل المسلمون ذلك، وكيف يقتربون بأرجلهم إلى دار عدوّهم؟! ولكن مكة هي حرم الله الآمن وقد وعدها الله نبيّه، فقال الرسول ﷺ لبديل بن ورقاء قاصد قريش: «إنّا لم نأت لقتال أحد ولكنّا جنّنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره»^(٢).

ويكمن في هذا الكلام المشرق سلم وتهديد، وقد صدر من منطق القوة.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٦٢٢، ٦٢٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ٢٢١، غزوة الحديبية للدكتور شوقي: ٦٦، عن الطبقات الكبرى ٢: ٩٦.

فطال الكلام يومها بين النبي والمشرّكين وتكرّر الأخذ والرد، والكل يدور حول محور واحد، وهو أن قريش قد فشلت إمام النبي ﷺ في معركة الأحزاب، ويعدّ دخوله ﷺ بأصحابه بلادهم بغير قتال فشلاً آخر واستهانة، فمنعوا المسلمين من دخول مكّة، لأن قريش كانت تستثقل دخول المسلمين إلى مكّة وإقامة مراسم العمرة من دون أي مضايقة أو تهديد، ثم رجوعهم إلى بلادهم سالمين، وتراه انكساراً وهزيمة.

الآية الشريفة تتكلّم عن صلح الطرفين: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(١)، وفي آخر المطاف تم عقد صلح لمدة عشر سنوات ووقعوا عليه، وتوافقوا على ما يلي:

- ١- لا يدخل الرسول ﷺ مكّة في ذلك العام ويترك أداء العمرة ويحجّ في السنة القادمة بعدما تنهأ مكّة لاستقباله وتزِيل كل العوائق.
- ٢- كل مسلم يهاجر من مكّة إلى المدينة يردّ إلى مكّة، وكل من يهاجر من المدينة إلى مكّة لا يرد.
- ٣- وهناك شروط أخرى أخذ فيها مصالح الجانبين^(٢).

وتصوّر البعض أن الرسول ﷺ قد قدّم تنازلات في هذا الصلح ورجع إلى المدينة منكسراً ولكن الأمر ليس كذلك، لأن قريش غلّت

(١) الفتح: ٢٢، ٢٤.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٤٦٢. العلاقات ٣٦٠ موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٦٢٧-٦٢٩.

بذلك عن التعدي على المسلمين جراء هذا الصلح إلى الأبد، وصار سبباً لدخول الناس في الإسلام أفواجاً والأهم من ذلك أن قريش صارت ملزمة بالوفاء بعهد، ومع عدم الوفاء به يمنح الرسول الفرصة لمؤاخذتهم.

ولعل أحد الأدلة على تحلي الرسول ﷺ بروح الصلح والتعايش السلمي هو صلح الحديبية؛ فإن قول الرسول ﷺ «فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره» لم يكن عبثاً ومجرد ادعاء، بل كان قادراً على تنفيذ ما يقوله، وعلى الرغم من هيمنته وقدرته لم ينقض عهده، ولأجل أن يبرهن لهم وقوفه على عهده أعاد أبا جندل بن سهيل بن عمرو الذي كان قد أسلم وهو في أسر قريش وكان يصرّ على الخروج من مكة إلى المدينة ومع أنه كان أسيراً ورجلاه موثوقتان بالحديد واستطاع أن يصل إلى الحديبية حتى يذهب مع النبي ﷺ إلى المدينة ويتخلص من ظلمهم، ولكن النبي ﷺ أعاده إلى مكة تحت حماية مكرز بن حفص، وقال له: أريد أن أفي لهم وأؤدي ما اشترطوا، وسيجعل الله لك فرجاً عاجلاً^(١).

فالمتعين على المستشرقين أن يأخذوا مثل هذه الكمالات الأخلاقية بنظر الاعتبار، ولا تطيل الكلام حول هذا الصلح ونشير فقط إلى أن هذا الصلح من أهم ما حدث في السنة السادسة للهجرة، فكان لتوقيع هذه المعاهدة مع قريش الأثر البالغ لحصول الاستقرار واستعداد المسلمين لتحقيق سائر الأهداف، والتي منها حرمان اليهود من كل أنواع الدعم القرشي ودعم عامة المتواجدين جنوب المدينة وكانت مدة العهد طويلة

عشر سنوات يجب أن يئس منها اليهود من وجود المساعد والناصر بشكل تام، وثانيًا: فإن الظروف صارت بحيث لا تتمكن قريش من نقض العهد بسرعة، ولا يمكنها مساعدة اليهود وإسعافهم، ولذا قيل إن ثمة صلح الحديبية هو فتح خير، وستابع في هذا البحث عملين احتياطين للرسول، ثم نعطف الكلام على حقيقة معركة خيبر.

إرسال الكتب إلى الأطراف والرَّسالة إلى خيبر

أحد إقدامات الرسول ﷺ قبل غزوة خيبر هو كتابة الكتب إلى الحكومات ورؤساء الطوائف والقبائل يدعوهم للدخول في الإسلام، ليتمَّ الإبلاغ وتتوفر شروط العهد والمعاهدة.

ففي هذه المرحلة فإن إرسال الكتب إلى النجاشي وقيصر الروم وغسان وكسرى عظيم الفرس، والمقوقس عظيم الإسكندرية، وهوذة بن علي ملك اليمامة، مما يلفت الأنظار ولكن نترك التعرض لمضامين تلك الرسائل، ونشير إلى أن كتابة هذه الكتب هي علامة على محاولة بسط الحكومة الإسلامية إلى الأطراف كما تحكي عن حصول نوع من الثبات في المدينة واستحكام مركزيتها بحيث لا يدع لأعدائها طريقاً للمقاومة ولا يسعهم سوى التسليم^(١).

ونحن نعلم أن المرحلة الأولى لجهاد الرسول ﷺ هو إقامة

(١) الطبري ٢: ٦٥٢، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٦٥٠ - ٦٦٠، الرسول واليهود: ١١٠٥،
(الوثائق: ٢٣-٢٨ و ٥٢-٥٤)، (مكاتيب الرسول ٢: ٣٢٦). اليمن في صدر الإسلام: ١٢٠.

البراهين والمجادلة بالتي هي أحسن، ولذلك نقول عند السلام على الرسول ﷺ: «أشهد أنك قد نصحت لأمتك وجاهدت في سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

وطبقاً لما جاءت به الأخبار فإن الرسول ﷺ بعث عدة كتب إلى أهل خيبر، يذكر في واحدة منها الآيات من آخر سورة الفتح ثم يدعوهم إلى الإسلام، فيكون إملاء هذه الرسالة بعد نزول سورة الفتح على أقوى الاحتمالات، والرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه، المصدق لما جاء به، ألا، إن الله قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» وإني أنشدكم بالله وبما أنزل عليكم وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيسس البحر لأبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله، ألا أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم، قد تبين الرشد من الغي فأدعوكم إلى الله ونبيه^(١).

(١) الفتح: ٢٩، مكاتيب الرسول ١: ١٧٤، الوثائق: ١٨، موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ١٠، سيرة ابن هشام ٢: ١٤٤.

ولا شك أن كل منصف يلاحظ هذه الرسالة يعلم أن النبي ﷺ لم يكن في صدد فتح البلدان وتوسعة الحدود الجغرافية، ولا يريد التروّس وبسط السيطرة، وإنما هي دعوة مستدلّة ومقنعة، غير أن هذه الرسالة لم يرد عليها أهل خيبر.

ونقل البيهقي عن ابن عباس رسالة أخرى من رسول الله ﷺ إلى أهل خيبر، لعلّها هي رسالة ثانية أو ملخص تلك الرسالة ونصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله أخي موسى وصاحبه، بعثه الله بما بعثه به إني أنشدكم بالله وما أنزل على موسى يوم طور سينا وفلق البحر لكم فأنجاكم وأهلك عدوكم، وأطعمكم المن والسلوى وظلل عليكم الغمام، هل تجدون في كتابكم: أني رسول الله إليكم وإلى الناس كافّة؟ فان كان ذلك كذلك فاتقوا الله وأسلموا وإن لم يكن عندكم فلا تباعة عليكم...^(١) وظلّت هذه الأخرى بغير جواب.

وتحدّث في كتاب موسوعة التاريخ عن رسالة ثالثة نصّها:

من محمد بن عبد الله (الأمي) رسول الله إلى يهود خيبر، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم^(٢).

وقد بينا سابقاً أن هذه الرسالة أرسلت في أوائل الهجرة على أقوى

(١) سيرة ابن هشام ٢: ١٤٤؛ مكاتيب الرسول ١: ١٧٤ بنقل عن السنن الكبرى ١٠: ١٨٠.

(٢) مكاتيب الرسول ١: ١٧٢ موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ١١، ورد في كتاب الاختصاص المنسوب إلى الشيخ المفيد: ٤٢-٥١،

الاحتمالات، وإنما كتبت لتبليغ الرسالة فقط، ومن ناحية فإن فيها التهديد بالحرب، وهو يعني كتابتها في زمان الغزوة^(١). ولا شك أن نصوص هذه الرسائل مهمة جداً، وتعطي معنى الحرية وتحمل المعاني البناءة، يتكلم الرسول ﷺ فيها بما يقبلونه ويستسيغونه ويترك لهم الاختيار، ومع ذلك يقرع أسماعهم بأن حكومة الله لا منازع لها، كما كان يعلن ذلك موسى الكليم، ونجد أن الرسول يعرفهم نفسه وأنه صاحب موسى وأخوه ليعرب عن عدم وجود الفرق بينه وبينه ولا بين دينه ودينه، ولا نزاع بينهما، وإنما وقع النزاع بين إبلاغ الرسالة الإلهية وبين حب النفس والأنانية التي عند اليهود، الذين يلصقون أنفسهم بالنبى موسى ﷺ بغير حق ولم يفوا بعهدده ولم يلتزموا بكتابه.



(١) والعجيب أن النبى موسى ﷺ لما أراد أن يسلي بني إسرائيل على ما أصابهم من أذى فرعون استعمل هذه العبارة وبشرهم بها، والقرآن ينقل نفس ذلك الكلام ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الكلام الرابع

غزوة خيبر

دوافع الرسول والردّ على المستشرقين

بزعمي فإن معركة خيبر تعدّ معركة ابتدائية، وإن برزت العداوات والجنائيات من أهلها، ولكنهم لم يدخلوا حلبة الصراع ولم ينزلوا في ميدان القتال مثل قريش بحيث يطلق عليه عنوان الدفاع والتقابل، وليسوا مثل بني النضير وبني قينقاع من سكان المدينة وأطرافها حتى يصدق عليهم عنوان الطغاة ولم يبرموا مع الرسول عهداً كما أبرمته هاتان الفتتان، وبذلك اختلفت ماهيّة هذه الحرب مع الغزوات السابقة من عدّة جهات، وأساساً فإن طابع الرسالة قد تغيّر من يومها فصاعداً، والدليل على ذلك هو قول النبيّ بكلّ إيجاز واختصار: «الآن نعزوهم ولا يغزونا ونحن نسير إليهم».

فإذا علمنا أن حروب النبي ﷺ من الآن فصاعداً ليست في إطار الدفاع، بل لنشر الدعوة والرسالة العالمية، فإننا ندرك أنه قد حان الوقت لتحقّق كلام الوحي المتمثل في القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(١). وتبين التحركات والإقدامات غير المألوفة من قبل الرسول في السابق.

ويجب أن نلفت الأنظار إلى أن الناس في الأرجاء كان بإمكانهم أن يدخلوا تحت مظلة العدل والإحسان المتمثلة بالحكومة الإسلامية والاستفادة من التعاليم الإلهي والحكم القرآنية، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة، بعد ما ظل الرسول ﷺ دائماً في رفع موانع نشر الدعوة الأساسية والبدائية مادام في قيد الحياة، وكذلك إجراء الأحكام الإلهية، وهو يتبع في جميع ذلك الوحي ويعمل على وفق ما نزل به.

صحيح أن خيبر بنواياها وتحركاتها أصبحت تهديداً للمدينة والمسلمين، فإنه لا يعني أن إقدام الرسول ﷺ كان دفاعياً فقط وإلا لكان ينتظر نزول أهل خيبر في الساحة مثل قريش واصطفافهم أمامه، ثم يتصدى لهم بعد ذلك ويحاربهم، وبذلك لا نجدنا مضطرين لتوجيه دفاعية جميع حروب النبي وجهاده عند رد ادعاء البعض بأن الرسول ﷺ كان يهدف إلى الاحتلال والتوسعة الجغرافية ^(٢).

الحكومة الإسلامية

هنالك نقطة مهمة جداً يجب الالتفات إليها، وهي المجوز لبط

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) غزوة خيبر لشوقي: ٧ يقول كارل بروكلمان: "حاول النبي أن يعوض عن فشله الظاهري في الحديبية فقاد المسلمين على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر....". ويقول يوليوس فلهاوزن في معرض حديثه عن اليهود: "حاول محمد أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد" وقال: "إن إجلاء اليهود عن الحجاز باستعمال وسائل غير مقدسة...".

حكومة الأنبياء نفوذهم وسيطرتهم على الدول والمناطق الأخرى، وحتى بعث الكتب والرسائل إلى سائر الأمم والطوائف ما هو إلا شيء واحد يتمثل في مقام النبوة والرسالة الإلهية، وإلا فمن نظر الأديان وخصوصاً الإسلام لا يحق لأي حكومة ولا قدرة أن تبسط نفوذها اعتماداً على القهر والقوة التي تمتلكها ولا يحق لأحد التعرض لديار الآخرين مهما كان السبب، أو يدعوهم إلى نفسه أو يخضعهم لقدرته، ولا يحق لأحد أن يطمع في أموال الآخرين، فإن كل ذلك مذموم في الإسلام إلى أقصى الحدود، فكيف يحق للرسول ﷺ أن يفعل مثل ذلك كراراً وهو القائل: «شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُكْرِمُونَ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ»^(١).

ولكن لما كان الملك [الله الواحد القهار] و[الله مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ]^(٢) وكان الرسول ﷺ هو خليفته والموكل بهذا المقام وله هذه المنزلة في الأرض، يمكنه بأمر الله سبحانه أن يخضع الآخرين لحكومة الله، وسيطر على ديارهم حتى يقبلوا هذه الحكومة، وفي أقل الأحوال يصرف رؤسائهم عن ممانعة نشر التوحيد، فقد جاء في الكتاب الذي بعثه الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم: «فان توليت فعليك إثم الأريسيين»^(٣). وهذا يعني أنه لا يحق لأي قدرة أن تمتنع من إجابة دعوة النبي ﷺ أو يمنع أهل مملكته من قبول الدعوة، فإن ذلك من أكبر الذنوب وأعظمها، وهو ذنب لا يغتفر، وما هذا المقام إلا للأنبياء

(١) الكافي ٢: ٣٢٦.

(٢) الشورى: ٤٩.

(٣) الوثائق: ٢٩.

وأوصيائهم ولا يحق لأحد أو أية قدرة أن تدّعي ذلك المقام، أو يتكلّف حمل هذه المسؤولية، ولا يكون شيء من ذلك إلا بإذن الله جلّ جلاله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(١).

فإن هذه الآية تبين أن المتصدّي للدعوة هو السراج المنير ومصباح الهدى، الذي يدعو بالعلم اللدني والتعاليم الإلهية، الإنسان الذي فطر على التوحيد إلى الله سبحانه، لأن ملاك الدعوة هو الولاية لا القوة، ومعه لا يفرق أن يكون المنذر فرد واحد أو جماعة، حكومة قبلية أو دولة أو امبراطورية، عابد صنم أو أهل كتاب، فهذا أصل مسلم، يجري في مثل خيبر وزحف النبي ﷺ بجيشه عليها، وكانت دعوته ورسائله السابقة مبنية على هذا الأساس، ومن البديهي فإن ذلك لا يكون ظلمًا، بل هو كمال الرحمة واللطف.

وأما أهل خيبر فلم يقبلوا الإسلام ولم يسكتوا ولم يتركوا الناس وحالهم ولم يدعوا اليهود يدخلون في الإسلام، ولا هم رضخوا لسيطرة الرسول، ولذلك كان من الواجب التعرّض لهم بعض الشيء حتّى يرضوا بالصلح ويعقدوا معاهدة سلام مع النبي ﷺ.

حقيقة هذه الحرب وردّ كلام المستشرقين أيضًا

دفع رسول الله ﷺ الراية إلى علي عليه السلام، ولما تسلّمها عنه قال عليه السلام: أقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله: انفذ على رسلك، حتّى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن لم يطيعوا لك بذلك، فقاتلهم. فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم (١).

فكانت مهمّة الإمام علي الأولى هي دعوة أهالي خيبر إلى الله الواحد، فإن لم يقبلوا الدعوة يجارهم كمهمّة ثانية، ومن ذلك يظهر مقام أمير المؤمنين عليه السلام (٢).

ولعل هذا الكلام دليل على ماهيّة جهاد الرسول وغزواته وحروبه مع غير المسلمين، فإن عامّتها لأجل هدايتهم وإرشادهم، وليس لأجل الأرض ولا الحقد ولا الغنائم، ولا هو طغيان ناجم عن القدرة وحب التعدي، ليس شيء من ذلك، بل أراد أن يهدي الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، واليهود الذي يرون أنفسهم أصحاب كتاب فليس لهم الاعتراض على الموحّدين ولومهم على نشر التوحيد في الأرض، فإن الدين الإسلامي يقدم أولاً البيان ولا يلتجئ إلى السيف إلا إذا امتنع المخالف من قبول الحق والبيان الصادق، ويتمّ إجراء ذلك الحكم على يد الرسول أو من يأمره فقط، ولا يحقّ لأحد غيرهما ذلك ولا ولاية

(١) غزوة خيبر لشوقي: ٥٩، العنصرية اليهودية ٢: ٤٨٥، عن صحيح مسلم باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) العلاقات: ٣٦٧.

لغيرهما على البشر.

نحن نسأل اليهود عن توجيه موسى الكليم عليه السلام الجيش إلى فلسطين لإخراج العمالة منها، هل يحقّ له ذلك وبأيّ حقّ يقدم على ذلك العمل؟ فما يكون جوابهم؟

هل كان موسى عليه السلام يدّعي باطلاً أو كان طاغياً، ألم يوح الله إلى موسى عليه السلام أن يجند بني إسرائيل لاستحلال بلاد العمالة؟

أليس بنو إسرائيل إذا لم يكونوا يجيئونه إلى ذلك كانوا قد ارتكبوا ذنباً عظيماً؟ ألم يتلهم الله سبحانه بالتيه عقاباً على ذلك؟ ألم تحال المهمة بعد موسى عليه السلام إلى النبي يوشع؟ ألم يقدم على ذلك القتال ويخلي المدينة من وجود المخطئين والمشركين؟

فإن الكتاب المقدس (كتب الأنبياء والملوك) مليئة من قصص حروب أنبياء بني إسرائيل؟ هل إن جميع تلك الحروب دفاعية، كلاً ثم كلاً، فإن البعض منها كان ابتدائياً لنشر كلمة التوحيد وبسط دين الله، هل كان أولئك الأنبياء الإلهيون والصلحاء المطهرون في عداد نابلثون؟ كلاً ثم كلاً.

فهذا حقّ الله ورسوله وله أن يتدخل في أمر إصلاح الأرض وأهلها ولا يحقّ لأحد الاعتراض على ذلك ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

فإذا كان مثل مارجيلوت لا يقبل أن محمداً ﷺ هو رسول رب العالمين، هل أنه لم يقرأ حتى ورقة واحدة عن حياته؟ فلو كان قد قرأ ذلك المقدار عن حياة الرسول لم يتجرأ على مقايسته مع الجبارين في هذا العالم، فإن مارجيلوت يجهل ما جرى وغفل عن مراحل تطوّر الدعوة حتى يعلم لماذا فعل رسول الله ذلك^(١)، فقد شرعت دعوة الرسول في السرّ، ثم صارت علنية على نطاق ضيق، ثم أخذت تتوسع ويتنوع وسائل نشرها حتى صار الدفاع عنها بحاجة إلى حمل السلاح وخوض المعارك الدامية، ثم إنها راحت لتكون عالمية، ولا بدّ من ذلك ولأجل أن يعلم مارجيلوت وأمثاله عدم تعلق الأنبياء بحطام الدنيا لأنه لا قيمة له عندهم، ويمنع من التقرب إلى المعبود.

أودّ أن ألقت نظر القارئ إلى هذا الخبر الذي ينقله أكثر المؤرخين: حينما دعا الرسول ﷺ أهل المدينة إلى غزوة خيبر، علّم من حال بعض المنافقين أنهم طلبوا الإذن في الخروج طمعاً في الغنائم فقال: «لا تخرجوا إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا» وبعث منادياً فنادى: لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد فأما الغنيمة فلا.

ولا ينال الشهادة ذاك المقام الشامخ الذي يحظى به المؤمنون إلا أن يكون الخروج لوجه الله، لا لأجل الطمع في حطام الدنيا، فهل من المناسب أن يدعي أحد والحال هذه أن الرسول ﷺ غزا خيبر من أجل الغنائم، وكأن النبي يعلم بهذا الاتهام والشك الذي سيكون في

(١) غزوة خيبر للدكتور شوقي: ٨ إلى ٢٤؛ العلاقات: ٣٦٧ و ٣٦٨؛ تاريخ اليهود في بلاد العرب: ١٧٠.

قلوب المعاندين، فنهى عن الخروج للغنيمة وقال ذلك الكلام المشرق.

فإذا كان الرسول ﷺ قاصداً للاحتلال وبسط السلطة لم يهتم بمعتقد الجنود وأهدافهم من الخروج معه للحرب، بل يستعين حتى بالمشركين واليهود ويواعدهم بالغانم الكثيرة والأجور العالية ويغزو بهم الروم والفرس، ويفتح بلدانهم الواسعة ولا يهتم بمثل خيبر وغيرها، فإن الرسول ﷺ إنما أراد نشر الدين وترويجه وكان يرى أن خيبر عقبة في طريقه، فأراد إزالة تلك العقبة فسرّح إليها المقاتلين، وهذا يعني أن حقد رؤساء اليهود وعداءهم كان بمرتبة من الشدة، وكانت أعمالهم هدامة ومخرّبة بحيث لا يتمكن الرسول من نشر دعوته ما داموا موجودين، ولذلك زحف عليها بجنوده، ولكن يجب أن لا ننسى أن معركة خيبر كانت شديدة وصعبة بحيث لو لا المدد الإلهي لم يضمن رجوع المسلمين من تلك المعركة بسلام.

ونقلوا عن يهود فذك العارفين بحال إخوانهم في خيبر بشكل كامل أنهم قالوا: «الرسول مشغول بحرب خيبر ولا يخرج منها بسلام، فإن لخير حصون منيعة، وقد استعدّ فيها عامر وياسر وحارث وسيّد من قبائل مرحب، مع عشرة آلاف من المقاتلين في قلعة نطاة فكيف يتغلّب عليها محمّد».

فلولا أن الهجوم على خيبر بأمر من الله سبحانه لا يسمح العقل بالخروج مع ألف وأربعمائة مقاتل أو ألف وستمائة وغايته ثلاثة آلاف مقاتل يقطعون ٣٠ ميلاً خطيرة يسكن في أطرافها المشركون واليهود، والذهاب إلى قتال عشرة آلاف مقاتل وهم في حصونهم قد تسلّحوا في

مواضعهم العالية المشرفة على جيش المسلمين^(١).

يجب أن نعلم أن مسألة خيبر أكثر من كونها حرب الإسلام مع اليهود، بل هي حرب الإسلام مع الكفر، فقد نقل أن رسول الله ﷺ كان ينادي قولوا: لا إله إلا الله تحفظوا دماءكم، ولكن اليهود يأبون ذلك ولا يسمحوا لأنفسهم التلطف بهذه الكلمة، ما هو معنى هذا العمل؟ هل يحق لنا أن نقول إنهم مشركون، أو كانوا يعتقدون بآبِنِ لله؟ أو أن إلههم يهوه إله اليهود غير الله سبحانه فلم يبدوا استعدادهم أن يقولوا: لا إله إلا الله ثناءً عليه.

لم يكن الرسول ﷺ مصرّاً على إراقة دماء اليهود ولا استحلال دورهم أو يأخذ أموالهم، وإنما كان يصرّ على أن يقولوا: «لا إله إلا الله» كي تحفظ دماءهم، ولكن اليهود كانوا ينادون إنا لا نترك عهد موسى والتوراة بيننا، فهل كان عهد موسى ﷺ غير هذا الكلام المقدس...^(٢).

وحتى بعد شروع الحرب وعندما صار اليهود يلوذون بعضهم ببعض من الخوف، اقترح عليهم ذلك ولكنهم أبوا أن يجروا كلمة التوحيد على ألسنتهم، كل ذلك الكلام يعرض عنه المستشرقون المثرثون ولا يسلطون عليه الأضواء، وهكذا يتفلسفون من بيان الحقائق^(٣).

(١) غزوة خيبر لشوقي: ٣٨، العنصرية اليهودية ٢: ٤١٩.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ٢٤ فنادوهم: قولوا لا إله إلا الله تحرزون به دماءكم وأموالكم وحسابكم على الله، فنادت اليهود: إنا لا نترك عهد موسى والتوراة بيننا، عن المغازي ٢: ٦٥٣.

(٣) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣.

نزول سورة الفتح والبشارة بفتح خيبر

نزلت سورة الفتح إبان صلح الحديبية على الرسول وحتى يقف المسلمون على أن نتيجة هذا السفر هو الفتح المبين والنصر المؤزر، قال رسول الله ﷺ: لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس^(١)، ثم قرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾

يجب أن نعلم أن هذه السورة نزلت عندما رجع المسلمون من صلح الحديبية فكانت مفتاحاً لفتح خيبر، تبشّر بالفتح وتبين طريقة العمل والوظيفة المحوّلة، وكما أن فتح حصون بني قريظة كان بسبب معركة الأحزاب، كذلك فتح خيبر بسبب صلح الحديبية، وهو الآخر مقدّمة لفتح مكة.

تتكلم هذه السورة عن نزول السكينة على المؤمنين، وهي المعادلة الإلهية الدائمة فكلّما جاش الكفر وتحمّس واستعمل القسوة ففي المقابل يجعل الله السكينة في قلوب المؤمنين ويرزقهم الصبر ويزداد في هدايتهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وتكلّمت أيضاً عن المنافقين وفضحت أسرارهم: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ كما

(١) سورة الفتح: ١؛ صلح الحديبية، لشوقي: ١٠٥.

تخبر عن تجنيد المؤمنين دون المنافقين لغزوة خيبر: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والله سبحانه بشر أصحاب النبي الذين بايعوا معه واستقاموا بأفضل موهبة وهو رضوانه ولقد أثابهم في الدنيا بفتح قريب: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، والفتح القريب في هذه السورة كما فسر بيعة الرضوان وصلح الحديبية فسر أيضًا بفتح خيبر^(١) وكذا: ﴿وَمَغَائِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَائِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾

وكانت خيبر بحالة من المنعة والصلابة بحيث لم يحتمل المنافقون رجوع رسول الله وأمير المؤمنين من هذه المعركة سالمين، وقد صدقوا بهذا الحدس وفرحوا به: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ ولكن نتيجة ذلك السفر ما لا يتوقعه المنافقون والمشركون وقد أخذتهم الحمية بكفرهم وعدم إيمانهم بما كان الرسول يأمر به ويفعله وأما المؤمنون فإن الله سبحانه سينزل عليهم

(١) البحار ١٩: ١٦١؛ البداية والنهاية: ٣: ١٨١؛ تنزيه الأنبياء: ١١٧؛ موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ٦٤١.

سكيتته: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وجعل فتح خيبر وإن صعب عليهم، مقدمة ومرحلة من مقصد نهائي وهو سلطنة الدين على أقطار الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، وبهذا كان التغلب على خيبر من بشارات هذه السورة، وقد تمهد الطريق لانتشار الإسلام في جزيرة العرب بالإطاحة برؤساء خيبر، ثم فتح مكة ثم إلى الأطراف النائية، وستبقى هذه البشارات مستمرة إلى زمان ظهور ابن الرسول الخاتم ووصيه، يعني الإمام المهدي عليه السلام، يتجلى حينها الفتح على أكمل الوجوه: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

ما هو الصراط المستقيم؟

عندما يكون الخطاب للمؤمنين المهتدين، فما معنى هدايتهم والإخبار عنها، أليس المؤمنون هم الذين اهتدوا؟ يجب أن نطلب الجواب فيما تجلّى في هذه المعركة، فالمراد من الصراط المستقيم في هذه الآية هو أمير المؤمنين عليه السلام، يعني أن الوقائع التي توالى في صلح الحديبية وغزوة خيبر تعكس للأمة إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام وأحقيقه، فكانت تتوالى التصريحات بإمامته وعلوّ قدره من النبي وظهرت بعض الآيات حتّى يقف المسلمون على مقامه الشامخ.

فقد تمّ تعريف علي عليه السلام بأنه خليفة النبي والقائم مقامه في سفر الحديبية.

وفي معركة خيبر قال الرسول ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله... (١).

وفي هذه الواقعة يصف أمير المؤمنين عليه السلام نفسه ويقول: والله ما قلعتُ باب خيبر ورميتُ به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية ولا حركة غذائية، لكنني أُيدتُ بقوة ملكوتية ونفس بنور ربها مضيئة وأنا من أحمد كالضوء من الضوء (٢).

وجاء في خبر آخر: ما قلعتُ باب خيبر بقوة جسدية بل بقوة ربّانية (٣) وفي نفس هذا السفر قال رسول الله لعلي: لولا أن تقول فيك من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ على ملاء من المسلمين إلا أخذوا تراب رجليك وفضل طهورك ويستشفون به... (٤).

(١) البحار ٢١: ١١.

(٢) المناقب ٢: ٢٨٩ والبحار ٤٠: ٣١٨؛ نهج السعادة ٥: ٢١؛ بشارة المصطفى: ٢٩٤؛ مدينة المعاجز ١: ١٧٤.

(٣) البحار: ٤: ٣١٨.

(٤) كشف الغمة ٢: ٢٦٥. البحار ٣٧: ٢٧٢ وجاء في أرجح المطالب: ٤٤٨، عن إحقاق الحق ٧: ٢٩٥ عن علي عليه السلام قال: قال لي رسول الله ﷺ يوم فتحت خيبر: لولا أن تقول فيك من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ على ملاء من المسلمين إلا أخذوا تراب رجليك وفضل طهورك ويستشفون به، ولكن نصيبك أن تكون مني وأنا منك ترثني وأرثك وأنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، أنت تؤدّي ديني وتقاتل على سنتي، وأنت في الآخرة أقرب الناس مني وإنك غداً على الحوض خليفتي تذود عنه المنافقين وأنت أول من يرد عليّ الحوض وأنت أول من يدخل الجنة من أمّتي، حربي وسلمك سلمتي وسرّي وعلايتك علانيتي وسريرة صدرك سريرة صدري وأنت باب علمي وإن ولدك ولدي والإيمان مخالط لحمك ودمك كما خالط لحمي ودمي وإن الله عز وجل أمرني أن أبشرك: إنك وعترتك في الجنة وعدوك في النار ولا يرد عليّ الحوض، مبغض لك ولا يغيب عنه محب لك. قال علي عليه السلام: فخررت له سبحانه ساجداً وحمدته على ما أنعم به عليّ من الإسلام وقراءة القرآن.

وكذلك في طريق العودة من هذا السفر نزل جبرئيل عليه السلام وأخذ رسول الله معه إلى فذك وسلمه مقاليد تلك البقعة وبين له المراد بذي القربى، وبذلك هدى الله المسلمين إلى ذلك الصراط المستقيم، وهناك موارد أخرى من هذا القبيل.

خير الخضراء

تعدّ خير أرضاً خضراء من أكثر مناطق الحجاز خضرة، وأهلها أكثر زراع المنطقة وفلاحيتها سعيًا، فكانوا قد أقاموا عدة سدود على النهر ليستفيدوا من مائه أتم الاستفادة، وكانت قلاعهم من أعلى القلاع وأحكمها، وكان يوضع فيها المحاصيل الزراعية والحبوب، وفيها محال لحفظ الأغنام وفي أعلاها منازلهم ومحل استراحتهم، وكما أنهم في حالة الخطر، وهي تقع على ثلاثين ميلاً (١٨٠ ك.م) من المدينة، وتتألف من ثلاث مناطق: نطاة وشق وكتيبة وقد بنوا في كل منطقة عدة قلاع، فكان في نطاة حصن ناعم وحصن صعب بن معاذ، وقلعة الزبير، وفي منطقة شق حصن أبي وحصن نزار، وفي منطقة كتيبة حصن قموص ووطيح وسلام وحصن بني أبي الحقيق، والظاهر وجود قلاع في كل حصن.

والذي يثير الدهشة عدم وصول خبر عن وجود منازعة ولا مواجهة بينهم وبين أهل يثرب قبل الإسلام، وهو دليل استقلالهم ومنعتهم ومتانتهم، وكأن هؤلاء القوم لا شغل لهم سوى الكدّ والتّاج

وجمع الأموال، ولذلك لم يكن لهم تدخل في المجريات السياسيّة للمنطقة، ولعلّ بُعد المسافة بين خيبر والمدينة سبّب صيانتها من بعض الوقائع التي وقعت في أوائل البعثة والهجرة^(١).

ولم تتحرك خيبر تحرّكاً جدّياً في مقابل النبيّ إلا بعد رحيل بني النضير إليها، عندها اشتدت تحرّكاتهم^(٢).

وقيل: إن رسول الله ﷺ تهيّأ للهجوم والزحف على خيبر بالكتمان الشديد، وكان يريد أن لا يطلع المنافقون والجواسيس اليهود على تصميمه كي لا يصل الخبر إلى غطفان فترسل إليهم بالمدد، ومع ذلك فقد بلغ خبر استعداد المسلمين للهجوم إلى غطفان واليهود معاً، وكانوا هم الآخرون يستعدّون للهجوم على المدينة من قبل، وكانوا يعدّون العدة والعدد ويصلحون القلاع ويجهزونها، وقد جاء عبد الله بن رواحة بذلك الخبر إلى الرسول ﷺ. وقيل إن عبد الله بن أبي منافق المدينة كتب إلى أهل خيبر رسالة مضمونها: محمّد قادم إليكم فلا تتركوا الاحتياط وخبئوا أموالكم في الحصون، واخرجوا إلى حربه

(١) العلاقات: ٣٦١.

(٢) وكما تقدم فإن حُيي بن أخطب قد برز عداؤه للنبي ﷺ عند ملاقاته للرسول في أول الهجرة، نقلت ذلك ابنته صفية بعد ما تزوجها الرسول ﷺ. فإنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم القها قط مع ولد لها إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقاء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حُيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين. قالت فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت فأتيا كالبين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني، قالت فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيي بن أخطب: أهو هو؟ قال نعم والله، قال: فما في نفسك منه؟ قال عداوته والله ما بقيت، (الرسول واليهود: ١١٥٠)..

خارج الحصن ولا تخشوه فإن مقاتليكم كثيرون وأصحاب محمد قليلون^(١).

هذا وقد أذاع المنافقون في المدينة أخبارًا كاذبة عن عظمة خيبر وأنها لا تقهر بحيث إن الدائنين اليهود صاروا يطالبون بالديون المؤجلة عندما أراد المسلمون التوجه إلى خيبر، لأنهم لا يرجون رجوعهم سالمين غانمين من تلك المعركة^(٢).

تاريخ الغزوة

رغم الأهمية التي كانت تتحلّى بها هذه الغزوة ونتائجها الباهرة لم يحصل اتفاق بين المؤرخين في زمان وقوعها والمشهور يذهب إلى وقوعها في شهر محرم في السنة السابعة للهجرة^(٣).

شرعت في العشرة الأخيرة من المحرم واستمرت إلى أوائل شهر صفر^(٤).

والرأي الآخر أنها وقعت في صفر والرأي الثالث: ربيع الأول والرابع جمادي الأولى، من السنة السابعة للهجرة على جميع الأقوال، وأثبت البعض السنة السادسة للهجرة، ولعل هذا الاختلاف ناجم من الاختلاف في مبدأ السنة القمرية، لأنها تتفاوت سنة على أساسها. [السنة الأولى لم تحسب].

(١) اليهود والرسول: ١١٣٢، العلاقات: ٣٦٣.

(٢) العلاقات: ٣٦٣.

(٣) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٦، يهود حجاز: ٢٠٦.

(٤) الرسول واليهود: ١١٣٧.

توجّه النبي ﷺ إلى خيبر في أوائل السنة السابعة للهجرة وجعل سباع بن عرفطة الغفاري على المدينة مؤقتاً، وعقد الراية بيد أمير المؤمنين علي عليه السلام وأرسله أمامه، واستعان في هذا السفر بمن يدلّه على الطريق، فسلّك من طريق ثنية الوداع إلى زغابة، ومنها إلى نقيمى حتّى وصل المستناخ، وتحرك منه إلى عصر (اسم جبل) فصلّى الظهر في ذلك الطريق - وقد بني في ذلك الموضع مسجد بعد ذلك - ومنها إلى الصهباء فصلّى فيها العصر، ثم طلب الطعام فجيء بتمر وسويق، وأكل الجميع طعامهم، وصلّوا المغرب هناك، ثم توجّهوا إلى طريق يقال له مرحب، ومن طريق عصر إلى رجيع بين غطفان وخيبر فأقاموا هناك^(١).

والرسول يعلم جيّداً أنه يذهب إلى حرب قوم يفوقون المسلمين عدّة وعدداً وتجهيزاً، ولذلك قال لأصحابه: لا تطلبوا من الله لقاء العدو واطلبوا العافية لأنكم لا تعلمون من تحاربون^(٢).

هذا وقد سار النبي ﷺ تمام ليلته وسار بين شق ونطاة حتّى أشرف على حصون خيبر عندها طلب من أصحابه أن يدعوا بهذا الدعاء:

«اللهم ربّ السموات السبع وما أظلت وربّ الأرضين السبع وما أقلّت وربّ الرياح وما ذرت، فإنّا نسئلك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها، أقدموا باسم الله»^(٣).

(١) السيرة الحلبية ٢: ١٧٥.

(٢) غزوة خيبر لشوقي: ٥٥.

(٣) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٧. الرسول واليهود ٣: ١١٥٦.

وكان يقولها ﷺ لكل قرية دخلها.

وهذا يعلمنا كيف نتوصل إلى شطر من مآربنا بالدعاء.

ثم سار قليلاً حتى وصل إلى موضع باسم «منزلة» فبات فيه ليلته إلى طلوع الشمس، ووجد المسلمون أعراباً في الطريق وكان عيناً لليهود، فأخذوه وسدوا يديه ورجليه فأصابه الذعر، فباح لهم كل ما يعلمه عن حصون اليهود وكان في قيد المسلمين إلى انتهاء الحرب^(١).

وكان الرسول ﷺ يعلم أن غطفان جاءت لنصرة خيبر قبل ثلاثة أيام واستقرّوا في حصن نطاة، ولذلك أرسل سعد بن عبادة نحو عيّنة بن حصن رئيس غطفان، كي يترك المعركة على أن يعطيهم ثمرة خيبر لمدة سنة إذا فتحت، فأجابه: «والله ما كنا لنسلم حلفاءنا لشيء وإنا لنعلم ما لك ولمن معك بما ههنا طاقة»^(٢)، فقال له سعد: إن الرسول يقول إن الله وعده النصر (فتح خيبر)، فلم يلتفت عيّنة إلى ذلك الكلام، فعاد سعد، ويستفاد من هذه الرواية صعوبة فتح خيبر بحسب الموازين الظاهرية، وكذا يتضح رفق الرسول وعطفه واهتمامه بسلامة غطفان، ولعل هذه الإشارة قد تؤثر في عيّنة، وقد تكون السبب في الصلح الذي وقع بعد خيبر.

فوقعت الصيحة في جيش المسلمين أوّل الليل بالهجوم على حصن ناعم، ولكن في منتصف الليل صيح بغطفان: أهليكم أهليكم بحيفاء،

(١) الرسول واليهود ٣: ١٢٠٦.

(٢) سيرة الحلبي: ١٧٥.

صيح ثلاثة: فلا تربة ولا مال. ولا يعلم مصدر ذلك النداء من الأرض أو السماء وكيف وصل إلى أسماع غطفان فتخيّلوا أن جيش المسلمين قد تحرّك نحو غطفان، فلما سمعوا ذلك النداء في وسط الليل خرجوا زرافات زرافات من القلعة وأسرعوا من أيّ الطرق كانت إلى ديارهم للدفاع عنها، فلما وصلوا إلى دورهم علموا أنها خديعة ليس أكثر، ولما كان للمسلمين عيون في الرגיע لم يتمكن الغطفانيون من العودة لنصرة خيبر، وبذلك أزيحت تلك القوات وعدّها أربعة آلاف مقاتل من المعركة^(١).

وتصوّر البعض أن غطفان قد كمنت للمسلمين في مواضعها، حتّى إذا اقترب المسلمون من خيبر حملوا عليهم من الخلف، واليهود من الأمام حتّى يجتاحوهم، وعلى هذا تكون غطفان قد كمنت خارج القلعة ولكن يظهر من الواقدي الناقل لكلام عُيينة أن الغطفانيين كانوا داخل القلعة عندما هجم المسلمون على نطاة، لأنّه قال: إنّنا في حصن النطاة بعد هدأة إذ سمعنا صائحًا يصيح لا ندري من السماء أو من الأرض: أهليكم أهليكم بحيفاء صيح ثلاثة فلا تربة ولا مال^(٢).

ويمكن الجمع بين الخبرين بأن أربعة آلاف مقاتل بحاجة إلى مكان واسع، فلا بدّ أن البعض كان خارج القلعة والبعض الآخر داخلها يأخذون أهبّتهم للحرب.

(١) بحار الأنوار ٢١: ٣٠. الرسول واليهود ٣: ١١٤٤.

(٢) الرسول واليهود ٣: ١١٤٩ عن الواقدي ٢: ٦٥٢، (ص ٩٤ غزوة خيبر لشوقي من البداية والنهاية ٤: ٢١٢) وفي (غزوة خيبر لشوقي ص ٩٥).

ومع ذهاب غطفان حزن اليهود، واضطرب كنانة بن أبي الحقيق الذي كان في حصن الكتيبة اضطراباً شديداً عندما سمع بالخبر وأصابه الذعر وعلم بقرب هلاك اليهود^(١).

فتح حصون نطاة

بخروج غطفان من قلاع خيبر، قسم الرسول ﷺ الرايات في الصباح بين - المقاتلين وأمرهم بالهجوم على حصن ناعم أول قلعة من نطاة وقال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بقوم فساء صباح المذريين، أقدموا بسم الله». وكان صمود اليهود ومقاومتهم في هذا الحصن شديدة بحيث جرح من المسلمين في اليوم الأول خمسون شخصاً، لأن اليهود كانوا على مرتفع يرمون النبال، وكانت قلعة ناعم أصعب القلاع تحمّل المسلمون لأجل فتحها المضاعف الشديدة والأتعاب المضنية، فاغتم الرسول ﷺ لذلك.

وكان يخرج شجعان اليهود من القلعة الواحد بعد الآخر ويطلبون البراز، وبعد استعراض قوتهم يعودون إلى القلعة، وقد جرح سعد بن عباد في أحد هذه المبارزات، وذلك حينما جاء أبطال اليهود إلى الميدان، فخرج حارث أبو زينب أخو مرحب من الحصن وطلب البراز فخرج إلى برازه سعد بن عباد فاستطاع أن يقهره إلى قريب الحصن، وفي هذا الحال خرج أخوه أسير وتبارز مع سعد حتى قهره وهنا جرح سعد،

(١) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٧، المغازي ٢: ٦٣٣، طبقات ابن سعد: ٩٠٦، تاريخ الطبري ٣: ٩.

فتألم الرسول ﷺ لذلك تألماً شديداً^(١).

وكان الرسول ﷺ لا ينفك من وعظ اليهود ويقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تحفظوا دماءكم، ولكنهم يأبون ذلك ويمتنعون من قول هذه الكلمة الطيبة، ويقولون: إنا لا نترك عهد موسى ﷺ والتوراة بيننا.

ونقل الواقدي أن الرسول ﷺ مكث سبعة أيام في رجيح، صباح كل يوم يهجم على خيبر ويرجع العصر، يهجم مرة من أسفل نطاة وفي اليوم الثاني من أعلاها.

وفي بعض الأيام (أي اليوم السادس) دخل مرحب وأصحابه إلى ميدان القتال وطلب البراز، وكان قد ثقب حجراً وصيرَه خوذة ووضعَه على رأسه، ولبس الحديد فلم يجرأ أحد على مقابلته فطلب النبي ﷺ أبا بكر وقال له خذ الراية واذهب إلى ميدان القتال، فذهب إلى الميدان ولم يتمكن من أن يفعل شيئاً فخاف ورجع، ذكر الواقدي هذا الخبر ولم يصرح باسم أبي بكر وإنما كنى عنه وقال «رجل من المهاجرين».

وفي اليوم الثاني طلب الرسول ﷺ عمر بن الخطاب وأعطاه الراية وقال له اذهب إلى حرب مرحب، فذهب ولم يستطع فعل شيء وخاف ورجع، وقد كنى عنه الواقدي ولم يصرح باسمه.

فتأثر النبي ﷺ وقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يأخذها بحقها، كرّار غير فرّار، يفتح الله على يديه.

وصار الأصحاب ينتظرون من سيعطيه الراية ولمن ستكون هذه المفخرة، فلما أصبح قال: أدعوا لي علياً، فقالوا: يا رسول الله هو رمد ما يطرف، فقال: جيئوني به، ثم ذهب به إليه، فقال: افتح عينيك ففتحها فتفل فيها، (قال علي: ما رمدت بعدها حتى الساعة)، ثم دفع إليه الراية وقال: خذ الراية وامض بها والنصر أمامك، والرعب مبثوث في صدور القوم، واعلم يا علي إنهم يجدون في كتابهم أن الذي يدمر عليهم اسمه إيليا، فإذا لقيتهم فقل: أنا علي، فإنهم يخذلون إن شاء الله^(١).

فأخذ أمير المؤمنين علي^{عليه السلام} الراية وذهب هو وأصحابه إلى الميدان، ودعاه الرسول ولمن معه من أصحابه بالنصر. وكان مرحب يرتجز ويقول:

قد علمت خير أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تعرب

إن حماي للحمي لا يقرب

فأجابه علي^{عليه السلام} قائلاً:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة عبل الذراعين شديد قسورة

أكيلكم بالسيف كيل السندرة

(١) سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٢ عن ابن إسحاق ٢: ٤٧٦؛ غزوة خيبر لشوقي: ٥٨؛ الرسول واليهود: ١٢٠٢؛ في موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ٢٧ في الهامش روى عن الإرشاد ١: ١٢٦.

فتضارباً فأصاب سيف عليّ فرق مرحب وفصم مغفرته الحجرية وبلغ السيف عظم رأسه فسقط على الأرض، وعمت الفرحة جيش المسلمين^(١).

وجاء ياسر أخو مرحب إلى الميدان وقُتل هو الآخر على يد عليّ عليه السلام، وجاء بعده أسير الأخ الآخر لمرحب وقُتل هو الآخر، فقال رسول الله ﷺ: هان أمر خيبر.

ولما رجع عليّ عليه السلام من الميدان، استقبله رسول الله ﷺ وقال: قد بلغني نبوءك المشكور وصنيعك المذكور، وقد رضي الله عنك ورضيتُ عنك، فبكى علي عليه السلام فقال: ما يبكيك يا علي؟ قال: فرحاً بأن الله ورسوله عني راضيان^(٢).

واستمر القتال فخرج رجل من الحصن اسمه يوشع وطلب البراز، فبرز حباب بن منذر إليه وقتله، وجاء آخر إلى الميدان، اسمه زيال فبادر إلى قتاله عمارة بن عقبة الغفاري.

وأما سلام بن مشكم رئيس هذه القلعة فقد خلد في الفراش لأنه كان مريضاً، ولم يأت إلى الميدان، ولم تمر أيام حتى مات، وبموته

(١) الرسول واليهود ٣: ١٢٠٢ وأضاف أن ابن عبد البر قال إنه الصحيح وقال ابن الأثير: الصحيح الذي عليه أهل السير والحديث أن قاتل مرحب هو علي عليه السلام وكذا في البخاري والنسائي والفضائل لأحمد. وقد تساهل الدكتور الشوقي هنا في «غزوة خيبر ص ٦٢» وأراد أن يجمع بين الروايات ورجّح غير الصحيح على الصحيح وقال: قتله محمد بن مسلمة وعليّ حَزَّ رأسه، ثم اختصما في سلبه عند رسول الله ﷺ !!!

(٢) إعلام الوري ١: ٢٠٨، البحار ٢١: ٢٢.

وصلت النوبة إلى الحارث، الأخ الآخر لمرحب^(١).

وبعد قتل أبطال اليهود واعتزال غطفان الحرب، وموت سلام بن مشكم، شمل اليهود خوف عجيب، فالتجؤوا إلى القلعة واغلقوا الباب على أنفسهم، وكلما دعاهم المسلمون إلى السلم لم يجيبوا، فهاجم علي عليه السلام على القلعة فقلع باب القلعة ورفعها بيده، ونقلوا أنها كانت بيده كالدرع يحارب بها، وبذلك سقطت القلعة بيده، وقيل إنه وضع الباب على خندق كانوا قد حفروه أمام القلعة، حتى يتمكن الجيش من العبور والنفوذ إلى داخل القلعة، وقد اشتهر فتح هذه القلعة على يد علي عليه السلام وكان له فخراً.

فتح حصن صعب بن معاذ

كان المسلمون قبل فتح هذا الحصن قد بلغ بهم الضنك مبلغاً شديداً فتوجّه بعضهم إلى الرسول ﷺ وشكوا إليه حالهم وطلبوا ما يسدّون به رمقهم ولم يجدوا عند رسول الله شيئاً يعطيهم إياه فقال مناجياً ربه: «إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوّة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاماً وودكاً». فهجم المسلمون على قلعة ثانية وهو حصن صعب بن معاذ^(٢).

(١) الرسول واليهود ٣: ١٢١٣ عن المغازي الواقدي ٢: ٦٨.

(٢) العلاقات: ٣٦٩.

ومع تسخير قلعة ناعم أصاب اليهود ضرر عظيم وقد زعزع قتل مرحب وأخويه ياسر وأسير عزائمهم وأصابهم الذعر بحيث لا يمكنهم المقاومة، مع ذلك فقد طال تسخير هذا الحصن ثلاثة أيام لأنه حصن منيع جداً وكانت الراية بيد حباب بن المنذر، وقد قاتل المسلمون اليهود لمدة يومين قتالاً عنيفاً فخرج في اليوم الثالث رجل طويل القامة من الحصن وكان معه عدد كثير، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل لمدة من دون توقف، فلاذ المسلمون برسول الله ﷺ وصاروا خلفه إلى أن انتهى الرمي، ثم شرع اليهود الهجوم فاستطاعوا أن يقهقروا جيش المسلمين، وظل حباب يصابرهم، وبعد ترغيب الرسول المسلمين بالجهاد تداركوا هجومًا آخر اضطهرهم للتراجع إلى قرب الحصن، وقتل الكثير منهم، ولما عجزوا رجعوا داخل الحصن واغلقوا الباب، ولكنهم لم يتركوا أن صاروا يلقون الحجارة من فوق الحصن، وأستشهد في ذلك اليوم ثلاثة من المسلمين.

وبالتالي استطاع المسلمون أن يفتحوا القلعة في ذلك اليوم، وامتلاً الفضاء بأصوات التكبير من علا القلعة وكان اليهود يفرّون من كل ناحية، ويلتجئون إلى منطقة شق ولا يمنعهم المسلمون من الفرار ولم يأخذوا عليهم الطريق، فوجد المسلمون من الأطعمة ما لم يظن من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك ونادى منادي رسول الله: «كلوا واعلفوا ولا تحتملوا»، وبذلك تمكّن الرسول من إطعام جميع الجنود^(١).

(١) غزوة خيبر لشوقي: ٦٨.

فتح حصن الزبير

بعد ذلك وصلت النوبة لحصن الزبير، وكانت المقاومة في هذا الحصن عنيفة بحيث استغرق فتحه كثيراً من الوقت، لأنه كان على قمة جبل عالية لا يمكن الوصول إليها حتى على الخيل، وقد دام الحصار ثلاثة أيام، فسلم في هذا الحال يهودي اسمه عزال وطلب الأمان، ثم اقترح على المسلمين أن يقطعوا الماء عن القلعة حتى يسلموا أنفسهم بسرعة، وكان يعلم مسير الماء ومحل دخوله إلى القلعة، وينقل الواقدي أن الرسول ﷺ قطع عليهم الماء حتى يسلموا أنفسهم^(١)، ولكن قال الراوندي في الخرائج: إن الرسول ﷺ قال: يحدث الله غير هذا، حيث يستفاد منه أن الرسول ﷺ لم يرض بقطع الماء، وكان كذلك فإن القلعة فتحت بسرعة وهي آخر قلعة من حصن نطاة وكان مقاتلو نطاة من أشجع المقاتلين وأصمدهم^(٢).

فتح منطقة الشق - وقلعة النزار

انتقل مقر المسلمين من رجيع إلى منزلة، فكان أول حصن في منطقة الشق حصن أبي، وقلعته الأولى باسم سموان (سمران)، فخرج رجل باسم عزول إلى البراز فأجابه حباب وقطع عرقوبه فقتل، وجاء يهودي آخر برز إلى حربه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه، ثم هجم أبو دجانة وأصحابه على القلعة وبعد معركة فتحوا القلعة، وكان فيها طعام

(١) وكذا في الرسول واليهود ٣: ١٢١٦.

(٢) بحار الأنوار ٢١: ٣١ - الخرائج والجرائج ١: ١٦٤.

ووسائل كثيرة، غنمها المسلمون^(١).

ويبدو أن لكل حصن عدة قلاع، فوصلت النوبة إلى أصعب قلاع الحصن، يعني قلعة نزار فكانت السهام تأتي من أعلى القلعة كالطر من غير انقطاع، تعسر الزحف عليها، ونقل الراوندي عن بعض من حضر قوله: أنه لما كان من الغد ركب الرسول بغلته وقال للمسلمين اتبعوني، وسار نحو القلعة، وأقبلت السهام والحجارة نحوه وهي تمر عن يمينته ويسرته فلا يصيبه ولا أحدًا من المسلمين شيء منها حتى وصل رسول الله ﷺ إلى باب القلعة فأشار بيده إلى حائطها، فانخفض الحائط حتى بقدر الساق وقال للناس: ادخلوا القلعة من رأس الحائط بغير كلفة^(٢). وقال الواقدي إن رسول الله ﷺ قبض قبضة من التراب ورمى به إليهم فانهار جدار القلعة، واستطاع المسلمون أن يدخلوا القلعة بسهولة، ويفتحونها، ويأسرون من فيها من النساء والأطفال، وقالوا: إن صفية وابنة عمها كانت في هذه القلعة وقد أسرتا، ويستفاد من رواية الإمام الباقر عليه السلام أن عليًا عليه السلام كان هو الفاتح لهذه القلعة.

وبفتح قلعة نزار فرّ أهلها إلى قلاع وطيح وسلام وكتيبة، واجتمع في كتيبة ألفا امرأة وطفل، ولم يتعرض الرسول لباقي قلاع منطقة شق بعد سقوط قلعة نزار وذهب إلى منطقة كتيبة.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٢: ٣، عن المغازي ٢: ٦٦٦.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ١٦٥.

فتح منطقة كتيبة - قلعة قموص

أهم قلاع كتيبة وأقواها قلعة قموص، وهو حصن أبي الحقيق رئيس خيبر، قال ولفنسون: الاسم الآخر لهذا الحصن هو حصن نزار بمعنى التاج، وقد تحصّن فيه عامة النساء والأطفال، فاستعد أهلها للمنازلة، وقد شمل رئيسها كنانة بن أبي الحقيق خوفاً عجيماً بحيث لم يتمكن من الرمي بالسهم، ولذا منع الآخرين عن رمي السهام والالتجاء في القلعة ولا يظهروا أنفسهم، ولذلك طال حصار هذه القلعة أربعة عشر يوماً، فلما رأى رسول الله ذلك أراد أن يستخدم المنجنيق ليَجبرهم على الخروج منها، ونقل بعض المؤرخين أن الرسول ﷺ قد استخدم المنجنيق بالفعل.

ولما رأى ذلك كنانة أرسل رجلاً باسم شماخ إلى رسول الله ليطلب الأمان، فما أن خرج شماخ من الحصن أخذه المسلمون وجاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فأبلغه رسالة كنانة، ورضي رسول الله.

ولما سقط هذا الحصن بأيدي المسلمين، بادر باقي اليهود في الحصون الأخرى إلى التسليم، لأنهم علموا بعدم جدوى المقاومة وأنهم سيقتلون، فرضوا بالأسر ليحفظوا أنفسهم، وطلبوا من الرسول الصلح، وقد أُسرت صفية من هذه القلعة وإذا كان اسم هذه القلعة هو قلعة نزار فهو يعني تداخل أخبار هاتين القلعتين، ومهما يكن من ذلك فإنه يمكن الجمع بين القولين^(١).

(١) الرسول واليهود ٣: ١٢٢٢ والمستفاد من شعر حسان أن قلع أمير المؤمنين باب خيبر يعود إلى قلعة قموص، ولذا عد هجوم أمير المؤمنين عليه هو السبب في فتح خيبر.

وطالت محاصرة خيبر ٢٦ يومًا^(١)، وكانت نتيجتها فتح بعض هذه الحصون عنوة فكانت من الأنفال، وبعضها بغير قتال وإنما أخذوها صلحًا مثل وطيح وسلام فهي فيء، ولعلّ الصلح المارقرينة على عدم فتح كتيبة عنوة.



(١) المغازي للواقدي ٢: ٦٥٣.

الفصل الثالث

تغيير اليهود طريقة تعاملهم مع الرسول

أراد الرسول ﷺ من اليهود أن يؤمنوا، ويقبلوا الإسلام، أو العيش بالسلم في ظلّ الدولة الإسلاميّة وإلى جنب المسلمين.

أعيدوا إلى الأذهان أوائل الهجرة وانعقاد العهد والمواعدة وحرية اليهود في معتقدتهم والحياة الحرّة في مواطنهم، فقد كانت فرصة ذهبية لليهود، ولكنّهم لم يغتنموا تلك الفرصة، وقاموا بمعارضة الرسول ﷺ والوقوف الجاد بوجهه، إلى أن أقرّوا بالعجز عن الصمود أمامه، وصاروا على استعداد لإعطاء الجزية والعيش إلى جانب المسلمين وفي ظل الدولة الإسلاميّة، وبذلك ختمت حروب الرسول ﷺ مع اليهود والتي كانت أساساً لنزولهم عند أحد هذين الأمرين، ولو كان اليهود قد أسلموا لصلحت بذلك آخرتهم بالإضافة إلى صلاح دنياهم، ونحن في هذا الكلام بعد دراسة هذا التغير في التعامل نريد الإشارة إلى العهود وكتب الصلح التي عقدها النبي ﷺ مع اليهود، وكذلك الإشارة إلى سلوك اليهود بعد فتح خيبر.

الكلام الأول

خضوع اليهود بعد الشوكة

معاهدة الصلح

طلب سكان القلاع الثلاث وطيح وسلام وقموص من الرسول الصلح، وكنانة رئيس حصن كتيبة تصالح على هذه البنود الثلاثة:

١- تحقق دماء من في القلعة ويترك لهم أبنائهم.

٢- يرفع اليهود أيديهم عن أراضيهم.

٣- تكون أرضهم وأموالهم من قبيل الذهب والفضة والثياب الفاخرة التي يملكونها وأسلحتهم عدا الثياب التي عليهم للمسلمين، من دون أن يكتموا شيئاً.

فلما حصل هذا التوافق: طلب اليهود من الرسول ﷺ أن يبقوهم في مساكنهم ولهم نصف ثمرة خيبر مقابل رعاية الحقول وجمع الثمار والنصف الآخر للرسول يدفعونه إليه في كل عام، وبذلك تم صلح آخر وتنقل بعض الأخبار شرطاً آخر لا نعلم مدى صحته، وهو متى

شاء الرسول أن يخرجهم خرجوا من الدور والمزارع والبساتين من دون كلام، ويغادروا تلك المنطقة^(١).

وقد أصاب المسلمون من الغنائم ما لم يصيبوا مثله في الغزوات الأخرى، كالأسلحة المختلفة وكميات كبيرة من الذهب والفضة، ومقادير كثيرة من الطعام وأنواع الأغذية، وثياب وأقمشة ملونة وحرير، وأهمها الأراضي العامرة والبساتين الخضراء المليئة بالثمر، والتي تغذي الدولة الإسلامية لمدة طويلة وترفع احتياجات المسلمين، وقالوا: في كتيبة وحدها أربعمئة ألف نخلة.

فجعل رسول الله ﷺ جماعة على جمع الأموال وجماعة أخرى على جمع السلاح، وقيل: إن غنائم خيبر قسمت بين أهل الحديبية، شاركوا في غزوة خيبر أو لم يشاركوا، وكان عددهم ألف وأربعمئة شخصاً، حضر جميعهم إلا عبد الله بن جابر لم يحضر لأجل المرض، وأصابه سهم من الغنيمة.

كانت غنائم خيبر على قسمين: قسم منها ما أخذ بالقتال والقسم الآخر من غير قتال، ويدخل الأول في الأنفال والثاني في الفبيء الخاص بالرسول ﷺ، واستعمل الرسول بعض حقّه في طريق إصلاح حال المسلمين والباقي لأهله^(٢).

وبعد انعقاد معاهدة الصلح لم يقتل واحد من اليهود إلا رجلاً

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٧٨ سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٣.

(٢) سيرة ابن إسحاق: ٤٨٨.

خالفوا الشرط وأخفيا أموالهما، أحدهما كنانة بن أبي الحقيق والآخر ثعلبة بن أبي الحقيق، وكانت القصّة أن الرسول قرّر في الصلح بأن ذمة الله ورسوله بريئة ممن كتم شيئاً من متاعهم إذا سُئل عنه، فسأل رسول الله ﷺ كنانة وأخاه عن الحلي التي تملأ جلد بقرة، وكانوا يعيرونها أهل مكة ليلبسونها في أعراسهم، وهما كتما الحقيقة وقالوا إنها صرفت في المعركة، ولكن كنانة كان قد حفر لها ليلة فتح المسلمون قلعة نطاة وخبأها تحت الأرض.

لم يكثرث كنانة من أن يخفي ذلك عن رسول الله ﷺ فأنكر وجود تلك الحلي والمجوهرات، ولكن رسول الله ﷺ أعطى علامة موضعها لبعض الأصحاب وأمره بإخراجها من تحت الأرض، وبذلك قتل كنانة وأخوه طبقاً لبنود الصلح، وقيل: إن أموالهما قسمت بين الفقراء^(١).

ومما ظهر من مكارم النبي ﷺ في هذه المعركة هي إعادة صحف التوراة التي أخذها المسلمون بعدما جاء أهل الكتاب إلى النبي ﷺ يلتمسون إرجاعها، فأمر النبي ﷺ بإعادة جميع تلك الصفحات. وفيه دلالة على احترام الرسول ﷺ للنبي موسى بن عمران والكتاب السماوي وما تبقى من كلمات ذلك النبي ﷺ وقد حظي هذا العمل والتقدير باهتمام المستشرقين^(٢).

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٧٨، سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٣. غزوة خيبر لشوقي: ٧٢.

(٢) غزوة خيبر لشوقي، ص ٧٢.

ظروف اليهود

دعانا الاختلاف الفاحش بين عدد مقاتلي المسلمين وعدد مقاتلي اليهود في هذه الغزوة إلى دراسة أسباب انتصار المسلمين رغم قتلهم، فقد علمنا أن عدد المقاتلين المسلمين أقل من ثلث مقاتلي اليهود، ونحن نعلم أن الإيمان والاتحاد ووحدة القيادة وإطاعتها هو العامل المؤثر في إرادة كل معركة، وقد كانت تلك العوامل متوفرة بحدّها الأعلى عند المسلمين، فقد قاتل المسلمون بكلّ جدية وباعتقاد راسخ، وما زال الرسول ﷺ يرغّبهم في الجهاد في سبيل الله.

ومع ذلك فهناك ثلاثة أسباب أخرى ساهمت في انتصار المسلمين ترتبط ثلاثتها بضعف العدو ووجود بعض النقائص، واحدة منها عنصر المباغته، فقد هجم المسلمون حين لم يكن يتوقع اليهود فيه الهجوم، فكان ذلك مفاجئة أدّت إلى استيلاء الخوف والرعب على اليهود، فلم يترك لهم الفرصة في توحيد صفوفهم والاصطفاف بالشكل المطلوب ولذلك قتل منهم ٩٣ رجلاً^(١). والسبب الآخر عدم اتحاد اليهود، بل كانت بينهم منازعات في طريقة الحرب والدفاع وكان هناك آراء مختلفة، علم ذلك من كلام اليهودي الذي سلّم نفسه وجاء يطلب الأمان، والثالث: تراجع حلفاء اليهود (غطفان) فقد تركوا المعركة ولم يسعفواهم بشيء.

عبرة للمسلمين

مع قطع النظر عن جانب الحق والباطل في معركة اليهود والإسلام، فإن نتيجة هذه المواجهة من ناحية المعادلات الاجتماعية والسياسية وإلقاء نظرة على أوضاع اليهود ووقوفهم في الصف المخالف للرسول، يعلمنا أن جيش المسلمين بفضل وجود قائد قوي ومطاع وبفضل اتحادهم وتعاطفهم وكذا شجاعتهم ونباهتهم استطاع أن يستحل مناطق واسعة من أرض الحجاز خلال سنوات قليلة، يعني خمس سنوات، ويخلعها من أيدي اليهود المالكين لها والمسيطرين عليها والآخذين بزمامها لأكثر من قرنين وهم يجولون ويصولون فيها بلا منازع ولا رقيب، والسبب الأول لذلك التقدير هو تشتت الطوائف اليهودية واختلاف آرائهم وتنازعهم فيما بينهم، بالإضافة إلى عدم وجود الثقة بالنفس، وتزعزع معنوياتهم التي طالما استطالوا بها على المسلمين.

وفي هذه الأيام صار المسلمون بنفس تلك الحالة التي كان عليها اليهود في ذلك الزمان من التشتت والفرقة، بينما اليهود الفعليون بالإضافة إلى أعداء الإسلام الآخرين يسعون للحصول على تلك الحالة التي كان عليها المسلمون في تلك الدورة من الاتحاد والصلوة على الدول الإسلامية المتمزقة والمتشعبة بالآراء والعقائد والفاقة للإرادة والقيادة الحكيمة والهيمنة الدافعة، وتحاول إبادة واحدة بعد الأخرى، فإذا كان المسلمون عندما يعتدي معتد على دولة من دولهم

يتركون خلافاتهم ويدافعون عنها ولا يسمحوا للأجانب والملاحدة والكفار أن يمدّوا أيديهم إلى الدول الإسلامية، لأحرزوا بذلك أمنهم، لأنهم إذا لم ينصروا إخوانهم فإن النوبة سرعان ما ستصل إليهم، ولا يجدون ناصراً من بين الدول الإسلامية، ويجب علينا أن نعلم أن أعداء الإسلام الألداء، لا ينتهي عداؤهم للدول الإسلامية، إلا أن تتحد تلك الدول فيما بينها وتتسبب في يأس الأعداء: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾^(١).

أهمية فتح خيبر

ولعل أهمية فتح خيبر تكمن في زوال مجموعة من أعداء الإسلام قد شكّلوا عقبة في طريق تعاليه وانتشاره، وعلى القارئ المحترم أن يلتفت إلى أن الإقدام على هذه الحرب فيه نوع من المجازقة والمخاطرة بحيث إنّ المنافقين ظنّوا أنها نهاية المسلمين ولم يحتملوا رجوع المسلمين منها، ولولا المدد الإلهي وشجاعة أمير المؤمنين لجزر المسلمون على أيدي اليهود، ولذلك فإن انتصار المسلمين في هذه المعركة يعدّ أمراً حياتياً للغاية.

ويشهد لذلك كلام أهل فدك في جواب رسالة الرسول ﷺ التي تقدّمت، فالأخبار تحكي عن عظمة حصون خيبر وكثرة عدد المتواجدين فيها واستعدادهم التام لخوض المعركة، فقد اجتمع في تلك

القلاع من الأبطال المخضرمين والجنود الأبسال، وفيهم من قضى عمره في الحروب والبطولات^(١)، بالإضافة إلى المعدات الحربية الكثيرة والمتطورة إذا ما قيست إلى أسلحة المسلمين، مثل المدفع والمنجنيق والدروع والسيوف القاطعة، سقطت في نهاية المطاف في يد المسلمين، كل ذلك دليل على تطور اليهود وتفوقهم العسكري، بالإضافة إلى أنهم كانوا في حصون منيعة وعالية ومشرفة على المسلمين، فإن ذلك يعدّ امتيازاً وورقة رابحة في المعركة.

هذا وقد شرح أمير المؤمنين علي عليه السلام صاحب الراية، قتاله في تلك المعركة لبعض اليهود:

«وأما السادسة يا أخا اليهود: «إنا وردنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مدينة أصحابك خيبر على رجال من اليهود وفرسانها من قريش وغيرها فتلّقونا بأمثال الجبال من الخيل والرجال والسلاح وهم في أمنع دار وأكثر عدد، كلّ ينادي يدعو ويبادر إلى القتال فلم يبرز إليهم من أصحابي أحد إلا قتلوه، حتّى إذا احمرت الحدق ودعيت إلى النزال وأهمت كل امرئ نفسه والتفت بعض أصحابي إلى بعض وكلّ يقول يا أبا الحسن انهض، فأنهضني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى دارهم، فلم يبرز إليّ منهم أحدٌ إلا قتلته ولا يثبت لي فارس إلا طحته، ثم شدّدت عليهم شدّة الليث على فريسته حتّى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدّدا عليهم،

(١) ذكروا أنهم تنبؤوا أن مرحباً يقتل كل من يواجهه إلا رجل اسمه حيدر، ولذلك ذكر أمير المؤمنين حينما ارتجز هذا الاسم، وقيل إنه لما سمع مرحب ذلك تراجع أولاً وندم ولكنه لم يتحمل عار الهزيمة فأقدم على مبارزة ذلك الضرغام فقتل. (البحار ٢١: ٩).

فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي، أقتل من يظهر فيها من رجالها وأسبي من أجد من نساءها، حتى افتتحتها وحدي ولم يكن لي فيها معاون إلا الله وحده»^(١).

وما أعجب هذه الرواية فإنها تحكي عن قتال أمير المؤمنين عليه السلام لوحده، على خطرهما وشدها ولا أقل من تحقق ذلك عند فتح واحد من الحصون.

ومهما يكن من ذلك فإن انتصار المسلمين في خيبر كان مصيرياً، وكان مصير اليهود وبقاؤهم في الجزيرة مرهوناً بنتيجة هذه المعركة، هذا وقد نجا اليهود بسبب الصلح من خطر عظيم تهددهم، وإلا لتمّ تطهير جميع الجزيرة العربية من لوث وجودهم في أقل فرصة. ولكن صلح خيبر قد أبقى عليهم وأبقاهم في مواطنهم لكي يتعرفوا على الإسلام وأخلاق الرسول وفضائله، فتحصل عندهم الرغبة في الإسلام.

وكذلك فإن مستقبل قريش ومواجهة أهالي مكة مع الإسلام مربوطة بهذه الغزوة، لأن جيش المسلمين متى ما أمن من ناحية الشمال أمكنه الالتفات إلى قريش والتفرغ لها، وعلى الرغم من وجود معاهدة مع قريش ولكن لا يعقد عليها الأمل مع غطرسة قريش وأخلاقها، وسنرى أنهم سرعان ما نقضوا العهد، ولذلك كانت قريش تتابع نتائج هذه الغزوة، وكانوا بانتظار معرفة الغالب فيها، وقد استجاز الحجاج بن علاط السلمي -أحد تجّار مكة الذين أسلموا- الرسول ﷺ في الذهاب إلى

مكة ليجمع باقي أمواله ويخبرهم، ولما وصل إلى مكة أحاط به أهل مكة وسألوه عن معركة خيبر، فأخبرهم كذباً بانتصار يهود خيبر وأنهم أسروا محمداً وأنهم يريدون التوجه إلى مكة لقتل جميع قرابته، ففرحت بذلك قريش واحتفلوا السماع ذلك الخبر، ولكن الحجاج بن علاط أخبر العباس عم النبي بحقيقة الأمر أعني انتصار المسلمين وانكسار اليهود، ولكن طلب منه أن لا يفشي ذلك الخبر إلى ثلاثة أيام، فجمع خلال هذه المدة أمواله وصفى حساباته وخرج من مكة، فخرج العباس في اليوم الثالث مبهتجاً ولبس أوفر ثيابه وقال لقريش: علمتم كيف استقام أمر محمد، ثم بين لهم حقيقة الأمر، فتألمت قريش لذلك وقالوا: يا لعباد الله انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن^(١)، فكانت قريش تأمل أن يتغلب يهود خيبر لكثرة عددهم وبعد منزلهم من المدينة، ولكن ذهبت أحلامهم بخلع سلاح اليهود أدراج الرياح، وفقدوا الأمل بالكلية وبقيت قريش وحدها في الساحة، وعليها أن تستقطب القبائل العربية عسى أن تصل إلى ما تقصده.

زواج الرسول بصفية بنت حيي بن أخطب

علمنا أن صفية التي كانت قد التجأت إلى قلعة نزار وقعت في أسر المسلمين، وهي زوجة كنانة بن أبي الحقيق، وكانت قبله عند سلام بن مشكم، وكانت حديثة عهد بالعرس، فأُسرت، وصارت ملكاً لرسول الله فأقرها الرسول ﷺ على دينها، ولكنها اختارت

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٨٥. سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٩.

الإسلام، فلما أسلمت أعتقها رسول الله ثم عقد عليها، وبذلك صارت زوجة الرسول ومن أمهات المؤمنين.

وكان علي عليه السلام قد أسرها هي وابنة عمّها، وأودعها عند عمار بن ياسر، وأوصاه بأن يوصلهما إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وكأنه كان يعلم الأمر، فمرّ بهما عمار على القتلى، فلما وقع بصر صفية على القتلى من قرابتها فكادت أن تذهب روحها جزعاً، فقال له رسول الله: أنزعت منك الرحمة يا عمار؟! ورأى دحية الكلبي هذه المرأة فطلبها، ولكن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أعطاه ابنة عمها وأبقاها لنفسه ^(١).

ومع الالتفات إلى شخصيّة الرسول العظيمة، فكان زواجها منه شرفاً ومفخرة لها قد رفع بها من حضيض الهوان إلى أوج العزّة والشرف.

والظريف أن بعض نساء الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم (حفصة وعائشة) كانتا تؤذيان صفية وتشتمانها وتقولان لها: يا بنت اليهوديّة، فشكتها إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقال لها: قولي لهما: إنّ جدي هارون وعمي موسى بن عمران عليهما السلام، فمن جدكما ^(٢).

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٨٠ - طالعنا في أحوال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أن أزواجه كانت معينة من قبل أي الأزل؛ موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ٤٤ عن المغازي ٢: ٦٤٨.
(٢) إمتاع الأسعاع ١: ٣٢١، المغازي ١: ١٣٧، وج ٢: ٧٥.

زينب أخت مرحب

عندما أراد رسول الله الرجوع من خيبر، جاءت زينب بنت الحارث أخت مرحب وزوجة سلام بن مشكم إلى الرسول في طريق عودته وأعلنت إسلامها، وقد أعدت لرسول الله ﷺ شاة مصلية، فأجابه الرسول ومن معه ومن جملتهم بشر بن براء، فبادر بشر فنهش قبل رسول الله ولما نهش رسول الله ﷺ أخبره ذراع الشاة بأنه مسموم، فألقى اللقمة من فمه.

وعدّت كتب السيرة هذه من معاجز الرسول، بعنوان «تكلم الذراع المسموم» فمات براء لوقته، بينما رسول الله ﷺ أثر فيه السم على الرغم من أنه ألقى اللقمة من فمه، وبقي أثرها إلى أن فارق الدنيا، وقالوا: إن رسول الله ﷺ طلب تلك المرأة وسألها عما أخبره به الذراع، فاعترفت واعتذرت وقالت: بأني قلت في نفسي إن هذا قد قتل قومنا فإذا كان نبياً فإن الله سيطلععه على ذلك، وإن لم يكن نبياً وكان يريد التروؤس علينا، أرحمت الناس منه، فقد علمت الآن أنك نبي وأنا أتوب، فعفا عنها الرسول ﷺ.

وقد جاء نظير هذا الجواب في موضع آخر، تقدم الكلام عنه في رجوع النبي من معركة بدر، ولذا حصل خلط بين هذين الخبرين لأجل التشابه بين الواقعتين.

وقال بعض المحققين: إن عمل أخت مرحب كان بتحريك

عظاء اليهود^(١).

وينكر بعض المحققين تسمّي النبي في هذه الواقعة، ويقولون: إن النبي ﷺ لم يأكل منه حتّى يتسمم، ولكنه سقى السم في آخر عمره الشريف بيد امرأة أخرى ممن حوله، وبذلك فارق الدنيا مسموماً^(٢).

عودة جعفر بن أبي طالب من الحبشة

حدث أمر آخر إلى جانب فتح خيبر، أعطاه رسول الله ﷺ زخماً وأهمية كبرى، لا بأس بالإشارة إليه، وهو وصول جعفر بن أبي طالب ﷺ إلى المدينة، فلما أخبر رسول الله ﷺ برجوع جعفر من الحبشة فرح كثيراً وقال: «ما أدري بأيهما أسراً بفتح خيبر) بيد عليّ (أو بقدوم جعفر) واستقبله رسول الله ﷺ وقبل بين عينيه^(٣).

ومن الواضح فإن أهل البصائر الذين لا يقيسون أفعال رسول الله ﷺ على أفعالهم، يجب أن يعلموا أن من كان حبه لله وبغضه لله في أكمل صورة أعني النبي الأعظم ﷺ، لا يقاس على فرد من البشر، ومن ناحية فإن فتح خيبر بهاله من الأهمية البالغة في مجال تعالي الإسلام واقتدار المسلمين وقصم ظهر الكفار ويأس اليهود وقريش وسائر أعداء الإسلام بيد الإمام علي، كم له من الفرحة، ويتضح من

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٧٩ وسيرة ابن هشام: ٣: ٢٤٤، المغازي ٢: ٣٣٧، وفي كتاب العنصرية اليهودية: ٤٧٦. حلي المغرب، أبين سعيد المغرب ج ٢ ص ١١٥.

(٢) هل اغتيل النبي محمد، لنجاح الطائي: ١٥٢.

(٣) البحار ٢١: ٢٣.

خلال ذلك مقدار فرحة النبي بملاقاة جعفر وسببها بحيث قايسها بفتح خبير: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ هل إن الداعي إلى تلك الفرحة هو مجرد القرابة، أو سلامة جعفر بعد سفر بعيد الشقة، أو جهاده الذي سيكون في المستقبل؟

وكما بينا سابقاً فإن أخبار المؤرخين حول الهجرة إلى الحبشة قليلة، وليس هناك أخبار دقيقة عن تحركات جعفر وأعماله وتبليغه في ذلك الوسط المسيحي، وجعفر هذا هو ابن أبي طالب وأخو أمير المؤمنين عليه السلام، ومن المدافعين المتحمسين عن النبي ﷺ وقد تغرب حيناً وهاجر مرتين فسمي صاحب الهجرتين، كانت الأولى إلى الحبشة استطاع بما يحفظه من آيات القرآن وبما أبداه من الشجاعة والشهامة الفائقة وبما يمتلكه من فصاحة اللسان وقوة البيان المعروفة لهذه الشجرة الطيبة والمزروعة في خلدتها، أن يكسب ودّ النصارى ويظل بينهم فترة طويلة عزيزاً مرفوع الرأس، وبالتالي يعمل بين النصارى مثل ما عمله الرسول ﷺ بين اليهود وقريش، يعني تبليغ الإسلام والتعريف بالرسالة المحمدية، فكم كانت خدمات جعفر للإسلام في الحبشة، نحن لا نعلم ذلك ويعلمه الرسول.

ومن ناحية أخرى منزلة جعفر العرفانية، فإن النبي ﷺ لما أراد أن يتحفه بشيء ثمين، أتحفه بصلاة خاصة عرفت بصلاة جعفر، ليبرهن على لياقته للراقي إلى أعلى الدرجات الإنسانية أعني درجة العبودية، وتتضح منزلته ومقامه الشامخ أكثر، إذا لاحظنا ما قاله رسول الله فيه بعد استشهاد، قال: إن جعفر عليه السلام يطير بجناحين من الياقوت

في الجنة، وهذا يعني تمكن جعفر من بلوغ أي مقام ومرتبة في الجنة،
ويزيده شرفاً بالإضافة إلى جميع ذلك استشهاد أولاده في واقعة كربلاء،
وهم أفضل شهداء العالم، فلماذا لا يفرح الرسول ويتهج بملاقاة
جعفر كما فرح بفتح خيبر بيد علي.

هذا وقد سحب جعفر ثلاثون أسقف مسيحي بأمر النجاشي
للتحقيق حول الإسلام والمبعوث به، فرجعوا إلى الحبشة وهم
مسلمون^(١).

فإذا كان فتح خيبر يعني الظفر على اليهود، فإن رجوع جعفر
سالمًا وموفقًا يعني الظفر على المسيحيين.

رَدَّ الشَّمْسِ

الحدث الآخر الذي زامن هذا السفر وقد نقلته مصادر العامة
أيضاً ذلك الحدث الذي يلفت الأنظار حقاً وهو رجوع الشمس لأمر
المؤمنين علي عليه السلام، وهي من الآيات التي تُعرّف الصراط المستقيم
للناس وترتهم مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٢).

روت أسماء بنت عميس: في منصرف النبي من فتح خيبر وفي منزل
الصهباء، إن النبي صلى الله عليه وآله بعد صلاة العصر استلقى ورأسه في حجر علي عليه السلام
وهو لم يصل العصر، فاعترت النبي حالة الوحي فلم يوقظه

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٩٤.

(٢) الفتح: ٢٠.

عليّ ولم يضع رأسه من حجره ليصليّ العصر حتى غربت الشمس، واستيقظ النبيّ وكان يعلم أن عليّاً لم يكن يصليّ العصر، فقال له: أصليت يا عليّ؟ قال له: لا، فجعل النبيّ يدعو: اللهم إنه «عليّ» كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها طلعت بعد ما غربت حتى وقعت على الجبل والأرض حتى أدّى عليّ صلاته، فغربت، فقال حسان بن ثابت في ذلك: إن علي بن أبي طالب ردّت له الشمس من المغرب^(١).

ولعل من الصعب جداً قبول مثل ذلك الخبر بالنسبة لإنسان اليوم، المغمور بالعلوم الحديثة الحاكية عن وجود نظم دقيق في هذا العالم وثوابت لا تتغير، ويثير التساؤل، فليس هناك طريق لقبوله سوى الاعتماد على رواية الرواة الصادقين والأحاديث المعتمدة. ولا يكون مثل ذلك إلا لشخص معين وفي زمان معيّن، تذكر ذلك أحاديثنا، وتذكر آثار أهل الكتاب نظيره ليوشع وصي موسى الكليم عليه السلام^(٢).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٣: ٦٤ و٦٥. «الغدير». مجلد ٢ ص ٥١٦، وأيضاً في تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٨٣ تا ٣٠٦ وقد ألف ابن مردويه والحافظ الحسكاني حول هذا الخبر كتابين مستقلين، وقد ذكر عبد الرحمن خويلد في «كتاب المساجد»، أن هذه الحادثة قد وقع في المسجد الفضيح وقد اعتمد على شهرته، ولعله قد حدث للإمام عليه السلام مرتين. وقد ورد في بصائر الدرجات تلك القضيتين ١: ٦٨ أيضاً.

(٢) وقد ورد في آثار أهل الكتاب، مثل كتاب يشوع بن نون، إصحاح ١٠: آية ١٢ و١٣ و ١٤: حينئذ كلم يشوع الرب وقال أمام عيون إسرائيل: «يا شمس دوّمي على جبعون ويا قمر على وادي أيلون، فدامت الشمس ووقف القمر،... فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل»

وفي كتاب يشوع بن سيرا، عند ذكر يوشع الوصي ما ترجمته: «ألم ترجع الشمس إلى الوراء بوسائطه؟ وصار اليوم بطول يومين». الإصحاح ٤٦ آية ٤، من كتاب «المحذوف من التوراة كاملاً»: ص ٤٤٠.

فكما رجعت الشمس ليوشع عليه السلام مرتين، رجعت لأمر المؤمنين وصي النبي الخاتم عليه السلام مرتين أيضًا ^(١).



(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ج ٢، ص ٣٨٢؛ الهداية الكبرى، ص ٧١، من لا يحضره الفقيه ج ١ ص ٢٠٣؛ فرج المهموم ص ٨٧؛ بحار الأنوار (ط بيروت)، ج ٥٢، ص ٣٣٩.

الكلام الثاني

يهود فدك

فدك قرية قريبة من خيبر فيها ماء وفير ونخل كثير ويقال لها خويط أيضاً، قال الزجاجي: فدك اسم ولد حام وكان أوّل من سكنها^(١)، وأغلب سكانها من بني مرّة، ويستفاد من الأخبار أن فدك مجموعة من القرى تشغل مساحة واسعة.

بعث رسول الله ﷺ محبصة بن مسعود الأنصاري إلى أهل فدك ليدعوهم إلى الإسلام ويتعرّف أخبارهم، وكان رئيسهم آنذاك يوشع بن نون اليهودي، فلما سمع بخبر صلح خيبر، أرسل جماعة إلى رسول الله كي يتصالح معه حول فدك، ولكن لم يُعلم زمان ذلك الصلح ولا زمان مجيء تلك الجماعة^(٢).

ولا يعلم سوى أن فدك صالحت رسول الله على نصف المحصول، وبذلك أقرّهم رسول الله ﷺ على البقاء هم ونسائهم وأولادهم في مساكنهم على أن يعملوا في الحقول والمزارع.

(١) ياقوت الحموي ٦: ٣٤٥، الطبقات لابن سعد ٢: ١١٩.

(٢) فتوح البلدان ١: ٤٢.

قال ابن إسحاق: وكان محيصة بن مسعود يتردد بين فذك والرسول.

وجاء في كتاب الناسخ: لما توجه رسول الله ﷺ إلى خيبر بعث محيصة إلى أهل فذك ليكلّمهم ويدعوهم إلى الإسلام، فردوا عليه، وقالوا إن قبائل مرحب: عامر وياسر وسيد مع عشرة آلاف مقاتل في قلعة نطاة، كيف يتغلّب محمد عليهم، فلما مرّت أيام ووصلهم خبر سقوط خيبر، صار أهالي فذك بصدد المهادنة، فجاء نون بن يوشع مع وفد إلى الرسول، فأراهم الرسول مفاتيح أبواب الحصون التي أتاه بها جبرئيل، فاضطروا إلى الصلح، فكتب علي عليه السلام كتاب الصلح^(١).

نقل الطبرسي في كتاب إعلام الوري عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر عقد لواء، ثم قال: من يقوم إليه فيأخذه بحقه؟ وهو يريد أن يبعث به إلى حوائط فذك، فقام الزبير إليه فقال: أنا، فقال: أمط عنه، ثم قام إليه سعد، فقال: أمط عنه، ثم قال: يا علي قم إليه فخذ، فبعث به إلى فذك^(٢).

ومع الالتفات إلى هذين الخبرين يمكننا أن نستنبط أن محيصة كان يتردد بين خيبر والرسول قبل فتح خيبر، وإنما بعث الرسول ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام إليهم بعد فتح خيبر، وقد ختمت بالصلح من دون قتال، وبعث يوشع بن نون جماعة على أثر ذلك ليكتبوا العهد.

(١) ناسخ التواريخ ١: ١٢٧.

(٢) البحار ٢١: ٢٣، إعلام الوري ١: ١٠٨ و ١٠٩.

وجاء في الرواية المذكورة، أن علياً عليه السلام كلم أهل فدك وعرض عليهم الإسلام، فصالحوه على أن يحقن دماءهم. فكانت حوائط فدك لرسول الله خاصاً خالصاً، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تؤتي ذا القربى حقه، فقال رسول الله: يا جبرئيل ومن قربي وما حقها؟ قال: فاطمة، فأعطها حوائط فدك وما لله ولرسوله فيها، فدعا رسول الله فاطمة وكتب لها كتاباً، واشهد عليها شهوداً وذاك الذي جاءت به بعد موت أبيها إلى أبي بكر وقالت: هذا كتاب رسول الله لي ولابني.

ونقل في الخرائج، عن الإمام الصادق عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في غزاة، فلما انصرف راجعاً نزل في بعض الطريق، فبينما رسول الله يطعم والناس معه إذ أتاه جبرئيل، فقال: يا محمد قم فاركب، فقام النبي صلى الله عليه وآله فركب وجبرئيل معه، فطويت له الأرض كطي الثوب حتى انتهى إلى فدك، فلما سمع أهل فدك وقع الخيل ظنوا أن عدوهم قد جاءهم، فغلقوا أبواب المدينة ودفعوا المفاتيح إلى عجوز لهم في بيت لهم خارج من المدينة، ولحقوا برؤس الجبال، فأتى جبرئيل العجوز حتى أخذ المفاتيح، ثم فتح أبواب المدينة ودار النبي صلى الله عليه وآله في بيوتها وقرارها، فقال جبرئيل، يا محمد، هذا ما خصك الله به واعطاكه دون الناس، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

(١) سورة الحشر: ٩؛ الخرائج ١: ١١٢؛ البحار ١٧: ٣٧٨؛ مجمع النورين شيخ أبو الحسن مرندي: ١١٧.

وفي قوله ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ انه لم يعرف المسلمون ولم يظؤوها، ولكن الله أفاءها على رسوله، وطوف به جبرئيل في دورها وحيطانها، ودفع المفاتيح إليه، فجعلها رسول الله ﷺ في غلاف سيفه وهو معلق بالرحل ثم ركب، وطويت له الأرض كطي الثوب، ثم أتاهم رسول الله وهم على مجالسهم ولم يتفرقوا ولم يبرحوا، فقال رسول الله ﷺ: قد انتهيت إلى فذك، وإني قد أفاءها الله عليّ، فغمز المنافقون بعضهم بعضاً، فقال رسول الله: هذه مفاتيح فذك، ثم اخرج من غلاف سيفه، ثم ركب رسول الله ﷺ وركب معه الناس، فلما دخل المدينة دخل على فاطمة عليها السلام فقال: يا بنية، إن الله قد أفاء على أبيك واختصه بها، فهي له خاصة دون المسلمين، أفعل بها ما أشاء، وإنه كان لأُمك خديجة على أبيك مهر، وإن أباك قد جعلها لك بذلك، وأنحلتكها لك ولولدك بعدك، قال: فدعا بأديم ودعا علي بن أبي طالب فقال: اكتب لفاطمة عليها السلام الله بفذك نحلة من رسول الله، فشهد على ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام ومولى لرسول الله وأُم أيمن، فقال رسول الله: إن أم أيمن امرأة من أهل الجنة، وجاء أهل فذك إلى النبي، فقاطعهم على أربعة وعشرين ألف دينار في كل سنة ^(١).

ونحن نعلم أنّ سهماً من الخمس لرسول الله، وقد ورّثه لفاطمة عليها السلام.

والنتيجة أن فذك وخمس خيبر يكون لعلي وأولاده بعد فاطمة عليها السلام.

ونقل في مجموعة الوثائق كتابين عن رسول الله يذكر فيهما أسامي

(١) الخرائج ١: ١٦٠، البحار ٩٠: ٤٧، (جامع الأحاديث الشيعة ٨: ٦٠٨)

من له سهم في خراج خيبر وقمحها ومقدار سهامهم^(١)، وهو لا ينافي سهم الرسول من خمس خيبر، وهو مختص بالزهراء المرضية.

والذي يجدر بالإشارة أن فذك منطقة واسعة ومجموعة من القرى والقبائل المختلفة، اختلف على أساسها الوقائع المنقولة باسم فذك، وكل واحد يرتبط ببعض تلك القرى.

نظرة عابرة على أمر فذك

لما رأيت محققي العامة لم يتعرّضوا في نظائر هذه البحوث إلى مسألة فذك إلا مجرد إشارة لا تتجاوز عدة سطور، رأيت من اللازم الوقوف عند هذه الواقعة بالالتفات إلى الأحاديث والأخبار التاريخية وقفة قصيرة، ونترك التفاصيل للكتب المدونة بهذا الشأن.

مما لا شك فيه عند محققي الشيعة والسنة أن فذك لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وإنما أخذت صلحاً وهي من مختصات الرسول ﷺ.

وكذلك لا شك عند الفريقين أن رسول الله وهب هذا الملك الخاص لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وأخرجها من ملكه وكتب لها كتاباً وأشهد عليه شهوداً من أهل الجنة عند الطرفين.

والأمر الثالث المتفق عليه عند الطرفين أن حوائط فذك كانت بيد فاطمة عليها السلام مدة حياة الرسول، يعني ثلاث سنين، وقد وكلت بها

من يعمل عليها وكانت تستفيد من محصولها^(١). فهنا يأتي السؤال أن الملك الذي أهده الرسول في حياته وقد أشهد عليه وكُتب به كتاب بإملاء النبي وخط علي بن الطالب وتم القبض والإقباض، فصار إلى غيره، فهل يبقى والحال هذه على ملك الرسول، أو يكون لمن أهدي إليه؟

السؤال الآخر: لماذا أخذ أبو بكر هذا الملك وبإصرار عمر من يد فاطمة بنت رسول الله؟

هل كانت فدك باقية في ملك النبي ﷺ حتى يكون ميراثاً أو فيثاً؟

هل إن حديث لا نورث صحيح ومعتبر؟

وهل ينطبق على محل البحث؟

ولا شك أن الجواب على تلك الأسئلة في غاية الوضوح، نحيلكم في ذلك إلى الكتب المفصلة وكذا كلام ابن أبي الحديد المعتزلي تحسن ملاحظته في هذا الشأن^(٢).

وجاء في كتاب فدك: أن فدك كانت بيد الزهراء ثلاث سنين، وكان فيها من يعمل لها وأن بساطينها هي منبت، وصافية، ودلال، وحيي، وبرصفة، وعوافة، ومشربة أم إبراهيم.

أُعيدت فدك على يد عمر بن عبد العزيز إلى الإمام الباقر عليه السلام

(١) كتاب فدك: ١٠٦.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١٦: ٢٨٤ وسائل الشيعة ٢٧: ٢٩٣.

لمدة أربعين يوماً، ثم ردت ملكيتها وظلت في يده.

ثم استولى عليها يزيد بن عبد الملك.

ثم ردّها السفاح واسترجعها المنصور.

ثم أعطّاها المهدي واستعادها الهادي.

وأعطّاها المأمون وأخذها غيره.

وردّها الواثق وأخذها غيره.

وأعطّاها المستنصر واستردها غيره.

وأرجعها المعتضد وأخذها غيره.

وبعد ذلك سلمها الخليفة الراضي^(١).

سعة فذك

هذا البحث إشارة إلى استفادتي الشخصية من أحاديث أهل البيت عليهم السلام وهو بحاجة إلى تحقيق أكثر، وإلى فتح باب قد تنفتح منه أبواب أخرى.

جاء في كتاب الكافي عن بعض الأصحاب (السياري) عن علي بن أسباط أنه:

لما ورد أبو الحسن موسى عليه السلام على المهدي رءاه يرد المظالم، فقال:

يا أمير المؤمنين ما بال مظلمتنا لا ترد؟ فقال له: وما ذاك يا أبا الحسن؟ قال: إن الله تبارك وتعالى لما فتح على نبيّه فدكاً وما والاها، لم يوجف عليه خيل ولا ركاب، فانزل الله على نبيه ﷺ: [وَأَتَ ذِي الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ]، فلم يدر رسول الله مَنْ هم، فراجع في ذلك جبرئيل وراجع جبرئيل إلى الله فأوحى الله إليه أن ادفع فدكا إلى فاطمة عليها السلام، فدعاها رسول الله ﷺ فقال لها: يا فاطمة إن الله أمرني أن أدفع إليك فدكا، فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك.

فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله ﷺ، فلما ولي أبو بكر أخرج عنها وكلائها فاتته فسأله أن يردها عليها، فقال لها: إيتيني بأسود أو أحمر يشهد لك بذلك، فجاءت بأمر المؤمنين عليهم السلام وأم أيمن فشهدا لها فكتب لها بترك التعرض، فخرجت والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمد؟ قالت: كتاب كتبه لي ابن أبي قحافه قال: ارنيه فأبت فانتزعه من يدها ونظر فيه، ثم تفل فيه ومحاه وخرقه، فقال لها: هذا لم يوجف عليه أبوك بخيل ولا ركاب فضعي الحبال في رقابنا.

فقال له المهدي: يا أبا الحسن حدّها لي. فقال عليه السلام: حدّ منها جبل أحد، وحدّ منها عرش مصر، وحدّ منها سيف البحر، وحدّ منها دومة الجندل. فقال له: كلُّ هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، هذا كله، إن هذا كله لم يوجف على أهله رسول الله ﷺ بخيل ولا ركاب. فقال: كثير وأنظر فيه ^(١).

وفي المناقب: فقال لها المهدي هذا كله هذه الدنيا، فقال عليه السلام: هذا كله في أيدي اليهود بعد موت أبي هاله، فافاءه الله على رسوله بلا خيل ولا ركاب فأمر الله أن يدفعه إلى فاطمة ^(١).

وينقل عن الداعي الرازي عن أبي سعيد الخدري أن حدود فذك هو مصر، دومة الجندل، جبل أحد، سيف البحر، وأن رسول الله ﷺ منحها عامتها لفاطمة ^(٢).

وفي كتاب أخبار الخلفاء: أن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام: خذ فذكاً حتى أردّها إليك، فيأبى حتّى ألح عليه، فقال عليه السلام: لا آخذها إلا بحدودها فقال: وما حدّها قال: إن حدّتها لم تردّها. قال بحقّ جذك إلا جعلت، قال:.....عدن....والسمرقند... وأفريقيا.....وسيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية.

قال الرشيد فلم يبق لنا شيء، فتحول إلى مجلسي. قال موسى بن جعفر عليه السلام: قد أعلمتك أنني إن حدّتها لم تردّها، فعند ذلك عزم على قتله ^(٣).

ولو عدلنا عن أسناد هذه الأحاديث ومتونها، فإن في ذهني سؤال عن أبي هالة المذكور في رواية المناقب نقلاً عن أخبار الخلفاء، من هو أبو هالة؟ هل إنها كنية رئيس من رؤساء اليهود؟ وكيف قيّدت فيها حدود فذك في زمن النبي بموت أبي هالة. وأنا أرجو من المحققين

(١) المناقب ٣: ٤٣٥ والبحار ٢٩: ٢٣١.

(٢) تبصرة العوام للسيد المرتضى: ٩٥.

(٣) عوالم العلوم ١١: ٤٣٢-٤٣٤.

القادرين على معرفة رجال اليهود في زمان النبي ﷺ وبالاخصيص أبي هالة أن يعينونا على فهم هذا الحديث ومن هو أبو هالة هنا، وأمد اليهم يد الاستعانة.

فالمستفاد من الحديث أن القصة قصة مصالحة طويلة وعريضة بين النبي ﷺ وأبي هالة الممثل لجميع اليهود من الجزيرة العربية، رئيس جميع اليهود الساكنين في هذه المناطق، وأنه ترك كل ذلك بيد الرسول ﷺ في مقابل بقاء اليهود في ديارهم والسماح لهم في البقاء في الدولة الإسلامية، ومن الواضح أن تلك المناطق لم يحرر جميعها إلى السنة العاشرة للهجرة، يعني زمن وفات النبي، فهذا يعني توسع رقعة فذك مع توسع حدود الدولة الإسلامية ولذلك فجميع ما كان في يد الرسول إلى ذلك الحين، وكل ما أخذ بعده من دون أن يوجف عليه بخيل ولا ركاب فهو لرسول الله وفقاً لما جاء في القرآن لأنه فيء، وقد وهبه الله له خاصة، فصار ملكاً له لا لأجل نبوته وباعتبار أن له الولاية والحكومة حتى يقال بانتقال ولايتها إلى من بعده من الخلفاء أو الحكام، بل يكون لمن بعده من ورثته لأنه ملك النبي لا ملك النبوة، وبهذا لا يصح القول بأن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في تحديده بهذه الحدود أراد أن يعلم بأنه عليه السلام أحق من غيره للخلافة على المسلمين فيكون فذك مثالا لهذا الشأن. فالمناطق التي حددها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، هي المناطق التي سكن بها اليهود وصارت بيد المسلمين في عهد هارون الرشيد، فهي متعلقة برسول الله أولاً ثم بمن هو أولى به من غيره وعلى هذا ففي كل زمان، كلما أخذت أرض بغير خيل ولا

ركاب وصارت بيد المسلمين واستولى عليها حاكم مسلم، فهو ملك رسول الله خالصاً ولا يكون من الأنفال ولا من بيت المال، ويؤول أمره إلى ورثة النبي ﷺ من ولد فاطمة، وفي هذه الدورة تكون لإمام العصر الحجة القائم ابن الإمام الحسن العسكري عليهما السلام.

فلا تتحدد فذك بمعناها العام بما تصالح عليه الرسول ﷺ في ذلك الزمان، بل تبقى تتوسع على الدوام، لأن حق النبي ﷺ لا يسقط بموته، وهو حاضر وباق على حقوقه على جميع الأمم وأكناف الأرض.

وادي القرى

لما فرغ الرسول ﷺ من أمر فذك، عطف نظره على وادي القرى، ولما علم أهل هذه القرية بتوجه النبي مع الجيش نحوهم، استعدوا للقتال واصطفوا له، فحاصروهم رسول الله ﷺ أياماً حتى أخذها منهم عنوة، وغنم أثاثهم ومتاعهم وأخرج خمسة ولكن أبقى النخيل والمزارع في أيديهم، وصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر^(١).

وكان اللواء في هذه المعركة بيد سعد بن عباد، وفي رواية حباب بن المنذر، وقد عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأبوا، فاشتبكوا وقتل أحد عشر يهودياً على يد المسلمين حتى حان وقت صلاة الظهر، فلما صلى الرسول ﷺ عرض عليهم الإسلام مرة أخرى، فأبوا،

فقاتلهم مرةً أخرى حتّى العصر وصار المساء، ولم يفتحها إلا في صباح اليوم الثاني وعاملهم معاملة أهل خيبر^(١).

تيماء

ولما رأى يهود تيماء مصير خيبر وفدك ووادي القرى أو سمعوا به، صالحوا من أول الأمر ورضوا بأداء الجزية على أن يبقوا في ديارهم^(٢).

ونقل محمد حميد الله نصّ الأمان «بسم الله الرحمن الرحيم هذا الكتاب من محمد رسول الله ل بني عاديّا إن لهم الذمّة وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مدّ، والنهار شدّ. وكتب خالد بن سعيد^(٣)..

وصالح رسول الله ﷺ بقية اليهود في مقنا وجربا وجنينا (حنينا) كما صالح أهل خيبر.

وفي رجوعه من تبوك صالح أهل دومة الجندل وإيله وتيماء وأذرح فقد أوردت المصادر التاريخية عهودا من الأمان والتسامح إلى أهل الذمّة بعمامة بما فيهم اليهود، وذكرت هذه المصادر أن الرسول كتب كتابا إلى يحنة بن روبة وأهل إيله جاء فيه:

«هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل إيلة، بسفنهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمّة الله وذمّة محمد رسول

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٦٩: ٣ عن الكامل في التاريخ ٢: ١٥٠.

(٢) فتوح البلدان ١: ٤٨.

(٣) مجموعة الوثائق: ٧٣، وص ٢٢. مكتوب رقم ١٩.

الله ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريده، ولا طريقاً يريده من بر وبحر، هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحيل بن حسنة بإذن رسول الله ﷺ ووضع رسول الله الجزية على أهل إيلة، ثلاثمائة دينار كل سنة، فكانوا ثلاثمائة رجل^(١)

وكتب ﷺ لأهل جربا وأذرج: «إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وإنّ عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة وأن الله عليكم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين»^(٢).

كذلك كتب رسول الله لأهل نجران من نصارى ويهود ولأهل اليمن كتباً مماثلة يبين لهم فيها من حقوق وما عليهم من واجبات، ويتضح مما جاء في الكتاب أنّ الجزية فرضت على أهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم وحددت كتب الرسول مقدار هذه الجزية كما كفلت هذه الكتب لليهود حرية الدين والعمل وطلبت إلى المسلمين مساعدتهم وحمايتهم وعدم الإضرار بهم. ويمكن أن يقال: إن رسول الله ﷺ قد أصدر أمان المسلمين إلى جميع ساكني الجزيرة العربية من أصحاب الديانات وغيرهم، وأخذ على المسلمين معاملتهم بالحسنى ما داموا يحافظون على عهودهم ولا يؤذون المسلمين. بهذه العهود والمواثيق فتح المسلمون عهداً جديداً من التسامح والعدالة إيذاناً بولادة مجتمع

(١) الواقدي المغازي ١: ١٠٣، مكاتيب الرسول ٣: ٩٧.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير ٥: ٢١.

جديد تحكمه قوانين الإسلام العادلة.

وبذلك فقد اليهود في جزيرة العرب استقلالهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وصاروا تحت نفوذ الدولة الإسلامية وبرعايتها ولهم حق العيش فيها مقابل دفع الجزية، لأنهم لم يسلموا ولم يقبلوا ذلك الدين الذي هو دين موسى وعيسى عليهما السلام.

وكان صلح خيبر قد بعث الأمل في قلوب اليهود الساكنين في المدينة وما حولها، من العرب وغيرهم، لأن النبي برهن في الساحة العملية على عدم قصده إلى استئصال اليهود وقطع شأفتهم وإنهائهم، وإنما أراد إسكاتهم وإيقاظهم من غمرتهم التي رفعوا فيها علم المخالفة والصد عن السبيل، وبذلهم العداء للنبي والمسلمين، هذا وقد عادت الغزوات السابقة بالضرر على اليهود. ولكن صلح خيبر أبقى عليهم وأبقاهم في الجزيرة العربية، وقد اتخذ الرسول ﷺ تلك السياسة.

وحينما حضرت رسول الله الوفاة وعلى رغم ما قيل من أنه مات متأثراً بسم اليهودية، أخذ يوصي برعاية حق أهل الذمة وأهل الكتاب وأوصى بهم خيراً، ولم يرض بغصب درهم واحد من حقوقهم أو يترك عهدهم ^(١).

ولكن مع الأسف نرى بعد وفاة الرسول وغصب الخلافة من أمير المؤمنين على يد من لا أهلية له لذلك، لم يمثل أمر رسول الله

(١) إعلام الوری: ١٤١. أوصى رسول الله في وصيته «...ولكن احفظوني في أهل بيتي واستوصوا بأهل الذمة خيراً وأطعموا المساكين وما ملكت أيمانكم...»

في أهل الكتاب وغيرهم، ولعبوا عبث هؤلاء المدعين بالخلافة باليهود وبمصيرهم، وحكموا فيهم بما تهوى أنفسهم، خالفوا في ذلك سيرة رسول الله، ووضعوا جميع عهود الرسول تحت أقدامهم، فأخرجوا اليهود من مناطق من جزيرة العرب كانوا قد أقرّوا فيها.

لماذا؟

بينما أثنى كتاب العامّة على هذا العمل وأطلقوا عنان القلم في التمجيد به وعدّوه من الأعمال الإيجابية غافلين عن العواقب^(١).



(١) ابن إسحاق: ٤٩٢، ٤٩٣ العلاقات: ٣٩٣، الرسول واليهود ٣: ١٣١٥.

الكلام الثالث

إخراج اليهود من جزيرة العرب

طبقاً للمؤشرات التاريخية فإن عمر بن الخطاب قد أقدم بعد سنتين من زمان حكومته على إخراج اليهود من جزيرة العرب، ونحن نطرق هذا الموضوع على الرغم من خروجه عن إطار هذا الكتاب لأجل أن عمر استند في عمله هذا إلى كلام الرسول وشروط المعاهدة مع اليهود، فمن المناسب أن نحوم بشكل مختصر حول المعاهدة والأسباب التي دعت إلى اتخاذ ذلك القرار، ولعل أهمية هذا التحليل تنبع من تبجيل كتاب العامة هذا العمل والإشادة به على أنه عمل حكيم مطابق لمрад الرسول ﷺ ووصاياه، وصاروا في صدد توجيهه وتقويته.

قال ابن إسحاق وسألت ابن شهاب الزهري: «كيف كان إعطاء رسول الله ﷺ يهود خيبر نخلهم، حين أعطاهم النخل على خرجها، أبت ذلك لهم حين قبض أم أعطاهم إياها للضرورة من غير ذلك؟

فأخبرني ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال، وكانت مما أفاء الله عز وجل على رسول الله، خمسها رسول الله، وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد

القتال، فدعاهم رسول الله فقال: إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها، وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وأقرّكم ما أقرّكم الله، فقبلوا، فكانوا يعملونها، وكان رسول الله يبعث عبد الله بن رواحة، فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص، فلما توفي الله نبيه، أقرها أبو بكر بعد رسول الله بأيديهم، على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله حتّى توفي، ثم أقرها عمر صدرًا من إمارته، ثم بلغ عمر أن رسول الله قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان، ففحص عمر ذلك، حتّى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود، فقال: إن الله عز وجل قد أذن في جلاءكم، قد بلغني أن رسول الله قال: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»، فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود، فليتجهّز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم^(١). (أخرجه الطبري ٣: ٢٠، إسناده صحيح).

ولأجل اتضاح الأمر نستعرض خبر آخر عن ابن إسحاق في هذا الشأن لتتبيّأ الأرضية المناسبة للبحث عند القارئ، يبيّن ابنُ إسحاق السبب الأساس في إخراج عمر لليهود.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر: قال خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهد بها، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا، قال: فعدى عليّ تحت

(١) سيرة ابن إسحاق: ٤٩١ و ٤٩٢ وفي كتاب ملامح من تاريخ القديم لليهود العراق ص ٢٣٠ المراد من الشامات التي اجلوا اليهود إليها هي منطقة الفرات الأوسط.

الليل وأنا نائم على فراشي، ففدعت يداي من مرفقي، فلما أصبحت أستصرخ على صاحباي، فأتياني فسألاني: من صنع هذا بك؟ فقلت لا أدري، قال: فاصلحنا من يدي، ثم قدما بي على عمر، فقال عمر: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس إن رسول الله كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عدوا على عبد الله بن عمر، ففدعوا يديه كما قد بلغكم، مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا نشك أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم. فمن كان له مال بخير فليدفع به، فاني مخرج يهود فأخرجهم^(١). أخرجه البخاري ٢٣٣٨ إسناداه صحيح.

فإن أول ما وضع عمر يده عليه هو موقية عهد الرسول مع اليهود وأن النبي ترك استدامته وعدمها بيد المسلمين، ورأى عمر وصول الأمر إليه، ولذلك أبلغ يهود خيبر بأنه لا يريد بقاءهم في جزيرة العرب بعد اليوم، فأراد إخراجهم فاضطروا على أثر ذلك للخروج من ديارهم.

وأما صاحب كتاب «الرسول واليهود وجهاً لوجه» فقد نقل هنا رواية عن البخاري فيها رد فعل بعض اليهود وردّ على عمر، قال: لما فدع أهل خيبر عبد الله بن عمر، قام عمر خطيباً فقال: إن رسول الله عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: «نقرّكم ما أقرّكم الله» وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدي عليه من الليل، ففدعت يده ورجلاه وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا وقد رأيت

إجلاهم.

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بني أبي الحقيق فقال: يا أمير المؤمنين، أخرجنا وقد أقرنا محمد وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا؟

فقال عمر: أظننت أني نسيت قول رسول الله: «كيف بك إذا أخرجت من خيبر، تعدو بك قلوبك ليلة بعد ليلة»، فقال: كان ذلك هزيلة من أبي القاسم! فقال: كذبت يا عدو الله، فأجلاهم عمر، فأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك^(١).

إذا تأملنا هذين الخبرين ندرك بوضوح مدى استبداد عمر بالرأي وفعله من دون اكتراث بما أراد الرسول أو ارتضاه ولا طلبا لمرضاة الله جل جلاله. ولا يعود جوابه على اعتراض ابن أبي الحقيق مقنعا، بل شتمه وعاتبه.

وأما ما أخبر عمر عن النبي بما سيجرى على ابن أبي الحقيق لا يفيد أحقية أقدامه وتعديله، بل ربما جرى عليه ظلما وعدوانا والخير يعلم أنه لا يشم من الرواية سواه، ولم يتصور ابن أبي الحقيق أن ينقض عهد رسول الله غيره فلذا قال: هذا هزيلة من أبي القاسم. فهذا فعل عمر الذي استبد في رأيه ولم يلاحظ عهد رسول الله ووصاياه. فإقدامه صار سببا لإهانة الرسول والاستخفاف بفعله وعهده.

(١) الرسول واليهود ٣: ١٣١٥ عن البخاري: ٥٤.

أما ما ورد في خبر ابن إسحاق بأن عمر مَيَّز بين من له عهد من رسول الله ومن لم يكن له عهد، فهذا غير واضح لنا، هل كان النبي عاهد مع كل فرد فرد بتفرده؟ أو عاهد مع كل طائفة أو مع أهل قلعة أو أهل ديار، ومن المعلوم أنه قد سبق أن رسول الله عاهد مع أهل الكتيبة وأقرهم في ديارهم وكان ابن أبي الحقيق منهم، فإذاً لماذا أجابه عمر بمثل ما أجابه والنتيجة أن عمل عمر في الساحة العملية يكون على خلاف ما قرّر ولم يلاحظ معاهدة رسول الله معهم.

أما تحليل المسألة: فإن النصّ الأصلي لمصاحبة الرسول مع أهل خيبر لم يصل إلينا، ولكن نقلت مضامينه بشكل متفرق، فإذا نقل ابن إسحاق في خبره عن عمر أن أرض خيبر متروكة في يد اليهود ثم اضاف «نخرجهم إذا شئنا»، فهو لا يعني وجود هذا الكلام في نصّ المعاهدة، كي يثبت هذا القيد، فإن كلمة «شئنا» مجملة، وعلى فرض وجودها فالمراد هو إ شاءة الرسول لا إ شاءة غيره، ولم يشأ الرسول ذلك مادام حيًا، وإذا قلنا إ شاءة المسلمين فلا وجه لاتخاذ عمر وحده هذا القرار، ولم يقيم أبو بكر بهذا العمل، فهو يرشد إلى عدم وجود هذا الشرط في المعاهدة، وإنما أضيف بعد ذلك. والمؤيد لذلك عدم وجود هذا القيد في واحدة من معاهدات النبي ﷺ ولذا كان من المناسب أن نلقي نظرة على شروط معاهدات الرسول ونقوم بتحليلها لنقف على طريقة كتابة تلك المعاهدات، فقد جاء في معاهدة أهل الدارين قيد «أبدًا»^(١) وفي معاهدته مع النصارى للسيد بن الحارث بن كعب ولأهل ملّته: «حتى

تقوم الساعة»^(١)، وفي المعاهدة مع أهل حنينا وأهل مقنا «ما دامت السموات على الأرض» ونهى عن التغيير والتبديل، حيث نأخذ نتيجة من ذلك أن جميع معاهدات الرسول إما مؤبدة أو موقته بوقت غير محدود مثل ما دامت السموات على الأرض أو مقيدة بما داموا على الوفاء. وليس في شيء منها التقييد بإشاعة المسلمين أو الصحابة من طرف واحد، ولو كان ذلك حقاً لأنيط بإشاعة نفس النبي، لأنه معصوم من الخطأ ولا يفسخ عهده ما لم يستحق الطرف المقابل فسخ العهد.

أما عمر بن الخطاب فقد استند عمله هذا أولاً: إلى كلام يسنده إلى النبي بأنه: «أوصى بإخراج اليهود من الجزيرة»، وأنه «لا يجتمع في الجزيرة دينان» وثانياً: على الإشاعة المدعاة وثالثاً: إلى شرارة اليهود المفروغ عنها عنده لما أصيب ابنه عبد الله.

فالحديث الذي استدل به عمر هو أن رسول الله ﷺ أوصى بإخراج اليهود من جزيرة العرب، مخدوش لأنه بالإضافة إلى أنه من أحاديث العامة^(٢) وسنده ضعيف واختلف العامة أنفسهم في صحته، وهو يناقض عمل الرسول ﷺ.

وأما مصادر العامة فقد أخرج البخاري في باب إخراج اليهود من جزيرة العرب من كتاب الجهاد والسير، ومسلم في كتاب الوصايا

(١) مجموعة الوثائق: ٨٥ - ٩٥. في مکتوبین ٩٦ و ٩٧.

(٢) ما رأيت في المصادر الشيعية من هذا الحديث أثر سوى أن هناك رواية في الأمالي تبتني على هذا المعنى وهي بحاجة إلى التحقيق.

عن سفيان عن سليمان الأحول، عن سعيد بن جبير، أنه سمع ابن عباس يقول يوم الخميس، قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه، فقال ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما له؟ أهجر استفهموه. فقال ذروني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه. فأمرهم بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، والثالثة إمّا أن سكت عنها وإمّا أن قالها فنسيها، قال: قال سفيان هذا من قول سليمان^(١). وفي باب جوائز الوفد. عن سليمان الأحول، عن ابن جبير، عن ابن عباس، أنّه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتّى خضب دمه الحصباء، فقال اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر رسول الله ﷺ عليه وآله. فقال: دعوني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه، وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، ونسيت الثالثة...^(٢).

ولا شك أن هذا الحديث ينافي فعل نفس النبي وعهوده الكثيرة مع الطوائف اليهودية، كلّ على حدة، ويناقضها، فإن في هذه الوصية - إن صدر منه ﷺ - كلمة «المشرك» تكون بشكل عام ولم يحدد بأهل الكتاب ولا ينحصر هذا على اليهود والنبيّ لم يستثن منهم قومًا أو طائفة

(١) البحار ٣٠: ٣٥١.

(٢) البحار ٣٠: ٥٣٢. يجب أن يسأل عمر أنه كيف أن الرسول لم يهذ في مسألة إخراج اليهود من جزيرة العرب، ولكن لما أراد أن يتعرض لخلافة أهل البيت صار يهذي.

على التعيين ومعنى كلمة جزيرة العرب واسع ولا يتوقف عند خير، فلذا لم يخرجوا يهود المدينة بهذا الأمر ولكن عمر أخرج يهود خير وأهل القرى من مساكنهم فقط.

ولو صحت هذه الوصية فلماذا لم يمثل ذلك أبو بكر فقد كان قادراً على ذلك ولم يفعله، ولم يوص أمير المؤمنين علي عليه السلام بذلك ولم يقدم على شيء من ذلك مع أنه الوصي الحقيقي وهو طالما أرشد الخلفاء الثلاثة ويقول: أنا لكم وزير خير من أن أكون أميراً، ولم يؤيد عمل عمر هذا أبداً، بل ظل يحترم العهد مع أهل الكتاب ويوصي برعاية أحوالهم والطبري الإمامي من محدثي صدر الإسلام ومؤرخيه عدّ في كتاب الإمامة، عمل عمر هذا من البدعة وقال بأن الحديث موضوع ومفتري^(١).

وجاء في كتاب إعلام الوري وصية الرسول حين حضرته الوفاة بأهل الكتاب: أنه وصّى بهم خيراً، وليس فيها دلالة على إخراجهم عن مواطنهم^(٢).

بالإضافة إلى أننا أشرنا إلى أن الموجود في معاهدات النبي صلى الله عليه وآله هو التعقيب بـ «مادامت السموات والأرض» أو «أبداً»، فكيف يعقل أن النبي صلى الله عليه وآله حين تحضره الوفاة يقوم بنقض عهده مع الجماعات اليهودية في الجزيرة، من دون أن يصدر منهم ما يوجب النقض، ويأمر بإخراجهم من جزيرة العرب.

(١) المسترشد في الإمامة للطبري: ٥٢٥.

(٢) إعلام الوري: ١٤١.

وإذا لم يخرجهم أبو بكر، ولم يخرجهم عمر فور وصوله إلى دفة الحكم، هل يعقل توقيته بزمان الاعتداء على ابنه عبد الله؟ فإن هذه الأمور تسوق المحققين إلى التحقيق والتساؤل عن الداعي الحقيقي، وقبل التعرض لذلك أرغب في إيراد كلام آخر ينتسب إلى النبيّ وتحليله ثم نعود إلى الكلام في أصل الواقعة.

إن عمر افترى أمراً آخر وهو أنه نقل عن النبي ﷺ: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، نترك التعرّض لسند هذا الحديث واعتباره مع خلوّه من الاعتبار لفسق من شهد به عند الإماميّة، ولكن مضمونه ومحتواه غير معقول جداً وبعيد عن واقع ذلك اليوم وهل يصدّق أحد أن الإسلام شمل جميع الجزيرة العربية ذلك اليوم ولم يبق فيها نصراني ولا مجوسي ولا صابئي ولا دهري ولا غيرهم؟ وهل إن تواجدهم يعني وجود دين آخر في الجزيرة، وهل يمكن تصديق لزوم اجتماع دينين في صورة بقاء اليهود فقط؟ هل يمكن تصديق أن اليهود الذين انكسروا في غزوة خيبر وصالحوا وبعضهم أعطوا الجزية عن يد وبعضهم اصطلحوا على نصف ثمارهم وقد دفعوا ما عليهم حتّى في عهد أبي بكر وبرهنوا بذلك على وفائهم، واليوم وقد وصلت النوبة لعمر، صاروا سبباً لظهور دين باسم اليهودية في الجزيرة حتّى يجتمع مع الدين الإسلامي؟

فمن الواضح أن هذا الحديث لا ينسجم مع واقع الجزيرة العربية، والحال أن تاريخ المدينة يحكي حضور أبناء الديانات المختلفة فيها.

ومن ناحية أخرى فهل كان الإسلام حكرًا على الجزيرة العربية، وهل إن النبي بعث إلى العرب فقط، ألا يتوسّع الدين في المستقبل ويسري إلى المناطق الأخرى، فما هي الخصوصية في جزيرة العرب حتى لا يجتمع فيها دينان، ألم تشمل الدولة الإسلامية يومذاك شطرًا من خراسان وشطرًا من الروم، فهل إن تواجد أبناء الديانات المختلفة في كل مجتمع، يعني حكومة تلك الديانات؟.

وأساسًا فإن هذا الكلام غير مقبول عند العقلاء وليس من الحكمة، ولا يتلاءم مع طبيعة الأحكام الاجتماعية والمدنية، ولا يعقل صدوره من مثل النبي الذي ملئ علمًا وحكمة.

هل ذلك من العدل أن يعقد الرسول مع أبناء الديانات معاهدة صلح، ثم يتقرر بعدها وجود دين واحد فقط، فأين الآيات التي تتكلم عن الوفاء بالعهد؟ والآيات التي تسمح للمسلمين بالتعامل والإحسان إلى المسالمين من أهل الكتاب مما عدا الكافرين والمحاربين^(١)، فإذا لا يحق لهم البقاء في الدولة الإسلامية كيف تمكن معاشرتهم والإحسان إليهم.

هل يصح الالتزام بلغوية القيود المذكورة في العهود، مثل قوله في معاهدته يهود عاديا: «لا عداً ولا جلاء»^(٢) وفي معاهدة أخرى «ولا تحشرون ولا تعشرون» هل هذه القيود جاءت عبثًا فلا بد أن الأمر غير ذلك.

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) الوثائق: ٢٢.

وهناك أمر أساسي وعدنا ذكره وهو الأمر المهم الذي قابل للدقة، فإن النبي ﷺ قرّر في معاهداته مع الطوائف اليهودية والنصرانية لكل طائفة شيئاً خاصاً مثل ما تعاهد مع اليهود فإنه: «لا يحق لأحد التروّس عليهم إلا نفس رسول الله أو رجل من أهل بيته أو رجل منهم يعني من رؤساء اليهود».

وبعنوان المثال ما في الكتاب الذي كتبه إلى أهل مقنا: «ولا يولى عليكم والٍ إلا منكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ»^(١). وجاء في كتاب آخر إلى أهل مقنا: «وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت الرسول ﷺ».

والذي يبدو أن وجود هذه الشروط في المعاهدات مع اليهود عرقلت تسلط عمر على هذه المناطق التي يقطنها اليهود، فكان يحاول إزاحة طرف المعاهدة من الساحة لكي يتسنى له الحكم على هذه الديار ولا يدع مجالاً لاعتراض المعارض، ولا يبعد ضياع نصوص المعاهدات ضمن هذه الخطة المذكورة، ولذلك صمّم بعد أبي بكر بواسطة وضع حديث لا يتلاءم مع قول النبيّ وفعله ويجب طرحه على الجدار أن يجلي اليهود من مواطنهم.

فالمستفاد من خبر ابن إسحاق أن دافع عمر كان شخصياً، ولا مؤثر فيه لأن يكون إلهياً وحتى لو أن الرسول ﷺ قال «إذا شئنا» فلا يحق لعمر أيضاً أن يقدم على هذا العمل لدوافع شخصية وبمجرد

التعرض لابنه، فيقوم بقلع اليهود من ديارهم ودورهم ويتركهم في العراء، ويمزق عهد النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله معهم.

ولذا فإن عمل كهذا يعدّ بدعة ونقضاً للعهد، وفسخ عهد رسول الله وإمالة حق اليهود، والنتيجة أنه لم يكن ترؤس عمر على اليهود في محله مع ملاحظة عهد النبي معهم ولا يحقّ له إخراجهم ونقض عهدهم. وتأتي نفس هذه الإشكالات في مسألة إخراج نصارى نجران، يجب التعرض لها في بحث الرسول المصطفى والنصارى، وتصدّي محققو العامة لتوجيه عمل عمر، تعرض لذلك في كتاب العلاقات ^(١). ووجهه في كتاب الرسول واليهود، وذكر في كتاب العنصرية اليهودية أن هذا البلاء الذي نزل على رأس اليهود كان بسببهم وجزاء عملهم، وقد أقدم عليه عمر لحكمة علمها ^(٢)، ينظر تفاصيل ذلك في مظانها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سيد جعفر العارف الكشفي

النجف الأشرف

(١) العلاقات: ٣٩٣ من كتاب التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب للشيخ صارم الدين عبد القادر بن أحمد.

(٢) العنصرية اليهودية ٢: ٥١٣. الرسول واليهود ٣: ١٣١٥.

مصادر الكتاب

- ١- القرآن المجيد.
- ٢- آيينه عباسي در دين شناسي، ابن عبد النبي، مخطوط.
- ٣- ابن رشد والفكر العبري الوسيط، شحلان، أحمد، ناشر أحمد شحلان، ١٩٩٩ م.
- ٤- إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، شيخ حر عاملي، محمد بن حسن، ناشر أبو طالب تجليل تبريزي، ١٤٠١ هـ.
- ٥- الاحتجاج على أهل اللجاج، شيخ طبرسي، أحمد بن علي، ٢ جلد، نشر مرتضى - مشهد، چاپ: أول، ١٤٠٣ ق.
- ٦- إحقاق الحق وإزهاق الباطل، نور الله حسين مرعشي تستري، مكتبة الإسلامية، قم.
- ٧- أحكام ومقررات موسى، تهران، ١٣٥٧، موجود در کتابخانه دانشگاه آديان قم تحت شماره ٣ الف / ٩ ل / ٥٢٠.
- ٨- إحياء الموتى بكلمه المسيح عيسى، محمد بن عبد النبي بن عيد

الصانع، آستان قدس، مخطوط.

٩- أرجح المطالب، لعبيد الله الحنفي، چاپ سنگی.

١٠- أسرار آل محمد، سليم بن قيس.

١١- الإرشاد، الشيخ المفيد، مجلدين، قم ١٤١٣.

١٢- اسد الغابه فى معرفه الصحابه، لابن الاثير الجزري، ٥ مجلدات داراحياء التراث العربى، بيروت.

١٣- الإسلام واليهودية، دراسة مقارنة من خلال سفر اللاويين، د. عماد علي عبد السميع حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، طبع أول ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

١٤- الإسلام واليهودية، دراسة مقارنة من خلال سفر اللاويين، الدكتور عماد علي عبد السميع حسين، من منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

١٥- أسماء الرسول المصطفى، از مجلدات موسوعة الرسول المصطفى، دار الأثر، بيروت.

١٦- أشعيا نبى بني إسرائيل، دكتور محمود أحمد المراغي، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ١٤١٢ هـ ١٩٩٦ م.

١٧- إعلام الورى بأعلام الهدى، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، بتصحيح علي أكبر الغفاري، دار المعرفة للطباعة

والنشر، بيروت، لبنان ١٩٧٩ هـ.

١٨- إقامة الشهود في ردّ اليهود (منقول رضائي)، ميرزا محمد رضائي جديد الإسلام، ترجمه من العبرية آخوند ملا محمد علي كاشاني الملقب بأقا جاني، الطبع الحجري.

١٩- الأمالي، شيخ صدوق، ابن بابويه، انتشارات كتابچی تهران ١٣٧٣.

٢٠- الأمالي، الشيخ الطوسي، من منشورات دار الثقافة، قم المقدسة، ١٤١٤ ق.

٢١- إكمال الدين وإتمام النعمة (كمال الدين)، للشيخ الصدوق، محمد بن علي بابويه قمي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤٠٥ هـ.

٢٢- إمتاع الأسماع، مقريزي، أحمد بن علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩ م.

٢٣- إنباء الأبناء، حاجي إسماعيل، والد صاحب محضر الشهود، مخطوط.

٢٤- إنجيل برنابا، ترجمة حيدر قلي خان قزلباش (سردار كابلي)، إنتشارات المعی، ١٣٨٠.

٢٥- الأنوار النعمانية السيد نعمة الله الجزائري، أربعة أجزاء، طبع تبريز.

٢٦- أنيس الأعلام في نصره الإسلام، محمد صادق فخر الإسلام، تحقيق السيد عبد الرحيم خلخالي، مكتبة مرتضوي طهران، ١٣٥٤. ٥ مجلدات.

٢٧- انساب الأشراف، للبلاذري، أحمد بن جابر، دار المعارف، القاهرة.

٢٨- الأنوار النعمانية، سيد نعمت الله جزائري، ٤ جزء، طبع تبريز.

٢٩- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ١١٠ أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ.

٣٠- البحث عن الحقيقة في أفكار ومعتقدات اليهود، محمد أبو القاسم الحاج، مكتبة الجماهيرية، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ.

٣١- البداية والنهاية لابن كثير تحقيق علي الشيري الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٣٢- بشارات عهدين، الدكتور محمد الصادقي، دار الكتب الإسلامية، تهران الطبعة الرابعة ١٣٦٢. ش.

٣٣- بذل المجهود في إفحام اليهود، السموأل بن يحيى بن عباس المغربي (الحبر شموائل بن يهوذا)، دار بيبليون باريس، ٢٠٠٥ م.

٣٤- البرهان في تفسير القرآن، بحراني، سيد هاشم بن سليمان، ٥ جلد، مؤسسة بعثت - قم، چاپ: أول، ١٣٧٤ ش.

- ٣٥- بصائر الدرجات، محمد بن حسن بن فروخ صفار، مكتبة مرعشي، قم، ١٤٠٤ تك جلدي.
- ٣٦- بنو إسرائيل بين النبأ القرآني وخبر العهد القديم، د. صابر طعيمة، عالم الكتب، بيروت، طبع أول، ١٩٨٤ م.
- ٣٧- بهجة التواريخ، شكر الله الرومي (م. ٨٦١) مكتبة المرعشي، قم المقدسة، مخطوط.
- ٣٨- پیامبر ویهود حجاز، مصطفى صادق، مركز مطالعات وتحقيقات إسلامي، انتشارات بوستان کتاب، ١٣٨٢ ش.
- ٣٩- تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٩ هـ.
- ٤٠- تاريخ المدينة المنورة، لابن شيبه، أبو زيد عمر بن شيبه، قم، دار الفكر ١٣٦٨ هـ.
- ٤١- تاريخ الكعبة، الدكتور علي حسني الخربوطلي، دار الجليل، بيروت، لبنان، ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م.
- ٤٢- تاريخ اليمن القديم، محمد عبد القادر بافقيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٣ م.
- ٤٣- التاريخ العسكري لبني إسرائيل من خلال كتاباتهم، د- ياسين سويد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٨ م.

٤٤- تاريخ اليهودي العام، الدكتور صابر طعيمة، جزئين، دار الجليل، الطبعة الثانية ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٥- تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، إسرائيل ولفنسون، دار بيبليون، باريس، ١٩٢٧.

٤٦- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن حسن الطوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٩هـ.

٤٧- التحريف في التوراة، الدكتور محمد علي الخولي دار محمد لاوي للطباعة والنشر، عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٨- ترجمة الأناجيل الأربعة، كليمنطس ابن عبد الله ١٧١١م. العربي المحفوظة في مكتبة الفاتيكان، رم.

٤٩- ترجمة زبور المتعلق بالقرن الثالث من الهجرة، العربي، مخطوط.

٥٠- تفسير الإمام الحسن العسكري ٧، مجلد واحد، طبع مدرسة الإمام الهادي، قم. ١٤٠٩هـ.

٥١- تفسير القمي، آستان قدس، الأرقام: ٧٥١٢، و ١٢٢٩ و ١٢٣٠ ومكتبة قمر بني هاشم دامغان ونسخة إحياء تراث رقم: ٢٩٢٣، مخطوط.

٥٢- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، مجلدين، من منشورات العلامة، قم المقدسة ١٣٨٧هـ.

٥٣- تفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، طبع الثالث، دار أحياء التراث العربي، ١٤١٧.

٥٤- التفسير للمحدث أبي نصر محمد بن مسعود بن عياشي تحقيق السيد هاشم الرسولي، المكتبة العلمية الإسلامية طهران مجلدين.

٥٥- التناقض في تواريخ أحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل، محمد قاسم محمد، جامعة قطر مطابع ستار برس للطباعة والنشر، ١٩٩٢ م.

٥٦- التوراة والتراث السوري، مفيد عرنوق، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.

٥٧- التوراة السامرية، عربي، ترجمة أبو الحسن إسحاق السوري، به إشراف دكتور أحمد حجازي السقا، الناشر دار الأنصار طبع أول، مصر، ١٣٩٨ هـ.

٥٨- تنزيه الأنبياء والائمة، سيد علم الهدى علي بن حسين (الشريف المرتضي)، انتشارات شريف رضي، قم.

٥٩- ثواب الأعمال، للشيخ الصدوق، طبع الغفاري مكتبة الصدوق، طهران.

٦٠- جامع أحاديث الشيعة، آقا حسين بروجردي، تحقيق جمعي از محققان، عربي، ٣١ جلد، انتشارات فرهنگ سبز، تهران، ١٣٨٦ ش.

٦١- جغرافية التوراة، زياد منى، رياض، الرئيس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٦٢- جهاد الرسول المصطفى من موسوعة الرسول المصطفى، ستار جبار الزهيري، دار الأثر بيروت لبنان ١٣٨١.

٦٣- الحسام الممدود في الرد على اليهود، عبد الحق الإسلامي المغربي، من أحبار اليهود بسبته، تحقيق الدكتور عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٦٤- الخرائج والجرائح، الراوندي، تحقيق مؤسسة الإمام المهدي، قم، ثلاث مجلدات، ١٤٠٩هـ.

٦٥- الخصال، للشيخ الصدوق، مجلدين، منشورات جامعه المدرسين، قم، ١٤٠٣هـ.

٦٦- خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، كمال الصليبي، دار الساقى، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩٤.

٦٧- الروضة في فضائل الأئمة، لشاذان بن جبرئيل.

٦٨- الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية، إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي، دار بيليون، باريس، ٢٠٠٥.

٦٩- الرسول واليهود وجهًا لوجه، الدكتور سعد المرصفي، أربعة أجزاء، مكتبة ابن كثير، الكويت، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة

الثانية ٢٠٠٢ م.

٧٠- سبل الهدى والرشاد، للصالحى الشامى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٧١- سعد السعود للنفوس، السيد بن طاووس، مركز تحقيق علوم إسلامي، بوستان كتاب، قم، انتشارات دفتر تبليغات إسلامي حوزة علمية قم، طبع أول، ١٤٢٢ هـ.

٧٢- سيرة النبي، الشيخ علاء الدين علي بن محمد الطلاطي الحنفي، مركز إحياء التراث الإسلامي قم، ش ٩٧٥.

٧٣- سعد السعود للنفوس، السيد بن طاووس، مركز الأبحاث للدراسات الإسلامية، بوستان كتاب، قم، انتشارات دفتر تبليغات إسلامي حوزة علمية قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

٧٤- سلسلة غزوات الرسول الأعظم، د. شوقي، أبو خليل، ٢٠٠٢ م.

٧٥- السيرة النبوية والآثار المحمدية، للسيد أحمد زيني دحلان، مفتي الشافعي، مطبوع بهامش السيرة الحلبية.

٧٦- السيرة النبوية لابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الكتاب العربي.

٧٧- السيرة النبوية، ابن إسحاق، تحقيق أحمد فريد المزيدي، مجلد ١ و ٢ من منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤ م.

۷۸- السيرة النبوية، أبي محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق سعيد محمد اللحام، ۴ أجزاء، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ۲۰۰۵ م.

۷۹- سيري در تلمود، آرين إشتاين سالتز، ترجمه باقر طالبي دار أبي، مركز مطالعات وتحقيقات أديان ومذاهب، قم ۱۳۸۳ ش.

۸۰- سيف المومنين في قتال المشركين، ترجمه وشرح ونقد سفر پيدایش تورات، علي قلي جديد الإسلام، باهتنام رسول جعفریان، منشورات انصاريان، قم، ۱۳۸۲.

۸۱- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي «بيروت، دار الثقلين، ۱۹۹۴ م.

۸۲- شرح أصول الكافي، صدر الدين شيرازي، محمد بن إبراهيم، تحقيق محمد خواجهوى، عربي، ۴ جلدی، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگى، چاپ أول، تهران، ۱۳۸۳ ش.

۸۳- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد معتزلي، دار إحياء الكتب العربية، ۲۰ جلدی، بيروت.

۸۴- شهيدان إسلام در عصر پیامبر، آيتي، محمد إبراهيم، بنياد پژوهشهای إسلامی، مشهد، ۱۳۸۱ م.

۸۵- الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الوطن، رياض، ۲۰۰۷ م.

- ٨٦- صحيح الأحاديث القدسية وموسوعة شرحها درر النقية، ابن خليفه عليوي، دمشق، دار الأنوار، ١٩٩٤م.
- ٨٧- صحيح البخاري مع فتح الباري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض، جديد.
- ٨٨- الصحيح للمسلم، أبو الحسن مسلم النيشابوري، دار إحياء التراث، بيروت.
- ٨٩- الصحيح من السيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، بيروت، دار السيرة، ١٩٩٥م.
- ٩٠- الصراط المستقيم، علي بن يونس بن نابطي، ٣ جلدی، مكتبة حيدري، النجف الأشرف، ١٣٨٤هـ.
- ٩١- صلح حديبية، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨٢م.
- ٩٢- صوم عاشوراء بين السنة النبوية والبدعة الأموية - نجم الدين الطبسي.
- ٩٣- عدالت كيفري در آئين يهود، حسين سليمان، مركز مطالعات وتحقيقات أديان ومذاهب، قم ١٣٨٣.
- ٩٤- العرب قبل الإسلام، برهان الدين دلو، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

٩٥- العرب واليهود في التاريخ، الدكتور أحمد سوسة، دار العربي للإعلان والنشر والطباعة، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.

٩٦- عقل اليهود الأسير، محمد حسين مرتضى، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، قم.

٩٧- علل الشرايع، شيخ صدوق، محمد بن علي بن حسين، تعليق حسين اعمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي ١٤٠٨ هـ.

٩٨- العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين، الدكتور صالح موسى درّادكة، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م.

٩٩- على والأنبياء، حكيم سيالكوتي، ترجمة عربي، مؤسسة صاحب الزمان، ١٤١٩ هـ وترجمهي فارسي، على وپيامبران، مشهد مقدس، ١٣٧٧.

١٠٠- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، الدكتور أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبى، أربعة أجزاء، مكتبة العبيكان، الرياض.

١٠١- عيون أخبار الرضا، شيخ صدوق، كتابفروشي إسلامية، تهران ١٣٩٦، هـ.

١٠٢- عوالم العلوم والمعارف والأحوال، بحراني، عبد الله، مدرسة الإمام المهدي، قم.

- ١٠٣- غزوة احد، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨٢ م.
- ١٠٤- غزوة الخندق، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨٢ م.
- ١٠٥- غزوة الحديبية، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨٢ م.
- ١٠٦- غزوة خيبر، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨٢ م.
- ١٠٧- فتح الباري، في شرح صحيح البخاري، عسقلاني أحمد بن علي بن حجر، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٤ هـ.
- ١٠٨- فتوح البلدان للبلاذري تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد طبع ١٩٥٦ م مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
- ١٠٩- الفصول المائة، السيد أصغر ناظم زاده قمي، ٥ مجلدات، انتشارات أهل البيت ١٤١١ هـ.
- ١١٠- فصول من تاريخ المدينة المنورة، علي حافظ، جدة، شركة المدينة المنورة، ١٤٠٥.
- ١١١- الفضائل، أحمد بن حنبل، تحقيق حسن حميد السنيدي، مركز الطباعة والنشر للمجتمع العالمي لأهل البيت، ١٤٢٥ هـ.

١١٢- فضائل الصحابة، النسائي، أحمد بن شعيب، تحقيق فاروق حماد، دار الثقافة، ١٩٨٤م.

١١٣- الفضائل، لابن شاذان.

١١٤- فقه الرضا، منسوب به إمام علي بن موسى، عليه السلام، مؤسسة آل البيت چاپ أول، مشهد، ١٤٠٦ ق.

١١٥- الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن، الدكتور محمد بن فتح الله بدران، جزيرة.

١١٦- الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن، الدكتور محمد بن فتح الله بدران، جزيرة.

١١٧- فلسفه يهودي در قرون وسطي، دن كوهن شرباك، ترجمة علي رضا نقد علي، مركز مطالعات وتحقيقات أديان ومذاهب قم ١٣٨٣ هـ.

١١٨- قصص الأنبياء، السيد نعمة الله الجزائري، مكتبة المرعشي قم، ١٤٠٤ هـ.

١١٩- الكافي، الشيخ ثقة الإسلام الكليني، دار الكتب الإسلامية، ٨ مجلدات ١٣٦٥ ش.

١٢٠- كتاب الأغاني، علي بن الحسين أبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٤ مجلدًا.

١٢١- كتابهائي از عهد قديم ترجمه پيروز سيار، نشر في تهران، الطبعة الثالثة ١٣٨ ش.

١٢٢- كتاب العهد القديم، ترجمه عربي طبع ١٨٧٠.

١٢٣- كتاب العهد الجديد، ترجمه عربي طبع ١٨٧٠.

١٢٤- كلام مسيحي، توماس ميشل، ترجمة حسين توفيقى، مركز مطالعات وتحقيقات اديان ومذاهب، ١٣٨١ هـ.

١٢٥- كنز الكراجكي، مكتبة المصطفوي، قم، مجلد واحد، ١٣٦٩ ش.

١٢٦- لمعات ملكوتية، سيد أحمد بن زين العابدين علوي متوفاي ١٠٥٤ تا ١٠٦٠، طبع في ميراث إسلامي، بإهتمام رسول جعفریان، المجلد الثالث.

١٢٧- ليال يهودية، هل ذبح البابليون والنصارى والمسلمون اليهود، نجاح عطاء الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، لندن ١٤٢٣ هـ.

١٢٨- مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ١٠ أجزاء، ٥ مجلدات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٧٩ هـ.

١٢٩- مجمع النورين، مرندی، ابو الحسن، طبع حجري.

١٣٠- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، الدكتور محمد حميد الله الحيدري آبادي، الطبعة الثانية، مكتبة

مدبولي، القاهرة، ۲۰۰۰ هـ.

۱۳۱- محضر الشهود رساله اي در رد يهود، حاجي بابا قزويني يزدي، تحقيق حامد حسن نواب. مؤسسه فرهنگي انتشاراتي حضور، قم ۱۳۷۸ هـ طبع جديد.

۱۳۲- مدينه المعاجز، حسيني بحراني سيد هاشم، تحقيق همداني، قم مؤسسه معارف اسلامي، ۱۴۱۳ هـ.

۱۳۳- محمد رسول الله، آنه ماري شميل، مترجم حسن لاهوتي، تهران ۱۳۸، انتشارات قلم.

۱۳۴- محمد در تورات وانجيل، عبد الاحد داود (عالي جناب داود بنيامين كلداني از قسيسين مسيحي) فارسي.

۱۳۵- مستدرک سفينه البحار، نمازي شاهرودي، علي، جامعه مدرسين، قم، ۱۴۱۸ هـ.

۱۳۶- مستدرک علي الصحيحين، حاکم نيشابوري، محمد بن عبد الله، دار الفكر، بيروت، ۲۰۰۲ م.

۱۳۷- . مستدرک نهج البلاغه، مير جهاني.

۱۳۸- المسترشد في الإمامة، محمد بن جرير الطبري، مطبعة سلمان الفارسي، قم المقدسة، الطبعة الأولى ۱۴۱۵ هـ.

۱۳۹- مسيحيت وبدعتها، جوان اگريدي، ترجمه عبد الرحيم سليمان

اردستاني، مؤسسة فرهنگي طه، قم ١٣٧٧ ش.

١٤٠- المسند، أحمد بن محمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكرى جزء ثانى، مكتبة التراث العربى القاهرة ١٦ مجلد.

١٤١- مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

١٤٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، جزء ٦، بيروت دار العلم، بغداد مكتبة النهضة، ١٠ مجلدات، ١٩٧٦ م.

١٤٣- معالى السبطين، شيخ محمد مهدي حائري، دوجلدی از منشورات مكتبة حيدريه، نجف، ١٣٨٥ هـ ق.

١٤٤- معجم البلدان، ياقوت حموي بغدادى، بيروت دار احياء تراث عربى ١٩٧٩ م.

١٤٥- المغازي، محمد بن عمر بن الواقدي، تحقيق الدكتور مارسون جونس، جزئين، مؤسسة الاعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

١٤٦- مكاتيب الرسول، علي أحمد ميانجي، ٤ مجلدات، طهران، مؤسسة دار الحديث، ١٤١٩.

١٤٧- مكاييد اليهودية عبر التاريخ عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، دمشق، دار العلم، ١٩٧٨ م.

١٤٨- ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، الدكتور أحمد سوسة،

- مركز الدراسات الفلسفية جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٨ م.
- ١٤٩- مناقب آل أبي طالب، محمد ابن شهر آشوب، مؤسسة انتشارات علامة ٣ مجلدات قم، ١٣٧٩ ش.
- ١٥٠- موسوعة التاريخ الإسلامي، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي، ١٤١٧ هـ.
- ١٥١- موسوعة الإمام الصادق، محمد كاظم قزويني، مؤسسة الرافد للمطبوعات، قم.
- ١٥٢- موسوعة فلاسفة متصوفة اليهودية دكتور عبد النعيم الحفني مكتبة مدبولي ١٩٩٤.
- ١٥٣- الميزان في تفسير القرآن، العلامة سيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، ٢٠ مجلد، قم المقدسة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤ هـ.
- ١٥٤- ناسخ التواريخ، لسان الملك سپهر، محمد تقي، زندگانی پیامبر، قطع وزيري.
- ١٥٥- النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة، د- سيد القمني، المركز المصري لبحوث الحضارة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.
- ١٥٦- نهج البلاغة من كلمات أمير المؤمنين الإمام عليّ، جامع السيد الرضي.

١٥٧- نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمودى، محمد باقر، بيروت مؤسسة الأعلمي.

١٥٨- نواذر المعجزات، محمد بن جرير الطبري الإمامي، انتشارات دليل ما، قم.

١٥٩- نور البراهين للسيد نعمه الله الجزائري، مؤسسة نشر إسلامي، ١٤٧٧هـ.

١٦٠- هداية الضالين وتقوية المؤمنين، ملا علي قلي پادري جديد الإسلام، آستان قدس ١٢١١٦ مخطوط.

١٦١- هل اغتيل النبي محمد(ص)، نجاح الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، بيروت، لندن، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

١٦٢- وسائل الشيعة، شيخ محمد بن الحسن حر عاملي، تحقيق شيخ عبد الرحيم رباني، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١م.

١٦٣- اليمن في صدر الإسلام من البعثة المحمدية حتى قيام الدولة الأموية، عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، دمشق دار الفكر ١٤٠٨ق.

١٦٤- يهود بثوب الإسلام، نجاح الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، لندن، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٦٥- اليهود في الشرق الاوسط مأمون كيوان، الاهلية للنشر

واللوزيع، الأردن، عمان، ١٩٩٦م.

١٦٦- اليهود بين الخرافة والممارسة، عبد الوهاب زيتون، بيروت المنارة، ١٩٩٦م.

١٦٧- يهود قديما وحديثا، الشيخ محمد إبراهيم الجناتي مطبعة الآداب في النجف الأشرف، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، الغري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

٥	مقدمة المركز.....
٧	كلمة موسوعة.....
١٢	المقدمة.....

القسم الأول

٢١	الفصل الأول: في التعرّف على أنبياء الله.....
٢٤	الكلام الأول: إبراهيم خليل الرحمن.....
٢٥	منزلة النبيّ إبراهيم في آخر الكتب السماويّة.....
٣٠	دعاء إبراهيم في القرآن.....
٣١	وصية إبراهيم الخليل في القرآن.....
٣٤	ذريّة إبراهيم خليل الرحمن.....
٣٥	إبراهيم في التوراة.....
٣٧	دعوة إبراهيم الناس إلى الحج.....
٣٩	الكلام الثاني: الأنبياء من نسل إبراهيم الخليل.....

- ٣٩..... النبي إسماعيل
- ٤٠..... إسحاق النبي
- ٤١..... النبي يعقوب وبنو إسرائيل
- ٤٢..... النبي يوسف
- ٤٣..... موسى بن عمران
- ٤٨..... النبي هارون
- ٥٠..... النبي يوشع
- ٥١..... النبي داود
- ٥٢..... النبي سليمان
- ٥٤..... عيسى المسيح
- ٦٠..... محمد رسول الله آخر الأنبياء من نسل إبراهيم
- ٦٠..... خلقته النورية
- ٦١..... خلقته في الأرض
- ٦٢..... مولد رسول الله
- ٦٥..... محمد ينادي بدين إبراهيم
- ٦٧..... معرفتنا بالرسول الخاتم
- ٧١..... أول من صدق بالنبي وصيه
- ٧٥..... القرآن المجيد كتاب الرسول معجزة خالدة
- ٨٠..... الفصل الثاني: منشأ اليهودية في بني إسرائيل واليهود في جزيرة العرب...**
- ٨١..... الكلام الأول: منشأ اليهودية
- ٨٥..... الكلام الثاني: بنو إسرائيل في جزيرة العرب

- الكلام الثالث: تواجد اليهود في مكة المكرمة..... ٨٩
- الآيات القرآنية الدالة على وجود اليهود في مكة..... ٩٢
- الكلام الرابع: اليهود في يثرب وأطرافها..... ٩٨
- يثرب..... ٩٨
- هجرة بنى إسرائيل واليهود إلى يثرب..... ٩٩
- يهود تيماء ووادي القرى..... ١٠١
- الطوائف الأصلية لليهود الحجاز..... ١٠٢
- ثقافة اليهود في المدينة..... ١٠٣
- الفصل الثالث: خلفيات اليهود وموقفهم مع الرسول الخاتم..... ١٠٩**
- الكلام الأول: معرفة اليهود برسول الله..... ١١١
- معرفة الرسول بالاسم..... ١١٤
- اسم محمد..... ١١٤
- اسم أحمد..... ١١٦
- معرفة الرسول بالأوصاف..... ١١٨
- إنه من ولد إسماعيل..... ١١٨
- يتيم الأم والأب..... ١١٨
- مولده مكة ومهاجره المدينة..... ١١٩
- صاحب الجمل وراكب الحمار..... ١١٩
- على كتفه خاتم النبوة..... ١٢٠
- صاحب المعراج..... ١٢٢
- كتابه القرآن..... ١٢٢

- ١٢٣..... معرفته بأخلاقه الحميدة
- ١٢٤..... معرفته بجوابه على المسائل العلمية
- ١٢٥..... معرفته بصدور المعجزة عنه
- ١٢٧..... معرفته من جهة ذريته وأوصيائه
- ١٣٠..... الكلام الثاني: عدااء اليهود بالنسبة للنبي المكرم
- ١٣٠..... عدااء اليهود لأجداد النبي
- ١٣٣..... تعرّض اليهود لشخص النبيّ قبل البعثة
- ١٣٤..... تعرّض اليهود للنبيّ بعد البعثة
- ١٣٩..... الفصل الرابع: علاقة الرسول واليهود بعد الهجرة**
- ١٤١..... الكلام الأول: هجرة النبي والمسلمين
- ١٤٢..... هجرة المسلمين إلى الحبشة
- ١٤٥..... هجرة النبيّ إلى المدينة
- ١٥٢..... الجوّ الحاكم في المدينة إبان الهجرة
- ١٥٤..... الكلام الثاني: المرحلة الجديدة في ارتباط النبيّ مع اليهود
- ١٥٤..... المنشور العام الأوّل بعد الهجرة
- ١٥٩..... الوحدة هي الأمانة العظمى
- ١٦٦..... أهميّة هذا العهد
- ١٦٨..... الكلام الثالث: التعامل مع يهود بني إسرائيل
- ١٧٢..... معاهدة مع يهود بني إسرائيل
- ١٧٥..... أهميّة المعاهدة الثانية
- ١٧٦..... معاملة اليهود مع الرسول ودواعيها

الصفحات المشرقة لليهود.....	١٧٨
الفارق بين طوائف اليهود.....	١٨٠
الخيانة على البشريّة.....	١٨٠
اكتساب الذلّة الأبديّة.....	١٨١
كيف تشدّدت مجابهة اليهود في أوّل الهجرة.....	١٨٢
الكلام الرابع: بيان القرآن عن اليهود في أوائل الهجرة.....	١٨٥
اليهود في القرآن أوائل الهجرة.....	١٨٥
اليهود في سورة البقرة.....	١٨٧

القسم الثاني

الفصل الأوّل: دورة جديدة من علاقات اليهود والرسول.....	١٩١
الكلام الأوّل: تهييج اليهود وبدء إشعال الحرب.....	١٩٤
معركة بدر وآثارها على سلوك اليهود.....	١٩٤
غزوة بني قينقاع.....	١٩٨
عوامل غزوة بني قينقاع.....	٢٠٠
تاريخ الغزوة.....	٢٠٣
شروع الغزوة.....	٢٠٤
آثار الغزوة.....	٢١٠
ردود فعل اليهود بعد جلاء بني قينقاع.....	٢١١
محاولات المشركين بين بدر وأُحد.....	٢١٢

- اليهود في القرآن أواسط الهجرة..... ٢١٥
- الكلام الثاني: غزوة بني النضير وعواملها..... ٢١٧
- طائفة بني النضير وموقعهم عند اليهود..... ٢١٧
- مقتل كعب بن الأشرف..... ٢١٩
- غزوة بني النضير..... ٢٢٢
- أسباب الغزوة..... ٢٢٥
- إعلان الحكم الابتدائي وردود فعل اليهود..... ٢٢٨
- خداع شيطان المدينة وظهور شقاء آخر..... ٢٢٩
- تاريخ الغزوة..... ٢٣٠
- كيفية الغزوة والحصار..... ٢٣٠
- غنائم بني النضير..... ٢٣٨
- آثار هذه الغزوة..... ٢٣٩
- معجزة الرسول بمحضر يهودي..... ٢٤٠
- ٢٤٢..... الفصل الثاني: أوج عنف اليهود**
- الكلام الأول: غزوة الخندق..... ٢٤٤
- نزول آيات من سورة الأحزاب..... ٢٤٤
- دراسة الآيات:..... ٢٤٥
- ملاحظة الأخبار التاريخية لمعركة الأحزاب..... ٢٤٩
- دور اليهود..... ٢٥٣
- رأفة رسول الله..... ٢٥٦
- سر الانتصار: شجاعة الإمام علي..... ٢٦٠

- ٢٦٤.....نقض بني قريظة العهد
- ٢٦٧.....الكلام الثاني: غزوة بني قريظة
- ٢٦٧.....الآيات التي تتحدّث عن غزوة بني قريظة
- ٢٦٨.....أسباب الغزوة
- ٢٦٨.....كيفية الغزوة
- ٢٧٤.....حكميّة سعد
- ٢٧٦.....عدد رجال بني قريظة
- ٢٧٩.....غنائم بني قريظة
- ٢٨١.....حقيقة الحرب في الإسلام
- ٢٨٤.....درس في التوبة والإخلاص
- ٢٨٦.....الكلام الثالث: إقدامات الرسول قبل غزوة خيبر
- ٢٨٨.....سرية أبي رافع
- ٢٩٣.....بيعة الرضوان وصلاح الحديبية
- ٢٩٤.....صلاح الحديبية
- ٢٩٧.....إرسال الكتب إلى الأطراف والرّسالة إلى خيبر
- ٣٠١.....الكلام الرابع: غزوة خيبر
- ٣٠١.....دوافع الرسول والردّ على المستشرقين
- ٣٠٢.....الحكومة الإسلاميّة
- ٣٠٥.....حقيقة هذه الحرب وردّ كلام المستشرقين أيضًا
- ٣١٠.....نزول سورة الفتح والبشارة بفتح خيبر
- ٣١٢.....ما هو الصّراط المستقيم؟

- ٣١٤.....خير الخضراء
- ٣١٦.....تاريخ الغزوة
- ٣٢٠.....فتح حصون نطاة
- ٣٢٤.....فتح حصن صعب بن معاذ
- ٣٢٦.....فتح حصن الزبير
- ٣٢٦.....فتح منطقة الشق - وقلعة النزار
- ٣٢٨.....فتح منطقة كُتبية - قلعة قموص
- ٣٣٠.....الفصل الثالث: تغيير اليهود طريقة تعاملهم مع الرسول**
- ٣٣٢.....الكلام الأول: خضوع اليهود بعد الشوكة
- ٣٣٢.....معاهدة الصلح
- ٣٣٥.....ظروف اليهود
- ٣٣٦.....عبرة للمسلمين
- ٣٣٧.....أهمية فتح خير
- ٣٤٠.....زواج الرسول بصفية بنت حيي بن أخطب
- ٣٤٢.....زينب أخت مرحب
- ٣٤٣.....عودة جعفر بن أبي طالب من الحبشة
- ٣٤٥.....ردّ الشمس
- ٣٤٨.....الكلام الثاني: يهود فدك
- ٣٥٢.....نظرة عابرة على أمر فدك
- ٣٥٤.....سعة فدك
- ٣٥٨.....وادي القرى

- ٣٥٩.....تيماء
- ٣٦٣.....الكلام الثالث: إخراج اليهود من جزيرة العرب
- ٣٧٥.....مصادر الكتاب

